سبع قراءات

في كتاب سيبويه

أ.د. رجاء عجيل الحسناوي
جامعة كربلاء
كلية التربية للعلوم الإنسانية

أ.د. رجاء عجيل الحسناوي

سبع قراءات في كتاب سيبويه

سبع قراءات

في كتاب سيبويه

مكتبة العلامة
ابن فهد الحلي
كربلاء المقدسة - العراق

كربلاء المقدسة - شارع قبلة الإمام الحسين عليه السلام

مجاور مرقد العلامة ابن فهد الحلي قدس سره

هاتف: ٠٧٨٠١٥٨٨٧٠٧٠ - ٠٧٨٠١٥٥٨٩٤٢

البريد الالكتروني: owayde110@gmail.com

سبع قراءات في كتاب سيبويه

تأليف
أ . د. رجاء عجيل الحسناوي

جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

مكتبة العلامة ابن فهد الحلي قدس سره
كربلاء المقدسة ـ العراق

كربلاء المقدسة ـ شارع قبلة الإمام الحسين عليه السلام
مجاور مرقد العلامة ابن فهد الحلي قدس سره
هاتف: ٠٧٨٠١٥٨٨٧٠٧ ـ ٠٧٨٠١٥٥٨٩٤٢

البريد الإلكتروني: owayde110@gmail.com

الإهداء...

إلى مَنْ مات كولادة ...

وعرفته رضاعاً للآن لم أفطم...

إلى مَنْ موطيء ثغره ثغر النبي كتبت إليك يا برعمه...

و عفوك إنْ جَدَبَ قلمي وثبتتْ أنملي كسيرة ...

يا مالئ الدنيا مروءة ...

تقبّل مني هذا القربان ..

فأنا اعلم أنّ لي قدراً ...

سألقاه ولن أصده إنْ عوى ...

لأنّي إليك انتمي في زرد محكم..

يا حسين .. يا شرفي ... وناصيتي ... وعنواني.

المؤلفة

مقدمة الصنعة

الحمد لله ربّ العالمين منزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم وآله الطيّبين الطاهرين .

وبعد...

يُقال إنّ شرف العلم بشرف المعلوم فإذا تعلّق العلم بكتاب الله جلّ ثناؤه، فذلك أعظم العلوم وأشرفها، فكذا قرآن النحو (كتاب سيبويه) إذ هو المرقاة إلى فهم الكتاب كما قال أبو حيان الأندلسي. وقد كانت مع اتصال قراءتي لكتاب سيبويه تتردد في ذهني عبارة المبرّد «هل ركبت البحر». فقلت مع نفسي لا تُذهب تلك العبارة بسعيي حتى وإنْ كان قعر البحر بعيداً، فجعلته شريك الحياة في البحث حينما عمّر في فكري وتنفّس به الزمن مع نفسي ورُحت اتنقّل فيه بين النظرية والقاعدة والاستعمال، وصاحبه يرسم بواكير المعالم المنهجية ويتبع الرؤى التفسيرية فلم يُحلِّ كتابه بالنحو فحسب بل وشّحه بتحليل الخطاب ولسانيات النص كذلك، حينما درَسَ اللغة بوضعها البنيوي واستعمالها التداولي؛ ولأنّ

العرب نطقت على سجيتها وطباعها فقد نبّه به «على مقاصد العرب وانحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها ولم يقتصر فيه على أنّ الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يُبيِّن في كلّ باب ما يليق به حتى أنّه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني»[1].

فمعالجاته اللسانية كانت اشواطاً تُقطع في ميدان المعرفة الابستمولوجية بما اقتضته هذه المعالجات من دمج لمشاريع معرفية متعدّدة ضمن تفسيره ظاهرة التواصل اللغوي عبر التراكيب، حيث تضمّنت نصوصه مقتضيات خارجية ومفاهيم تجارية ودينية وغير ذلك، مستثمراً البعد الدلالي الاجتماعي في التقعيد النحوي. فلم تكن اللغة عنده نظاماً مفترضاً لا علاقة له بالتحقق الفعلي، بل وجدنا أنَّ أوصاف مجتمعه في بعض الأحيان كانت سبيلاً لاختياره وجهاً إعرابياً دون آخر، وهو ما يؤكد أنَّ للبيئة الاجتماعية ـ عند سيبويه ـ صلة بالحدث اللغوي يستنبط على أثرها الحكم والفهم، حتى قادت هذه الطروحات بعضهم إلى اتخاذه مرجع فتيا بمادته القابلة للولوج إلى حيّز الفقه إلى حدّ لا يمكن وضع الحواجز بينهما حيث يقول الجرمي: «أنا مُذ ثلاثون أُفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه»[2].

فجاءت هذه القراءات السبع[3] أثر حضرة الدرس في التراث اللغوي

---

(١) الموافقات ٤/١١٥ ـ ١١٦.

(٢) مقدمة الكتاب ص٥ ـ ٦.

(٣) هي مجموعة بحوث نُشرت كلّها في مجلات واستدعى بعضها أنْ تكون أطاريح اتخذها طلبة الدراسات العليا مجالا للبحث بعد بيان الأسس السيبويهية القويمة في بناء الصرح اللغوي انصبّت في محاضرات اُلقيت عليهم.

السيبويهي متبنيّة ـ بعين التأمل والنظرة الموضوعية ـ الإتجاه التأصيلي لما ورد فيها بالانزواء إليه والانكفاء على معطياته، وقد طأطأتُ لصعوبته؛ لأنّه حمّال أوجه، وفي أسلوبِه كثيرٌ مِنَ الغموضِ، يقولُ ابنُ كيسان: «نظرنا في كتابِ سيبويه فوجدناه في الموضعِ الذي يستحقُّه، ووجدنا ألفاظَه تحتاجُ إلى عبارةٍ وإيضاحٍ؛ لأنه كتابٌ أُلِّفَ في زمانٍ كان أهلُه يألَفونَ مثلَ هذه الألفاظِ، فاختُصِرَ على مذاهِبِهم»[1].

فقول مثل: (ما أغفله عنك شيئاً)[2] التبس أمره حتى على الأخفش الذي قال عنه: «أنا منذ عقلتُ أسأل عن هذا فلم أجد مَنْ يعرفه على الحقيقة.

أمّا يونس فقد قال عنه إنَّه: ذهب مَنْ يعرف هذا. وقد فسَّره سيبويه بـ(دع الشك) والسبب في هذا هو أنَّ هذا كلام جرى كالمثل وفيه حذف قلّ استعماله مظهراً فمضى من كان يعرفه»[3].

فالمضمر خفي على مَنْ لم يسمعه ولا معين إلى الاستدلال عليه ذلك أنَّ (شيئاً) قد انتصب بفعل ليس هو المذكور في أوّل الكلام إلاّ أنّ أبا بشر في تفسيره اعمل العقل ليُنظّم العمليات التأويلية تنظيماً محكماً كيما يُفهم النظام اللغوي في تكامله العضوي واكتماله الوظيفي.

فما مثَّلَه الكتاب وصاحبه من فكر لغوي عزّ نظيره في حضارتنا وانجازاتها اللغوية المتعددة حدا بأحد الباحثين إلى الاعتقاد بـ «أنَّ زمن انتاج النحو يتلخص

---

(١) خزانة الأدب ١/ ٧٩.

(٢) أورده سيبويه في باب من الابتداء يُضمر فيه ما يُبنى على الابتداء ((ومثل ذلك حينئذٍ الآن إنّما تريد واسمع الان وما أغفله عنك شيئاً أي دع الشك عنك)) الكتاب ٢/ ١٢٩.

(٣) أمالي القالي ـ مسألة في كتاب سيبويه.

في لحظتين رسمتا معالمه الأساسية لحظة الظهور في أوائل القرن الأول للهجرة واللحظة السيبويهية، حيث اكتمل بناء الخطاب النحوي على يد أبي بشر»[1].

وهو رأي له من التوفيق مظِنّة ويشيع في الخاطر سداده بإنعام تصفّح الكتاب؛ إذ استطاع أبو بشر وهو الذي عاش في أوائل عصر التدوين اللغوي أنْ يقدِّم لنا رصداً لتحليل كلام العرب يقف مضاهياً للنظريات اللغوية في العصر الحديث، ونعتقد أنّ مرّد ذلك إلى أنّه وظّف أساسيات فرضها الواقع اللغوي منها ظروف إنجاز الخطاب والحال النفسي والاجتماعي لكلٍّ من المتكلِّم والمخاطب وملابسات الخطاب والغرض منه، فأبان عبر ذلك عن أنّ اللغة أداة تواصلية كمنت فيها وظيفتان:

الأولى: الوظيفة المعرفية المتمثلة في نقل الرموز الذهنية بوسائل لغوية وغير لغوية.

والأخرى: الوظيفة التأثيرية وتقوم على العلاقات الإنسانية التي يتمكّن بها المتخاطبون من التفاعل فيما بينهم وهذا يعتمد على تعاون بعضهم مع بعض.

وأثابتُ عرفاناً مقولة الخليل التي أعانتني على صحبة الكتاب الممتعة والمغذّية فائدةً حينما سئل عن العلل فقال: «فاعتللت أنا بما عندي أنّه علة لما عللته منه، فإنْ أكن أصبت فهو الذي التمست وإنْ تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والاقسام وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما فعل هذا هكذا لعلّة كذا كذا ولسبب كذا كذا سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك فجاز أنْ يكون الحكيم الباني

---

(١) الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي ص ١٦.

للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلاّ إنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أنْ يكون علة لذلك فإنْ سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعول فليأتِ بها»[1].

وبعد...

أحمد الله حمداً يليق به سبحانه على ما يسَّر وأعان عليه كان توكلي وإليه إنابتي فما كُتِب كان بحث اجتهادي يحتمل الصواب والخطأ فـ«هدفنا كان أنْ ندع سيبويه يترافع في قضيته بكلماته هو»[2].

١٩ من ذي القعدة ١٤٣٦هـ

---

(١) الإيضاح في علل النحو ص٦٥ ـ ٦٦.

(٢) عشرون درهماً في كتاب سيبويه ص١٢٨.

الحجاج بمفهوم المنزلة عند سيبويه
(مقاربة تشييدية بين الغرض العلمي والتعليمي)

ملخص البحث:

مازال سيبويه يمدّنا بفكره الرصيد وتأمله العميق بمسارات دقيقة نعمل بها على إعادة فهمنا له، وفهمنا للكيفية التي تحلّل بها أنماط الاستعمال اللغوي، وقد وجدنا أنّ محوراً من محاوره المهمة في التحليل النحوي كان استعماله للفظة المنزلة وهو يحاول أنْ يقدّم تصوّره أو تصوّر أستاذه الخليل في هذا الموضع أو ذاك من كلام العرب. ولقد كان تردد هذه اللفظة من الكثرة بمكان أنْ يلفت الانتباه ،فعمدنا إلى تخصيص بحث مستقلّ للكشف عن المفهوم السيبويهي الذي أراده فيها ليحملها رؤيته التحليلية للكلام ومكوناته الصغرى. وقد وجدنا أنّ مفهوم هذه اللفظة قد اقترن بمسار حجاجيّ قدّمه سيبويه بين يدي متلقيه في إثبات حجته وراجحة ما انتحاه.

وقد استقرّ تناول موضوع بحثنا على ثلاثة مباحث:

الأول: الأساس الأصولي (المعرفي) في استعمال المنزلة.

الثاني: المنزلة والتمثيل: قياس في الافتراض الدلالي للكلام ومكوناته.

الثالث: الأساس التداولي في استعمال المنزلة.

وجرى تقسيم ما اخترناه من موارد استعمال المنزلة على هذه المباحث طبقاً للمفهوم الذي يمكن فهمه من هذه اللفظة.

ديباجة البحث

شيء لا يغفل عن ذكره...

«لا يؤلف أحد كتاباً إلاّ في أقسام سبعة لا يمكن التأليف في غيرها، وهي إمّا أنْ يؤلّف في شيء لم يُسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتمّمه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو طويل يختصره دون أنْ يخلّ بشيء من معانيه، أو شيء مختلط فيرتّبه، أو شيء أخطأ فيه مصنّفه يُبيّنه، أو شيء مفرق يجمعه»[1].

وحسبنا المفرق لنجمعه فالمعاني المقنعة قد تكون ممتعة إذا توشحت بالتخييل والتصوير والمعاني الممتعة قد تكون مقنعة إذا استنبطت بقوة الفكرة وثاقب النظرة، فهذا تفسيرنا للمنزلة، ولنستمدّ من جمع قراءتنا قراءة سيبويه لها.

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ص٥.

مهاد

تنضوي تحت أساس البحث العلمي حقيقة مفادها، أنّه لا علم إلاّ بالبرهان، ولا برهان إلاّ بالانبناء على مقدمات ومبادئ ضرورية. ويمكن الكشف عن ذلك بوضوح في معالجة سيبويه بناء كتابه بوسائل وآليات عملت على توليد المعرفة وإنتاجها، بإقامة الدليل بطريقة منهجية سليمة يمكن أن نصفها بالانبنائية الأمر الذي دفع للكشف عن النظر في بناء نصوصه بما فيها من معارف مختلفة، ومضامين متنوعة .

إنّ رصدنا بنية نصوص الكتاب جعلتنا نستوحي صوراً خاصة منه لتقديم مختلف المعلومات التي تُحدّد العلاقات الاستدلالية[1]. بين التراكيب بوصف (آلية الاستدلال) نسقاً منطقياً تداولياً يُبنى بها الخطاب الطبيعي من حيث إنّ الاستدلال «**انجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أي متواليات من الأقوال والجمل بعضها بمثابة الحجج، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تُستنتج منها**»[2].

وقد سعى سيبويه إلى تحصيل الاستدلال عبر مفهوم المنزلة، ذلك المفهوم الذي يشترك فيه، علم أصول الفقه، وعلم الكلام والنحو، والبلاغة بوصفه

---

(١) من أمثلة العلاقات الاستدلالية علاقة الشرط، والاستلزام، والسببية، والتفسير، والقياس، والاستنتاج. ينظر الخطاب والحجاج ص١٧.

(٢) سلطة الكلام وقوة الكلمات ص١٤٢.

مفهوماً تفسيرياً [1]، من حيث إنّ هذه العلوم متفاعلة فيما بينها مما يشي بالقول إنّ نصوص سيبويه جاءت محققة لأغراضها ومؤثرة في خالفيها (متعلمين وناقدين)، فالاشتغال بمثل هذه الآليات جعل نصوصه منظمة ومعلّلة؛ لأنّها مبنية بناءً استدلالياً معتمداً الضوابط العقلية، وأحياناً النقلية؛ لإقامة الحجة بهدف الإقناع.

إنّ نزوع سيبويه إلى تلك المركزية في كتابه، إنّما هو إحداث لتغييرات في الأفكار أو توجيهها على نحو صحيح ويستنبط من ذلك، أنّ الوصول إلى إثبات صدق قضية أو تفنيدها في برهنة جدلية هو ما ينماز به الاستدلال الحجاجي، بحيث تفضي المقدمة إلى النتائج وتخدم النتائج المقدمة، وهذه الطريقة التي اتبعها سيبويه تنمّ عن أنْ يكون الإقناع هدفاً وسيلته (المنزلة)، وأنّ امتلاك الإقناع لحدّ **«هو حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده»**[2].

يُعمّق وصف المنزلة أنّها فعل متعدد الصور يسعى لإحداث تأثير أو تغيير إمّا بفعل أو ترك ويوجب أن يمتلك المقنع كفاءة تواصلية واقناعية تتميّز هذه الكفاءة بمهارات هي:

١ـ مهارة التحليل والابتكار.

٢ـ مهارة العرض المنظم للأفكار.

---

(١) وظّف سيبويه هذا المفهوم في التفسير المرتكز على استدلال يتصل بعلم من علوم القرآن يُسمّى المكي والمدني، من ذلك ما نقله عن أبي الخطاب قائلاً: "وزعم أبو الخطاب أنّ مثله قولك للرجل: سلاماً. تريد تسلّماً منك، كما قلت: براءة منك... وزعم أنّ هذه الآية ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ بمنزلة ذلك، لأنّ الآية فيما زعم مكية ولم يؤمر المسلمون يومئذ أنْ يُسلّموا على المشركين، ولكنّه على قولك براءة منكم وتسلّماً لا خير بيننا وبينكم ولا شرّ". الكتاب١/٣٢٤ـ٣٢٥ ، والآية الفرقان/٦٣.

(٢) منهاج البلغاء ص٢٠.

٣ـ مهارة فهم دوافع تساؤلات واعتراضات المتلقي.

إنّ الإيماء إلى هذه المهارات ليس من باب التصنيف، بقدر ما هي إطار لم يفت سيبويه اتخاذه هيكلاً يبني عليه حججه على وفق مرجعية ثقافية سائدة ومشتركة بينه وبين متلقيه بعيداً عن المغالطات الوصفية. إنّنا ههنا لا نرتجل القول بنجاح سيبويه في الاقناع المرتدّ إلى الاستدلال، بقدر ما تكفّلت به رؤيته في تحديد ذلك الإقناع المرتكز على وسيلة تصريفية لغايته وهي (المنزلة) [1]. ويُفهم من ذلك أنّه اعتمد أسساً لبيانها يراها المتمعّن في:

١ـ النصوص ذاتها: من حيث إنّ لها عمقاً ومكوّنات لا يمكن أنْ تفهم من

---

(١) مثلت المنزلة عند سيبويه قانون الاستقراء اللغوي مما مهّد لظهور القياس المنطقي بعد ذلك، يتضح هذا الأمر عبر إحصاء موارد ذكرها إذ ورد ذكرها (١٧٩٧) مرة في الكتاب:

- في الجزء الأول ذُكرت (٥٩٤) مرة.
- في الجزء الثاني ذُكرت (٦٩٩) مرة.
- في الجزء الثالث ذُكرت (٤٨٦) مرة.
- في الجزء الرابع ذُكرت (١٨) مرة. وهذا العدد قليل بإزاء الأجزاء الأولى، مما يقودنا إلى القول بظنٍ منا أنّ الإحاطة بدلالاتها قد تبيّنت سلفاً، فلم يُحتج إلى التكرار، فتجنّب بها الإعادة؛ لأنّها وسيلته في الإحالة على مواضع متقدمة. هذا من جانب ومن جانب آخر أنّه تعامل في الأجزاء الأولى مع التراكيب فلها دلالات تحتاج معها إلى تمثيل، أو عرض مشابهة، أو مساواة، أو نفي تلك المساواة مما تطلّب معه الكثرة في استعمالها لحاجة التحليل، أو التعليل، أو الإيضاح. وننوّه إلى أنّ استعمال هذه المفردة قد اختفى بعد سيبويه عند النحاة الخالفين إلاّ في إشارات قليلة ورد ذكرها، منها إشارة ابن جني في الخصائص في حديثه عن عدم جواز تقديم المستثنى على الفعل الناصب في ٣٨٤/٢ ـ ٣٨٥ و٢٤٩/١، وإشارة ابن هشام في حديثه عن السين المهملة، وكلتا الإشارتين في معنى (موضع النزول)، أي: المكان. وانْ زاد ابن هشام معنى آخر، وهو(المشابهة) في حديثه عن (سيّ) في (لاسيّما)، فهو مشابه لـ(مثّل) وزناً ومعنى. ينظر المغني١ /٢٧٥و١ /٢٧٦ .

دون التعريف بها وتعيينها ووصفها ببيان العلاقات الممكنة فيها.

٢ـ المعرفة النظرية: التي تعود إلى التصورات التي يمتلكها سيبويه، عن الوقائع الخاصة بالدلالة وسبل إنتاجها والمواد الحاملة لها، فقراءته التحليلية إنّما جاءت معزَّزة بالمعرفة الإنسانية من أجل وصف المعنى.

٣ـ ثقافة المتلقي وقدرته على استحضار مرجعيات النصوص، سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية أم تأريخية أم نفسية وقدرته على الربط بين ما هو معطى بصورة مباشرة وبين معارفه الموسوعية والأشياء القادرة على استحضار أمور قد لا تتجلّى مباشرة في ظاهر النصوص، بل تسلك مسلك الظل يدركها المتلقي إدراكه لمن هي ظل له، فها هو يصبّ معطيات أسسه الاقناعية في تصميم نصّه في باب (حتى) إذ يقول :«**فحتى ههنا بمنزلة إذا وإنّما هي ههنا كحرف من حروف الابتداء... ويدلّك على (حتى) أنّها حرف من حروف الابتداء أنّك تقول: «حتى انّه ليفعل ذاك»، كما تقول: «فإذا انّه يفعل ذاك»... ومثل ذلك: «مرض حتى يمرُّ به الطائر فيرحمه»**»[1].

فقد أسفر النص السيبويهي عن استيعاب وإدراك لغوي وظّف له أداة (المنزلة) وعكست ثنائية اللغة والكلام، فقد حدّد القيمة اللغوية لـ(حتى) بتعيين سماتها التمييزية بأنّها للابتداء منطلقاً من هذا المنظور الوصفي إلى مرتكزات خارجية يحدّدها النظام العرفي والتداولي للغة في المواقف الواقعية في إفادة معنى المبالغة، فهو يتلقى الرحمة مما يمرّ به من طائر، واستناداً إلى مبدأ ثنائية اللغة والكلام نرى أنّ لمنهجية (المنزلة) آلية حجاجية تبنّاها سيبويه في تناول الأفكار اللغوية في صياغة تداولية للإقناع اتخذت بعدين:

(١) الكتاب٣/ ١٨ ـ ١٩.

ـ الأول: بعدٌ يعكسه المبنى.

ـ والآخر: بعدٌ حواري (بآليتيه التشخيص والمقام). إذا ما أُخذ بالحسبان أنّ الحوار تفاعل الذوات مع محيطها الخطابي بوصفه خاصية تداولية، للخطابات الحجاجية. يبدو أن الجامع بين البعدين هو تشبيه قول بقول آخر بينهما مشابهة ليُبيّن أحدهما الآخر، ويصّوره في برهانية تترك أثرها في المتلقي بتغيير المنظور الأول، واستحداث منظور جديد إلاّ أنّ المشابهة في المنزلة ههنا تعلو قيمتها على مفهومها المستهلك بين اشياء ما كان لها أنْ تكون مترابطة أبداً، ومن ثَمّ عُدّت عاملاً أساسياً في عملية الإبداع باستعمال سيبويه لها حجاجاً مقارنياً، إمّا عن طريق طرح معادلة صورية خالصة، وإمّا عن طريق الانطلاق من التجربة بهدف إفهام الفكرة سعياً لأن تكون الفكرة مقبولة بنقلها من مجال إلى مجال مغاير.

فالمنزلة جمعت بين التأثير النظري، والتأثير السلوكي العملي وهي رؤية جديدة بالفعل فكان الاستدلال الحجاجي بها انجازاً لعملين، عمل التصريح بالحجة من جهة، وعمل الاستنتاج من جهة أخرى، انطلاقاً من محاولة إثبات وجود شيء مُعيّن عبر النموذج الثنائي المتضاد (بمنزلة ـ ليس بمنزلة). ذلك أنّ معنى الإثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له وكذا حال النفي إذ يقتضي منفياً ومنفياً عنه، ومن ثمّة يكون هناك إثبات عدم وجود ذلك الشيء المنفي، ففي كلتا الحالتين يقع الإثبات، وهو ما دعاه إلى أنْ يظلّ مخلصاً لطريقته الخاصة في البحث عن إجابات، لا تلبث أنْ تثمر هي الأخرى عن تساؤلات جديدة بطرق منهجية، بما أكسب بحثه اللغوي توجّهات فكرية تحاول قراءتنا للمنزلة أنْ تكشف عن العقل الكامن وراء النظام.

ويظهر أنّ سيبويه قد أقام المنزلة في ظل أن تكون في صلب الجهاز التواصلي لإدراك الكلام وإقامة الحجج.

المبحث الأول: الأساس الأصولي (المعرفي) في استعمال المنزلة

ونعني به البعد الذي يبحث في اللوازم الذهنية العامة التي تتطلبها عملية إنتاج الكلام «**فمن دون تلك العمليات العقلية تفقد المكوّنات اللغوية قدرتها الأدائية في الاستعمال**»[1].

إنّ عائدية النظام اللغوي الاجتماعية لجماعة بشرية مُعيّنة، تؤسّس عند سيبويه على افتراض أنّ للغة نظاماً محكماً من الضروري اكتشافه، وأنّ هذا النظام ليس ابتكاراً لشخص بعينه، بل هو نظام للجماعة اللغوية، فيتلاءم معيار المنزلة ههنا والمبدأ التفسيري، ذلك المبدأ الذي يجعلنا نصنّفه حين ترتبط دلالة المنزلة به إلى:

١ـ التفسير بالمنزلة للإيضاح:

وهو مبني على أساس دلالي يُزيل المعنى الثاني الإبهام في المعنى الأول إلاّ أنّه ليس من قبيل التكرار بقدر ما هو إيضاح وإثارة للقدرة المعرفية في المتلقي جاء في (هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين) قوله: «**وانْ قلت: رأيتُ، فأردتَ رؤية العين، أو وجدتُ، فأردتَ وجدان الضالة، فهو بمنزلة ضربتُ، ولكنّك إنّما تريد بوجدتُ، علمتُ، وبرأيتُ ذلك أيضاً ألا ترى أنّه يجوز للأعمى أنْ يقول: رأيتُ زيداً الصالحَ. وقد يكون علمتُ، بمنزلة عرفتُ، لا تريد إلاّ علم الأول، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾**[2]. **وقال سبحانه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾**[3] **فهي ههنا بمنزلة عرفتُ ،**

---

(١) كليات المعرفة اللغوية عند الفلاسفة المسلمين في ضوء اللسانيات ص٢٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦٥.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

كما كانت رأيتُ على وجهين»[1].

إنّ المقاربة بين العلم والمعرفة ـ عند سيبويه ـ ربما فرضها النمط النحوي المقتضي حدود قوة التعدّي المتفاوتة في الفعلين إلّا أنّ خلفية علم الكلام لا تتوارى ههنا[2]. مما يشي بالقول إنّ نزوع سيبويه نحو تفسير كلام العرب وتركيباته وآلية فهمه، لم تكن عند تخوم النظر النحوي فحسب.

٢ـ التفسير بالمنزلة للتعليل:

وهو أنْ يُسوّغ ما بعد المنزلة للمُشكل قبلها ،من حيث إنّ الأصل في الأحكام التعليل ونركن إلى نص سيبويه إذ يقول: «**وقد جاء من الفعل ما قد أُنفذ إلى مفعول ولم يقوَ قوة غيره مما قد تعدّى إلى مفعول وذلك قولك: امتلأتُ ماءً وتفقأت شحماً، ولا تقول: امتلأتهُ، ولا تفقأتهُ ولا يعمل في غيره من المعارف، ولا يقدّم المفعول فيه، فتقول :ماءً امتلأتُ، كما لا يُقدّم المفعول فيه في الصفة المشبهة، ولا في هذه الأسماء؛ لأنّها ليست كالفاعل، وذلك ؛ لأنّه فعل لا يتعدّى إلى مفعول ، وإنّما هو بمنزلة الانفعال لا يتعدى إلى مفعول نحو: كسرتُهُ فانكسر ودفعته فاندفع»**[3].

إنّ للعامل قيمة كبرى جعلته يقارب بين الصفة المشبهة ومجموعة محددة من

---

(١) الكتاب ١/ ٤٠ وأورد سيبويه زعْمَ الخليل في بيت الأسود بن يعفر:

أحقاً بني أبناء سلمى بن جندلٍ تهدّدكم إيّاي وسط المجالس.

أنّ التهدّد هنا بمنزلة الرحيل بعد غد، ينظر الكتاب٣/١٣٦.

(٢) ذهب د.إدريس مقبول إلى أنّ مذهب سيبويه في ترادف العلم والمعرفة هو نفسه مذهب المعتزلة مستدلاً على ذلك بالنص أعلاه. ينظر الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ص١٩٩وص٢٠١.

(٣) الكتاب١/٢٠٤ ـ ٢٠٥ وينظر١/٩٠ ـ ٩١.

الأفعال بناءً على مشابهة شكلية في عملهما فالأفعال المذكورة في النص السيبويهي هي أفعال لا تتعدى إلى مفعول به وهو يقرنها (بمنزلة الأنفعال).

ويستقطب سيبويه مصطلح (المفعول فيه) ليدلّ على أنّ نصبها للمفعول إنّما هو نفاذ غير مباشر فهو مفعول كمفعول الملحقات بالفعل ؛ لأنّها ليست كالفعل في القوة، ولعمري أنّ أبا بشر أحدث توازناً بصورة تلقائية بين علاقة العنصر والموقع والوظيفة فجاءت علاقة منتجة في إطار حجاجي محتو على مقدمات ظنية قابلة للمناقشة وصولاً إلى إثبات صدق القضية. إذ التعليل النحوي أمر احتمالي يقوم على الفرض ووظيفته تسويغ النمط الاستعمالي للكلام يُؤازر ذلك قول الخليل: «إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله ، وإنْ لم يُنقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنّه علة لما اعتللته منه، فانْ أكن أصبتُ العلة فهو الذي التمستُ، وانْ لم تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم، دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام، وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما هذا هكذا، لعلة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجاز أنْ يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أنْ يكون فعله لغير تلك العلة، إلّا أنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل، محتمل أن يكون علة لذلك. فانْ سنح لغيري علة لما اعتللته في النحو، فهو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها»[1]. فبالعلل تتجلى صور الفرضيات ،ويُكشف عن الظواهر، وبمثل هذا الطرح يتبيّن مقدار حاجة النحو إلى هذا النهج من التفكير.

(١) الإيضاح في علل النحو: ص٦٦.

٣ـ التفسير بالمنزلة للتضمين:

وهو التفسير الذي يقترب مما يسمى في اللغويات الحديثة بمبدأ (الانضواء)[١]. الدال على احتواء عنصر بنيوي على دلالة ضمنية، نستقرأه من نص سيبويه: «**تقول: لا تأتيني فتحدّثني لم تُرد أنْ تُدخل الآخر فيما دخل فيه الأول فتقول: لا تأتيني ولا تُحدّثني، ولكنّك لمّا حوّلت المعنى عن ذلك تحوّل إلى الاسم كأنّك قلت: ليس يكون منك إتيان فحديث ، فلمّا أردت ذلك استحال أنْ تضمّ الفعل إلى الاسم ، فأضمروا (أنْ)؛ لأنّ (أنْ) مع الفعل بمنزلة الاسم ، فلمّا نوَوا أنْ يكون الأول بمنزلة قولهم: لم يكن اتيان. استحالوا أنْ يضمّوا الفعل إليه، فلّما أضمروا أنْ حسُن؛ لأنّه مع الفعل بمنزلة الاسم**»[٢].

فالفعل ههنا بمنزلة الاسم بقيام علاقة الاشتمال الضمني ـ احتوائه الحدث (الإتيان) ـ فقد رصد سيبويه سلوكاً متميّزاً لـ(أنْ)الناصبة ومعمولها الفعل، في أنّها تسلك مسلك التركيبات العبارية مما يجعلها تقع موقع الاسماء في الجملة ، بمعنى أنّ الحرف (أنْ) وصلته (الفعل) يشغل في الجملة موقع الاسم، يدلّ على ذلك ما جاء في أحد الأبواب قوله: «هذا باب من أبواب أنْ التي تكون والفعل بمنزلة المصدر. تقول: أنْ تأتيني خيرٌ لك. كأنّك قلت: الإتيان خيرٌ لك»[٣].

وليس معنى ذلك أنّها وصلتها بمعنى الاسم (زيد) و(عمر)، بل أراد بها سيبويه الاسمية مفهوماً.

---

(١) يُقصد بالانضواء تضمّن عنصر بنيوي دلالة ضمنية ثانية ، ينظر مدخل إلى علم اللغة (تود) ص٩٦ ، واللسانيات والبيداغوجيا ص١٤١وص١٧٢وعلم المعاني(عتيق) ص١٤٠ .

(٢) الكتاب٣/٢٨ .

(٣) الكتاب٣/١٥٣ .

٤ـ التفسير بالمنزلة لتأصيل الأصناف:

وهو أنّ ما بعد المنزلة يوضّح السبب، ومما يؤكّد قيمة هذا الضرب من التفسير بالمنزلة، أنّ سيبويه يؤصّل تصنيف الفعل عبره بالنظر إلى الحدث بوصفه صنفاً معرفياً قائماً بذاته كمَنَ في الفعل، يقول: «**ألا ترى أنّ قولك: قد ذهب بمنزلة قولك: قد كان منه ذهاب. وإذا قلت: ضرب عبدُالله ، لم يستبِن أنّ المفعول زيدٌ أو عمرو، ولا يدلّ على صنف، كما أنّ ذهب قد دلّ على صنف، وهو الذهاب، وذلك قولك: ذهب عبدُالله الذهاب الشديد، وقعد قِعدة سوء، وقعد قعدتين. لمّا عمل في المرّة منه والمرتين، وما يكون ضرباً منه**»[1].

فالحدث عند سيبويه عامل رئيس في البنية التركيبية يحيل على ذلك قوله: (عمل في المرة والمرتين) فهو يدعم هذه الفكرة بالمستويات التمثيلية، بقوله: «**وما يكون ضرباً منه ، فمن ذلك : قعد القرفصاء واشتمل الصمّاء ورجع القهقرى؛ لأنّه ضربٌ من فعله الذي أُخذ منه**»[2].

ويُبيّن سيبويه سبب رؤيته هذه، فالمسألة ههنا تخضع لتصنيفات ـ وهي تصنيفات تكون في بُعدها الأول محاكية لحركة الفعل وقد تمتدّ لما هو أبعد من ذلك ـ ذات بُعد احالي مباشر ومرتبط بقيم التركيب والترابط الحاصل بين أجزاء هذا التركيب فالفعل عند سيبويه أخذ «**من لفظ أحداث الأسماء**»[3] . فالذهاب في (ذهب) حالة تمثيلية خاصة بالفعل بأسبقية متصوّرة.

ويتوغّل سيبويه في أبعاد هذا التفسير ضمن نص آخر قائلاً: «**ألا ترى أنّك إذا**

---

(١) الكتاب ١/ ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) الكتاب١ /٣٥.

(٣) الكتاب ١ /١٢.

قلت: ضاربٌ رجلاً، أو مأخوذ بك، وأنت تبتدئ الكلام احتجت ههنا إلى الخبر، كما احتجت إليه في قولك: زيدٌ وضاربٌ، ومنك بمنزلة شيء من الاسم في أنّه لم يُسند إلى مسند وصار كمال الاسم، كما أنّ المضاف إليه منتهى الاسم وكماله»(١) .

فسيبويه ههنا يظهر قضية مهمة جداً، وهي أقلّ ما يتألف منه الكلام بحثاً عن نواته التي هي عبارة عن وحدات غير قابلة للتحليل تُشكل البنية الأساس للنظر في وحدات التركيب للكلام العربي، وإيضاح السبب، ويلحظ من توظيف المنزلة ههنا إيماءة منه إلى أنّ فهمه للنواة بوصفها «**مستوى تجريدي في فهم الجملة، يكون من الناحية اللغوية قبلياً عن انشاء الكلام ، وتتخذ فيه الجملة نمطاً مثالياً لها وقد يظهر هذا النمط عند الاستعمال، وقد لا يظهر ويتمّ عن هذا النمط أو هذه البنية تحقّق نمطين أساسيين سيصبحان (البنية الاعمق) وستكون هذه الأنماط ممثلة للبنية العميقة للجمل المتحققة لهذه الأنماط**»(٢).

ومقياس الانتقاء يجعلنا أمام نص آخر يقول سيبويه فيه: «ومما يُختار فيه النصب لنصب الأول، ويكون الحرف الذي بين الأول والآخر، بمنزلة الواو والفاء وثُمّ، قولك: لقيتُ القوم كلّهم حتى عبدَالله لقيته، وضربتُ القومَ حتى زيداً ضربتُ أباه، وأتيتُ القومَ أجمعين حتى زيداً مررتُ به، ومررتُ بالقوم حتى زيداً مررت به، فـ(حتى) تجري مجرى الواو وثُمّ وليست بمنزلة أمّا؛ لأنّها إنّما تكون على الكلام الذي قبلها ولا تبتدئ»(٣).

---

(١) الكتاب ١/٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٢) مفهوم الجملة عند سيبويه ص٢٢٢.

(٣) الكتاب ١ / ٩٦.

إنّها لفتة ذكية من سيبويه حين يولي بعض الحالات عناية، بأنْ يكون الجوار فيها أقوى من البناء، ومن مواضعها ما أورده مع «حتى» موضّحاً سبب ذلك مشابهتها لحروف العطف (الواو والفاء)، فجمع في نصّه تنوعات نمطية لها بأنّ (عبد الله) في المثال الأول قد حُمِل على اللفظ المجاور (القوم) فالعامل عمل في مضمر يربط الاسم بالمفعول المتقدّم احالياً، ويتفق (زيد) في المثال الثاني مع (عبد الله) في الحمل على الجوار إلّا أنّ العامل عمل في مضمر على نحو غير مباشر بوقوعه على شيء من سببه ،وحُمِل المفعول على المفعول المجاور في المثال الثالث، إلّا أنّ الفعل يعمل في مضمر على نحو غير مباشر، أي: وصل إليه عبر الحرف .

أمّا المثال الأخير فقد حُمِل المفعول على موقع المجاور وليس من لفظه. ولأبي بشر شأنٌ في الإبداع ههنا، في أنّه يُحفّز متلقيه، بتكرار متتاليات لغوية تقتضي عدداً من الملامح البارزة، أتت في مقدمتها أنّ عمليات تكوينها تتجه بصفة خاصة إلى الجانب الدلالي، فالنصوص المنظمة عن طريق النحو والدلالة تفرض نفسها على الذاكرة، فتكون قابلة للاستمرار فيكفل التكرار ـ حينما يكون الطابع البنيوي نفسه[1] ـ سبيل الحفظ والاسترجاع، وهو ما يمكّننا من القول إنّ سيبويه اعتمد استراتيجية تعليمية تقوم على التكرار. وجدير بالتنويه أيضاً أنّ الأنماط التي ذكرها سيبويه تتساند إلى مبدأي التسوية والتعديل، من حيث إنّ المادة اللغوية واحدة (حتى)، إلّا أنّ ما بعدها يشتمل على الانسجام مع ما قبلها بآثارها السماعية، عن طريق أخذ العلامة الإعرابية نفسها. فانبناء الهاجس اللغوي ، إنّما يرتدّ إلى مرجعيات نفسية تكيّفها لاختيار ترميز مشابه لما قبل الأداة (حتى)،

---

(١) نعني بالطابع البنيوي ههنا نسق (حتى) مع الاسم المنصوب بعدها في المتتاليات المذكورة في النص السيبويهي.

فالتنويعات البنائية يكسوها سيبويه بعداً صوتياً لسانياً وليد الانفعال. ويبدو أنّ هذا الجانب مسكوت عنه في الكتاب، وهو جانب يُشخّص قيم التفاعل النفسي المنطوية عليه فاعلية هذه العناصر البنائية نطقاً، بأنْ تكون معيارية إيقاعية تحتفظ في عباراتها بكثير من الامتيازات الإيقاعية، وكأنّ سيبويه يوحي إلى نشاط لساني يقوم على تداعي العناصر على وفق قانون طبيعي وهو قانون الخفة، بتتابع الحركات ،يجدُ لَهُ مصداقية بالغة في نصوصه تمنحه أهلية الاختيار الإيقاعي المبرَّر نفسياً ولسانياً وسماعياً فيكون ذلك سبيله المنزلة في فهم آليات قانون الاستخفاف الذي يتمّ بالمجاورة.

٥ـ التفسير بالمنزلة للإجمال: وفيه يوسّع سيبويه دائرة معالجته التحليلية للمكوّنات اللغوية، فعلى الرغم من تطبيق المسلك التفكيكي في تحليلاته إلّا أنّه يُجمل بالحكم بما هو بعد المنزلة، فقد عرّج على (أم) المنقطعة مقدِّماً مسحاً شاملاً، في أنّها تأتي بعد الخبر، وبعد الاستفهام، وفي مظهر مُجمل هو (الانقطاع)، فيقول: «**ويدلّك على أنّ هذا الآخر منقطع عن الأول ، قول الرجل: إنّها لإبلٌ ثمّ يقول: أم شاءٌ يا قومِ. فكما جاءت أم ههنا بعد الخبر منقطعة، كذلك تجيء بعد الاستفهام...وبمنزلة أم ههنا قوله عزو جل: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[1]... ومثل ذلك: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾[2].**

كأنّ فرعون قال: أفلا تبصرون أم أنتم بصراء؛ لأنّهم لو قالوا: أنت خيرٌ منه، كان بمنزلة قولهم: نحن بصراء عنده، وكذلك: أم أنا خيرٌ، بمنزلته لو قال: أم

(١) السجدة/ ١ـ ٣.

(٢) الزخرف/ ٥١ ـ ٥٢.

أنتم بصراء»[1]. ويؤكّد هذا الإجمال بالاستشهاد بمواضعَ قرآنية لها، زيادةً في الكشف وتتميماً للبيان؛ لأنّ آياته برهان صدق ينطلق منها إلى تفسير تحليلي يُثبت فيه أنّها تبقى منقطعة على الرغم من وقوع التغاير لمجيئها، خبراً واستفهاماً. ولا يقتصر الإجمال على الأداة، بل أنّ بنيته التفسيرية تتسع لتشمل أنماط الكلام، وتبرز هذه المسألة في بعض الأنماط الخبرية التي قد تنزل منزلة أنماط الأمر والنهي بالارتكان إلى بنيتها العميقة المعدولة عن دلالتها الإخبارية إلى دلالة طلبية، وقد عالج سيبويه هذه الازدواجية في «باب الحروف التي تنزل منزلة الأمر والنهي؛ لأنّ فيها معنى الأمر والنهي». ممثلاً لذلك بـ«حسبُك ينم الناس. ومثل ذلك : اتقى الله امرؤٌ، وفعلَ خيراً يُثبْ عليه؛ لأنّ فيه معنى ليتقِ الله امرؤٌ، وليفعل خيراً، وكذلك ما أشبه هذا»[2]. فقد جعل سيبويه المعنى عاملاً جوهرياً في تفسير النحو، ويشرع في وضع ضوابط تفسّر نظام الإعراب من حيث إنّ القول بالعمل ههنا ـ أعني عمل العناصر اللغوية بعضها ببعض ـ ليس على وجه الحقيقة ، بل على وجه العلاقات المطردة الثابتة بينها في تلازمها «والقول بالعمل افتراض في التحليل الداخلي أعانهم على تفسير كثير من الظواهر في الإعراب وما يتعلق به»[3]. فالعنصر الإخباري (حسبك) في قول العرب: «حسبُك الحديثُ ينِم الناس». تتحدّد دلالته بـ(اكفف)، واختيار هذه الدلالة ، إنّما جاء لورود العنصر الفعلي الثاني «ينم» مجزوماً؛ لعدم استغناء تحقيقه عن تحقق مضمون العنصر الأول

---

(١) الكتاب ٣/ ١٧٣.

(٢) الكتاب ٣/ ١٠٠.

(٣) نظرية النحو العربي ص٢٤.

المدلول عليه بالنمط الإخباري[1].

واخال أنّ علاقة التداعي بين أنواع التفسير والمنزلة يؤكِّد ضرورة ملاءمة المفسِّر للأمر المفسَّر، ولا يخرج عمّا هو بحاجة إلى تفسير بما يضيف جديداً يوضّح الأول. ولولا ذلك لما كان هناك مسوّغ لتوظيفه.

ونشير إلى أنّ دقة استعمال سيبويه لمفهوم المنزلة ههنا أوجب خلق بنية علمية هرمية لها قاعدتها الاستقرائية ،وتقنياتها التحليلية ، ووسائلها التفسيرية؛ لأنّ التفسير نظرية تفسِّر الاستقراء والتحليل أي الوصف والقانون، فيكون بذلك أسمى أهداف المشروع العلمي.

---

(١) ينظر شرح الأشموني٣/٥٦٩ ـ٥٧٠ وعناصر النظرية النحوية ص١٧٣والبحث الدلالي في كتاب سيبويه ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

المبحث الثاني: المنزلة والتمثيل قياس في الافتراض الدلالي للكلام ومكوناته

يصف الخطاب العلمي، المحتوى المعرفي المبني بناءً محكماً، بأنّه تقنية تفسيرية منظمة تجمع بين مفاهيم تدلّ على مجال البحث، والبراهين التي يتمّ تقديمها في إطار الظواهر المدروسة، فتكون للخطاب العلمي وظيفة، هي نقل هذا المحتوى. ولمّا كان الحجاج النظري عند سيبويه يسير باتجاهين:

- الأول: في إثبات شيء على وجه الترغيب.
- الثاني: في إبطال شيء على وجه التنفير.

فانّ التمثيل كان واحداً من سبل الحجاج، له مرتكزات ذهنية أولية يأتي به إيضاحاً للقاعدة وإيصالها إلى المتلقي فهو ليس برهاناً أو دليلاً قاطعاً على قدر ما يكون حجة مقنعة.

وقد خضعت المنزلة مع التمثيل لمنهجية علمية بوصفها إفرازاً دالاً للغة ،حينما صيّرها سيبويه موضوع بحث عقلي يُنمّى على أساس تجريدي فكانت وسيلة ناجحة في متابعة البحث عن المبادىء التفسيرية التي تنفذ إلى عمق الظاهرة النحوية. وقد تحكّم سيبويه في تنظيم الهيكل التنفيذي للمنزلة مع التمثيل بذكر وضعين لهما:

- الأول: علمي من جهة تقرير الحقائق.
- والآخر: فني من جهة التصوير والتخييل.

فإذا كان التمثيل عنده احتجاج عقلي ـ وفي هدي الإدراك لحدّ (المثال)أنّه: «**اللفظ الدال على المعنى المجرّد في الذهن عن كلّ ما من شأنه أنْ يقترن به فهو**

النموذج أو الجزئي الذي يُذكر لإيضاح القاعدة»[1] ـ فحينئذ تتجلى لنا حقيقة أنّ اعتماد المقايسة الجدلية تجعل مناقشة القضايا اللغوية مناقشة علمية.

ومن أبرز نصوص الكتاب التي تُفصح عن ذلك قول سيبويه في باب التعجب: «**هذا باب ما يعمل عمل الفعل، ولم يجرِ مجرى الفعل ولم يتمكّن تمكّنه، وذلك قولك: ما أحسن عبدَالله. زعَم الخليل أنّه بمنزلة قولك: شيء أحسن عبدَ الله، ودخله معنى التعجب، وهذا تمثيل ولم يُتكلّم به**»[2].

إنّ محاولة سيبويه ترجمة لغة التجربة إلى لغة افتراضية في **باب التعجب** ـ أفادها من الخليل (شيء أحسن زيداً) ـ إنّما هي محاولة لتحديد العلاقات بين الظواهر اللغوية وصياغتها صياغة رمزية مجردة في تكامل خلّاق بين العقل والتقنية (النظرية والواقع). مما أنتج نحواً صورياً في صورة مخالفة للوصف الصوري الخالف، من حيث إنّ الأخير يمتنع عن وصف المحتوى الدلالي للمقولة النحوية، إلّا أنّ الدرس النحوي الصوري عند أبي بشر يقوم على وصف العلاقات الكامنة بين رموز اللغة ـ موضع الدراسة ـ ولكن من دون تجريد للتأويل، فجاءت نظريته متفردة في وصف القواعد اللغوية ببعدها عن الغموض من جهة، واظهار الملامح الدلالية في الدراسة من جهة أخرى وهو ما يُحيل عليه قوله: «ودخله معنى التعجب». فالتمثيل بمفهوم المنزلة عند سيبويه يجعلنا أمام نوعين من النماذج اللسانية، الثانية نماذج مُمثّلة ـ عبر معالجة علاقتها مع الشكل والمعنى ـ للنماذج الأولى التي تهتمّ بالتأليف بين أجزائها الأساسية، ويقود التأمل

---

(١) المنزع البديع ص١٦٨، وينظر الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج) ص٣٢.

(٢) الكتاب ١/ ٧٢.

فيه إلى مسألة مهمة، هي أنّه إذا كان الكلام عند سيبويه نشاطاً معرفياً، فانّ مقابلته بين مفهوم المنزلة، ومفهوم تمثيل ولم يُتكلّم به

إنّما جاء ضرورة لمراعاة القدرة على امتلاك اللغة واستعمالها في تحليل افتراض الممكن في البنية الأصلية لتأويل البنية المنجزة. وليس هناك أدقّ من تعبير «تمثيل ولم يتكلّم به». للدلالة على الطابع الافتراضي[1]. لرؤية سيبويه المنهجية للبنية العميقة، ويسحب هذه الرؤية إلى أنْ يُقدّم عبرها اجتهادات دقيقة للتفريق في المستوى اللساني بين التجريد والاستعمال الخطابي، في محاولة منه للسيطرة على الظاهرة اللغوية المخترقة للقاعدة النحوية بإيجاد الحلول المناسبة بوصف تلك الحلول نتائج تتمثّل بالتأويل والتقدير[2].

ونجد ذلك بالأرتكان إلى موضع آخر في كتابه يكشف لنا عن منهجيته العميقة في إطار القبلية اللغوية إذ يقول: «**... ونظير جعلهم لم آتِك ولا آتيك وما أشبهه بمنزلة الاسم في النيّة حتى كأنّهم قالوا: لم يكُ إتيان، إنشاد بعض العرب قول الفرزدق**[3]:

---

(١) ذكر الأستاذ الحلواني أنّ (الافتراض أسلوب فقهي معروف كان عليه أبو حنيفة وشيوخه خاصة من رجال الدين وقد أفاد منه النحاة في زمن مبكر) ينظر المفصّل في تاريخ النحو العربي ١ /١٦٩. ولعلّ في هذه المسألة ما يتكأ عليه سيبويه في إرسال معرفته العميقة بالفقه حينما يوظّفه بجدارة في مقاربة بين التخييل والتصديق.

(٢) التقدير: (هو نيّة الشيء وتصوّر وجوده، وكثيراً ما يُستعمل في المواطن التي يقع فيها الحذف، أو التي تحتاج فيها الكلمات إلى ما يكمل معانيها) ينظر معجم المصطلحات النحوية والصرفية ص١٨٢.

(٣) ديوان الفرزدق ص٢٣.

مشائيمُ ليسوا مُصلحين عشيرةً ولا ناعب إلّا ببَيْن غُرابها[1]

.... لمّا كان الأول تستعمل فيه الباء ولا تغيّر المعنى ، وكانت مما يلزم الأول نوَوها في الحرف الآخر، حتى كأنّهم قد تكلّموا بها في الأول، وكذلك صار« لم آتِك» بمنزلة لفظهم بـ«لم يكن إتيان»؛ لأنّ المعنى واحد. واعلم أنّ ما ينتصب في باب الفاء، قد ينتصب على غير معنى واحد... فالنصب ههنا في التمثيل، كأنّك قلت: «لم يكن إتيان فأنْ تُحدِّثَ»، والمعنى على غير ذلك، كما أنّ معنى عَلِمَ اللهُ لأفعلَنَّ، معنى: رَزَقَ اللهُ»[2]. إذن إيراد المنزلة لا يشترط فيها وحدة المعنى ،ما يعني أنّها تقترن بالمستوى الافتراضي الفعلي القائم على تصورات هيكلية للنمط المدروس.

حاول سيبويه عقد مواءمة بين الصيغتين (لم يفعل ويفعل)، أي:(لم آتِك ولا آتيك)، و(أتى وأُحدِّث)،وهما مختلفان في الدلالة الزمنية، إلاّ أنّ ضابطاً أساساً حلّ محلّ هذا التباعد باشتمال الفعلين (لم آتِك وأتى) في بنيتهما المجرّدة على الحدث وهو (الإتيان) فكان تقدير (أنْ) الناصبة إظهارا للحديث ليتشاكل مع ظهور الحدث السابق (الإتيان) بوصفه موضوعاً اسمياً ويتضح ذلك في النص السابق عند قوله: «**كأنّك قلت: لم يكن إتيان فأنْ تُحدِّثَ والمعنى غير ذلك**». أي أنّ المعنى المراد في التمثيل، هو (فحديث). فالقول بإضمار (أنْ) قبل الفعل، إنّما هو مسألة تركيبية في البنية العميقة إلاّ أنّها مسألة دلالية في المنطوق الظاهر ، فسيبويه يقيم تصوراته التحليلية انطلاقاً من العقل الباطن وعلاقته الجدلية

---

(١) استشهد به سيبويه على حمل جر (ناعب) على معنى تقدير الباء الزائدة في (مصلحين) في النيّة ، ينظر هامش الكتاب ٢٩/٣.

(٢) الكتاب٣/٢٩- ٣٠.

واللغوية بالوعي، بما أسهم في اضاءة محتوى النص والكشف عن مضمونه بتوضيح قوانين إنتاجه ؛ لإدراكه أنّ هناك مستوى آخر من المعنى يفارق مستوى المعنى الناتج من تفاعل العلامات اللغوية مع معاني النحو، وهو تنظير أسّس له بتركيب مفهوم المنزلة مع مفهوم (تمثيل ولم يتكلّم به). وهو نوع من تأسيس المعرفة والعلاقة مع الخارج ، ولكن انطلاقاً من الداخل، إذ يتمّ انتقاء المناسب من الألفاظ للتعبير عن المعنى المقصود في محاولة ربط المعاني الذهنية برموز حسيّة حيث تتحوّل تلك المعاني إلى أشكال لغوية وهو ما يحيل عليه قول سيبويه «لأنّ المعنى واحد»، و«المعنى على غير ذلك»، و«كما أنّ معنى»، فكانت منهجيته في التركيز على المعاني الذهنية والوجود الذهني ـ بوصفه مرحلة تسبق الكلام عبر قناة اللغة ـ طريقة واعية تعكس فيها ملكة الخيال أثراً في ترتيب المعاني وتركيبها وإحداث التناسب بينها. وبذلك لا تكون المعاني في الذهن مجرّد انعكاس للمدركات، بل هي عامل جوهري في التفسير.

ويحتكم سيبويه إلى موضع آخر في كتابه يكشف لنا عبره، أنّ سبيل التمثيل تحوّل إلى الجانب الدلالي من أجل البحث عن تركيب أصل للألفاظ يُكوّن بناءها العميق ، إذ يقول: «**وكأنّ قوله : عمرَك اللهَ، وقِعدك اللهَ بمنزلة نشدك اللهَ، وانْ لم يُتكلّم بنشدَك اللهَ، ولكنْ زعم الخليل ـ رحمه الله ـ أنّ هذا تمثيل يمثّل به**»[1].

فالمصادر (عمَرك الله)، و(قِعدك الله) دخل على تركيبهما معنى اليمين المفهوم من التمثيل بـ (نشدك الله)، بمعنى (نشدتُك الله)، فاليمين معنى كساهما به الاستعمال، وما محاولة التشبيه بين (عمرك اللهَ وقِعدك الله) ، إلّا تبيان أنّ الأصل في التركيب غير ذلك.

---

(١) الكتاب ١ /٣٢٣.

فالقواعد النحوية العلمية في مفهوم (تمثيل ولم يتكلّم به)، بغض النظر عن مهمّتها التفسيرية أو الوصفية، إنّما هي محاولة لفهم الأنجاز الكلامي عبر الكشف عن قوانين ظواهره ، وصياغتها صياغة رمزية تكفل ثبات العلاقة بين الظواهر. وقد طبّق سيبويه رؤيته التحليلية بربط (التمثيل) بـ(المنزلة)، فهي تماثله بوصفها أداة للكشف عن نسق منطقي تفسيري لجملة من الأنماط المنجزة نطقاً، لا تكون الغاية منها تقديم تفسير للظواهر فحسب، بل؛ لأنّها تعبّر بكيفية مُرضية عن مجموعة من القواعد ،فتكون وظيفتها اقتصاد المجهود الذهني واضفاء النظام على الأنماط المنجزة .

هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ محاولة تفسير الظواهر، بالكشف عن عللها يسمح بتوسيع معرفتنا عن طريق توقّع أنماط، أو التنبؤ بها ، إذ يورد سيبويه نماذج يحللها في ضوء منهج موازن بين الهيأة الأصل والهيأة المستحدثة المتولّدة، مرتكناً إلى السيرورة المعرفية عند المتكلّم في «**باب الترخيم في الاسماء التي كلّ اسم منها من شيئين كانا بائنين، فضُمّ أحدهما إلى صاحبه، فجُعلا اسماً واحداً بمنزلة عنتريس وحَلكوك، وذلك مثل حضرموت... ومثل عمرويه، فزعم الخليل ـ رحمه الله ـ أنّه تُحذف الكلمة التي ضُمّتْ إلى الصدر رأساً، وقال: أراهُ بمنزلة الهاء**»[1]. ويُفهم من ذلك أنّ سيبويه ابتكر ضرباً من التجويز العقلي، تأتّت موضعيته في الكتاب من رصف مفهوم المنزلة إلى جانب مفهوم التمثيل، مستنداً في صواب الحكم المعياري بهما إلى اتحاد مقدمتين معياريتين:

ـ أولاهما: الانتقال المنظم المبني على الترابط وإمكانية البرهنة بين خطوات البحث، أي صحة العلاقات بين خطوات البحث، من جهة خطوات البحث

---

(١) الكتاب٢/٢٦٧.

العلمي والتفكير السليم.

ـ وثانيتهما: صحة المعلومة أي: صحة القانون أو القاعدة التي تضبط كلّ خطوة على حدة «**فالتفكير العلمي ينبغي أن يتصف بصواب المنهج وصواب المعلومة معاً**»[1].

وترتفع نسبة طاقة التمثيل؛ لاستيحاء لون آخر من الاجراءات الأسلوبية، يُقدّم فيه سيبويه وصفاً للشروط المكوِّنة للصورة، عبر الكيفية التي يستطيع من خلالها تخيّل شخص ما من دون وجوده، وهو تمثّل يقوم بإشباع الانتظارات المتولدة عن التعرف، وهي قراءة ذهنية سيبويهية ليست بسيطة، فقد نظر إلى الصورة المتخيّلة باعتبارها لحظة حية ليس لها أيّ موقع في مكان آخر إلّا في تأمّلات الذهن ، وتلك مسألة اخالها عميقة في تفكير سيبويه، في محاولة تمثيل ما لا يمكن أنْ نراه كما يبدو في الواقع، بما يكسب هذه الصورة طابعاً خاصاً يكشف عن مظاهر كان من الممكن أنْ لا يلتقطها الإدراك المباشر، وهو ما يجعلنا نؤكِّد أنّ سيبويه ميّز بين الإدراك والتمثيل ،من حيث إنّ الإدراك يفترض بشكل قبلي وجود الشيء، أمّا التمثيل فهو مرتبط استناداً إلى نمط تكوّنه إلى عنصر غائب غير معطى، لا يمكن أنْ يظهر إلّا بوجود النشاط التمثيلي، يدلّك على ذلك قوله: «**انتهِ يا فلانُ أمراً قاصداً، إلّا أنّ هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل، فإنّما ذكرتُ لك ذا؛ لأمثّل لك الأول به؛ لأنّه قد كثُر في كلامهم ، حتى صار بمنزلة المثل فحُذف كحذفهم ما رأيتُ كاليوم رجلاً**»[2].

ويُنتج من هذه المحاولات التأليفية للعناصر المعرفية حضور شيء لم يكن

---

(١) التفكير العلمي في النحو ص١٨.

(٢) الكتاب١ /٢٨٤.

موجوداً في تلك اللحظة، بتقديم ضمانات لعناصر غير موجودة، يعمل التمثيل على استحضارها.

إنّ براعة ما يقدّمه سيبويه ههنا باستناده إلى هذه المعارف، أنّه يعتمد تقديم عناصر ينفتح بها الوعي على الموضوع، على الرغم من أنّها ليست عناصر داخل الوعي، وهو ما يقود إلى تشكّل دلالي للنصوص يُشرك فيه سيبويه متلقيه بتحقيق البنية التي تقدّم له من أجل الكشف عن المعنى، وإرساء دعائم إبلاغ ما ،وهو أفق واسع تموضع ضمن منظور معرفي سيبويهي، انطلاقاً من أنّه في أفكاره يستحضر أفكار الآخرين، فيعمد إلى صوغ أفكار في عالمه الذهني تنتمي إلى عالم ذهني آخر، وتبدو معالجة سيبويه تلك في نصّه: **«ومما يُضمر؛ لأنّه يفسِّره ما بعده، ولا يكون في موضعه مظهر، قول العرب: انّه كرامٌ قومك، وانّه ذاهبة أمتك، فالهاء إضمار الحديث الذي ذكرت بعد الهاء، كأنّه في التقدير**[1]**. وانْ كان لا يُتكلّم يُتكلّم به قال: إنّ الأمر ذاهبة أمتك، وفاعلة فلانة، فصار هذا الكلام كلّه خبراً للأمر، فكذلك ما بعد هذا في موضع خبره، وأمّا قولهم: نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله، فهو بمنزلة ذهب أخوه عبد الله. عمل نِعْمَ في الرجل، ولم يعمل في عبد الله، وإذا قال: عبدُ الله نِعْمَ الرجل. فقيل له: مَن هو؟ فقال: عبدُ الله. وإذا قال: عبدُ الله، فكأنّه قيل له: ما شأنه؟. فقال: نِعْمَ الرجلُ»**[2].

فالسؤال ههنا ليس له قيمة وصفية بقدر ما له قيمة حجاجية، ففعل السؤال يعكس هاجس اللغة التي بها الحوار ، وبها السؤال، وبها الجواب فسيبويه يريد أنْ

---

(١) تعطي دلالة التقدير ههنا دلالة التمثيل نفسها، يدلّك على ذلك قول سيبويه (وانْ كان لا يتكلّم به).

(٢) الكتاب٢/١٧٦ـ١٧٧ وينظر٤/٣٠٨.

يضمن التفاعل واستمرارية التخاطب بينه وبين مخاطبه المتمثّل افتراضاً، فأزاح التمثيل ههنا إلى المستوى الحواري، حينما استنطق سيبويه مخاطبه المفترض من أجل الاهتداء والاسترشاد العلمي ـ العملي، على وفق سبل استدلالية متنوعة، تجرُّ إلى الاقتناع برأي المحاور؛ ليكون ذلك أساساً يرتكز عليه سيبويه، وقد كمَنَ عنده في بنية اللغة، ولم يكن صفة عرضية تميّزت بها طروحاته، فاكتست طابعين:

ـ الأول: الطابع الاجتماعي، وهي تقنية سيبويهية بامتياز، إذ عمد إلى ابراز خطابية اللغة باستحضار مساهمات متكلّميها لتحقيق أغراض معينة.

ـ والآخر: الطابع الجدلي القائم على الإقناع. ولمّا كان الإقناع لبّ العملية الحجاجية، بوصفه أثراً مستقبلياً يرجى تحققه بعد التلفظ بالخطاب، فقد كان من بين الوسائل المستعملة في عملية الإقناع المتميّز بتوظيف التفكير في ثنايا عملية التواصل. فثمّة خيط رهيف شفاف يفصل بين الحالتين، الحالة الذهنية، وهي حالة نفسية تجعل وجود الصور في الأذهان حالة تجريدية، لم تتشكّل بهيأة الدال والعبارة. والحالة الثانية، حالة الفهم، وهي حالة عقلية ولحظة معرفية تصير نتيجة ارتباط اللفظ بصورة المعنى. وتمثّل رؤيته هذه وقفة مهمة في تأمل الظاهرة اللغوية، وعمل النفس والعقل معاً فيها؛ لتشكيل العملية الإدراكية والمعرفية.

يُستقرئ مما تقدّم، أنّ الخيال لم يكن نشاطاً عقلياً فحسب، بل نجده عند سيبويه نشاطاً فعّالاً يبتكر صوراً جديدة ويقيم علاقات بين أشياء لا يربطها في الواقع أدنى مشابهة.

وبناءً على ما تقدّم فقد اهتدى سيبويه إلى جعل المنزلة تتجه نحو مخيلة الإبداع بتجاوز اللغة وحدود الواقع، فيُستهدى إلى المعنى عن طريق تحريك الذهن مما يتطلب معالجة دينامية وابداعية.

المبحث الثالث: الأساس التداولي في استعمال المنزلة.

يكتمل الفضاء الاستدلالي عند سيبويه بقيام لسانيات المحاور إلى جانب لسانيات الظواهر، من حيث إنّ الخصائص الصورية للنماذج تجعل بعضها ذا واقعية بكفايتها التجريبية. وننوّه بهذا الخصوص إلى فكرة القيمة القانونية ،التي تقدّم قولاً ما، بما له من سلطة معينة ترتبط بشكل وثيق بالفرضية. ومن هنا فانّ مدار بحثنا سيكون ضمن المجال الخطابي الذي يتموضع فيه المتكلّم والمخاطب باعتماد المنزلة، وسيلة لتقديم الحجج، بما يؤدّي إلى نتيجة معينة، فالحجاج بالمنزلة يتمثّل في سلسلة استنتاجية (متواليات الأقوال)، فتكون الحجة بالمنزلة في ضوء هذا الإطار عبارة عن عنصر دلالي يقدّمه سيبويه لصالح عنصر دلالي آخر بمختلف هيئاته (لفظ، أو جملة، أو مشهد، أو سلوك غير لفظي).

ولّما كان فعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطاً معيّناً من النتائج بوصفه الاتجاه الوحيد الذي يمكن أنْ يسير فيه الحوار، فانّ الأداءات الحوارية ـ المباشرة وغير المباشرة ـ جاءت في كتاب سيبويه متنوعة، تبعاً لتغاير العلاقات التخاطبية بالإفادة من المقام، فترى السبيل الاحتجاجي يترجّح فيه العمل على النظر.

إنّنا نقف على هذه الحقائق الحوارية الاستدلالية في الكتاب عبر (المنزلة والسؤال)؛ إذ يُعدّ استعمال أسلوب الاستفهام من الآليات اللغوية التوجيهية؛ لأنّها توجّه المتلقي نحو محتواها ؛ للإجابة عنها. وقد آثر سيبويه أحياناً أنْ يعرض للمسائل في هيأة جوابات يسألها للخليل تقوية لموقفه الحجاجي بسَوْق كلام من يحظى باحترام علمي يقول: **وسألته عن قوله: ما تدوم لي أدوم لك، فقال: ليس في هذا جزاء ، من قبل أنّ الفعل صلة لما، فصار بمنزلة الذي، وهو بصلته** كالمصدر، **ويقع على الحين ، كأنّه قال: أدوم لك دوامك لي. فما ودمتُ بمنزلة**

الدوام ، ويدلّك على أنّ الجزاء لا يكون ههنا أنّك لا تستطيع أنْ تستفهم بها تدوم على هذا الحدّ»[1].

يستعين سيبويه بسؤال الخليل لا لمجرد الاسترشاد، فتعزيز الجواب بسرد للأدلة تكاتُلُ ذلك يكون ردّاً لاعتراض أو إشكال قد يُثيره جوابٌ مثل (ليس في هذا جزاء)؛ لأنّه بمنزلة (الدوام).

فالجزاء لا يقع في الاسماء ويربطه بالاستفهام قائلاً «**أنّك لا تستطيع أنْ تستفهم**»؛ لأنّ الأصل فيه أنْ يدخل على الأفعال.

لقد بنى سيبويه نصه في صورة استدلالية مجتمعة إلى أوثق اجتماع، فقد طوى مقدمات للوصول إلى نتيجة أنّه لا يجوز الجزاء ههنا، مسخّراً الاستفهام كآلية لبلوغ القصد من الخطاب، وتنبعث المنزلة من نصه لتكون بمثابة معادل موضوعي في ذهن المحاور، لما يدور من تساؤلات في ذهن المتلقي.

وتترآى مسألة تتعلق بالطبيعة المقصدية للسؤال، أنّ سيبويه قد يوظّف الاستفهام لا لينتظر إجابة من المتلقي، وإنّما لحصول التوجيه في مخاطبه ،قصد النظر في المسائل التي عرضها عليه، وهي متصلة بخدمة المقصد الذي أراده، يقول:

«وتقول: أين تُرى عبدَالله قائماً؟ وهل تُرى زيداً ذاهباً؟ لأنّ هل وأين كأنّك لم تذكرهما ؛ لأنّ ما بعدهما ابتداء، كأنّك قلت: أ تُرى زيداً ذاهباً؟ وأتظنُّ عمراً منطلقاً؟.

فانْ قلت: أين وأنت تريد أنْ تجعلها بمنزلة فيها إذا استغنى بها الابتداء[2].

---

(١) الكتاب٣/١٠٢.

(٢) يعني وقعت خبرا للمبتدأ .ينظر هامش الكتاب ١ /١٢١.

قلت: أين تُرى زيدٌ، وأين تُرى زيداً»[1].

ويعدّ هذا الإجراء بتطويع مفهوم المنزلة مع الاستفهام في بناء الخطاب وإنتاج المعرفة ضرباً من الإبداع؛ لإدراكه أنّه إزاء لغة طبيعية وليست لغة صورية.

ويشكّل قانون الإضافة أحياناً قيمة جوهرية، فنضيف عبره اضطلاع المحاوِر بالقيام بوظيفتين في الوقت نفسه، فيكون مرة عارضاً، ومرة معترضاً مُنشأً معرفةً تناظرية، وطريق هذه المرتبة حمولة الاستفهام والمنزلة. فيتألق مسلك سيبويه باستعمالها جدلاً في نصه حيث يقول :**«وإنْ زعم زاعم أنّه يقول: مررتُ برجل مخالط بدنه داءٌ، ففرق بينه وبين المنوّن. قيل له: ألستَ تعلم أنّ الصفة إذا كانت للأول فالتنوين وغير التنوين سواءٌ، إذا أردتَ بإسقاط التنوين معنى التنوين، نحو قولك: مررتُ برجل ملازم أباك، ومررتُ برجل ملازم أبيك، أو ملازمك. فإنّه لا يجد بُدّاً من أنْ يقول: نَعَمْ. وإلاّ خالف جميع العرب والنحويين ، فإذا قال ذلك قلت: أفلست تجعل هذا العمل إذا كان منوّناً ، وكان لشيء من سبب الأول، أو التبس به بمنزلته إذا كان للأول ؟ فإنّه قائل: نَعَم. وكأنّك قلت: مررتُ برجل ملازم ، فإذا قال ذلك ، قلت له: ما بال التنوين وغير التنوين استويا حيث كانا للأول ، واختلفا حيث كانا للآخر، وقد زعمتَ أنّه يجري عليه إذا كان للآخر كمجراه إذا كان للأول...»**[2].

قد يقتضي الجانب التعليمي عند سيبويه الرّد على بعض القضايا باستعمال بعض المقولات من قبيل «يقول ـ قيل ـ قائل...الخ» تُبنى على اعتراضات

---

(١) أي: على الالغاء والإعمال، كقولك: (قائمٌ ظننتُ زيدٌ)، و(قائماً ظننتُ زيداً). ينظر هامش الكتاب ١/١٢١.

(٢) الكتاب ٢/ ١٩ ـ ٢٠.

مفترضة من قبل معترض هو نفسه العارض، فيقدّم أدلته وحججه على تلك الاعتراضات مستدرجاً متلقيه إلى مجاراته وإلّا أُتهم بمخالفته جميع العرب والنحويين حتى ينساق لما أراده قائلاً: (نَعَم). وهذه الطبيعة البنيوية للجواب الراجعة إلى طبيعة المخاطب ، احتاجت من المجيب أنْ يقدّم عدداً من المقدمات تكفي لحصول الفهم والإدراك، وهو مبدأ تتحكم به مقتضيات التداول فالمقاصد لها أطرها في ذهن سيبويه، يتمّ توصيلها إلى المتلقي عن طريق مراعاة اللغة ، وهو ما يُظهر أهمية المخاطب لدى سيبويه فيتجاوز بالإسناد الوظيفة النحوية إلى المعيار التداولي ، بتوظيفه لضمير المخاطب (أنت) مع الفعل (تعلم) ليجسّد به تواصلاً مع مخاطبه، وهو ما يشي بالقول إنّه بنى خطابه في الكتاب على ملمح مقاصدي افترض فيه وجود متلق لرسالته، وهو ما يظهر في استعماله ضمير المخاطب (أنت) المضمر في الفعل (تعلم). وكثُر ما استعمل سيبويه الأمر من هذا الفعل؛ إذ يرى المتمعن أنّ خصوصية سيبويهية تأتت له من بين الصيغ الفعلية؛ لأنّ هذا الفعل يصنّف ضمن الأفعال التوجيهية ، فيخرجه سيبويه عن دلالة الأمر إلى قصد إعمال الذهن عند المتلقي إليه ، وتقرير الحكم له من دون ممارسات وجوب الأمر عليه، فالإخبار يكون بأسلوب العرض لا الوجوب ؛ ليُحدِث التأثير في المتلقي وبالتالي انجاز فعل معين في مرحلة تالية إذ يقول:

«واعلم أنّ من العرب مَن يرفع سلاماً ،إذا أراد معنى المبارأة، كما رفعوا (حنان). سمعنا بعض العرب يقول لرجل: لا تكونَنَّ مني في شيء إلاّ سلامٌ بسلام، أي: أمري وأمرك المبارأة والمتاركة وتركوا لفظ ما يرفع، كما تركوا فيه لفظ ما ينصب؛ لأنّ فيه ذلك المعنى ؛ ولأنّه بمنزلة لفظك بالفعل»[1].

---

(١) الكتاب ١/٣٢٦، وينظر ١/٣٨١و١/٤٥٧و٢/١٢٤، و٢/١٣٩و٢/٢٥٢.

ترتسم مظاهر التضامن في النص أعلاه بين فعل الأمر (اعلم) ومفهوم (المنزلة)، بوصفهما مكوّنين حجاجيين تُعرض عبرهما الفكرة ويشرحها بتمعّن، موّجهاً إيّاها نحو المتلقي، فيتحقق التواصل والانتفاع بين الطرفين.

ويعي أبو بشر ما يمكن أنْ يوجّه إلى قوانينه المبنية على الاستقراء من انتقاد فينصُّ على وثاقها بقول: «سمعنا بعض العرب».

فالنص على معايير السلامة حماية للقاعدة النحوية، ومثله قوله: **«واعلم أنّ ناساً من العرب يجعلون هلُمّ بمنزلة الأمثلة التي أُخذت من الفعل يقولون: هلُمَّ وهلُمّي وهلُمّا وهلُمّوا»**[1].

لقد اهتدى سيبويه إلى إجراء موازنات تقابلية بين المنزلة والأمر، فكانت المنزلة رابطاً حجاجياً يسهم في ترابط منطوقات فعل الحجاج (الاستفهام والأمر) في الدفاع عن الدعوى المعروضة ؛ليتبع هذا المحور التقابلي مخاطبات، يعرض فيها آراءه على وفق:

١ـ مخاطبة برهانية: يدور الكلام فيها بين معلم ومتعلم.

٢ـ مخاطبة جدلية: بعرض المتحاورَينِ فيها للآراء الذائعة والمشهورة، ويحاولان الكشف عن التناقضات التي تتضمنها لحلّها معاً.

٣ـ مخاطبة مغالطية: يوهم فيها سيبويه محاوره بأنّه انطلق من مقدمات يقينية، إلّا أنّه يستبطن فيها أموراً مغايرة لما يظهره، فيعود إلى تفنيدها.

---

(١) الكتاب ١ / ٢٥٢.

نتائج البحث

عوّل سيبويه كثيراً على مفهوم (المنزلة) على نحو يُلفت الانتباه ، مما جعلنا نتتبع توظيفه لها عبر نصوص الكتاب لنخرج بنتائج أبرزها:

١ـ لقد كانت المنزلة نفساً حجاجياً يتمّ بها الاستدلال على المسائل اللغوية.

٢ـ تجلى الإبداع الحقيقي السيبويهي في رؤيته إلى المنزلة من منظور، أنّها تقنية مركبة تعتمد الرمزية في ترجمة ما في التفكير الباطن وملمحه المميّز للرمز أنّ معناه لا يتغيّر من جانب ، وتعتمد التداعي من جانب آخر في أنّ التثبيت للمعنى لا يستبعد إمكانية تعدّده.

٣ـ المنزلة بناء لغوي شيّده خيال سيبويه، فتجاوزت عنده وظيفتها الأولية (المشابهة) إلى أنْ تكون إطاراً تقع فيه الأحداث، فهو بها يقيم قضية بعد قضية ، ويخوض في مسائل اللغة عرضاً وتحليلاً واستنتاجاً في مقاربات بين العقل والنقل تنمّ عن بعد نظر ودقة ملاحظة.

٤ـ استعماله لمفهوم المنزلة بهدف الإقناع بناه على اقتراحات سابقة بشأن المعرفة اللغوية والإدراك المتوقع وعناصر السياق (المتكلّم والمخاطب والمقام). فالتوصل إلى إدراك المقصد الحقيقي حينما يخرج القول عن معناه الحقيقي، لا بدّ فيه من مراعاة هذه الأمور.

٥ـ لقد كانت المنزلة مفهوماً:

أ ـ للاكتشاف: استعان بها سيبويه في تطبيق الاجراءات المحدّدة على النصوص اللغوية بصفة آلية مكّنته من بناء نحو اللغة.

ب ـ للتقرير: بوصفها طريقة عملية استعملها سيبويه في بيان مقبولية النحو

المقترح للمادة المعروضة.

ج ـ للتقييم: فأمام المادة اللغوية ووصفها أبَانَ لنا سيبويه عن معرفة النحو الأليق عبر رصد ظواهره.

والحمد لله ربّ العالمين .

ثبت المظان

ـ القرآن الكريم.

ـ الأسس الأبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ـ د.أدريس مقبول ـ عالم الكتب الحديث ـ عمان ـ ط١ ـ ٢٠٠٦م.

ـ الإيضاح في علل النحو ـ الزجاجي ت ـ (ـ٣٣٧هـ) ـ تحقيق د. مازن المبارك ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م.

ـ البحث الدلالي في كتاب سيبويه ـ د.دلخوش جار الله حسين ـ أطروحة دكتوراه ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد.

ـ التفكير العلمي في النحو (الاستقراء ـ التحليل ـ التفسير) ـ د. حسين خميس الملخ ـ دار الشروق والتوزيع ـ عمان ـ الأردن ـ٢٠٠٢م.

ـ الخصائص ـ ابن جني تـ (ـ٣٩٢هـ) ـ تحقيق: محمد علي النجار ـ دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ـ ط٤ ـ١٩٩٠م.

ـ الخطاب والحجاج ـ أبو بكر العزاوي ـ الدار البيضاء ـ ط١ ـ ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م.

ـ ديوان الفرزدق ـ ضبط وشرح إيليا الحاوي ـ منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ ـ ١٩٨٣م.

ـ سلطة الكلام وقوة الكلمات (بحث) ـ أبو بكر العزاوي ـ مجلة المناهل ـ العدد(٦٢) ـ منشورات وزارة الثقافة المغربية.

ـ الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج) ـ عالم الكتب الحديث ـ اربد ـ عمان ـ ٢٠١٠م.

ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ـ أبو الحسن الأشموني ـ تحقيق: محمد

محيي الدين عبد الحميد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

ـ علم المعاني ـ د. عبد العزيز عتيق ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٧٤م.

ـ عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي ـ سعيد حسن بحيري ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٨٩م.

ـ الكتاب ـ سيبويه تـ(ـ١٨٠هـ) ـ تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط٣ـ١٤٠٣هـ.

ـ كليات المعرفة اللغوية عند الفلاسفة المسلمين في ضوء اللسانيات ـ أطروحة دكتوراه ـ كريم عبيد عليوي ـ الجامعة المستنصرية ـ كلية التربية ـ ٢٠١٢م.

ـ اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي (الأسس المعرفية والديداكتيكية ـ علي آيت أوشان ـ ط١ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ ١٩٩٨م.

ـ مدخل إلى علم اللغة ـ لوريتو تود ـ ترجمة: د.مصطفى التوني ـ منشورات الهيأة المصرية العامة للكتاب ـ١٩٩٤م.

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ـ ابن هشام تـ(ـ٧٦١هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ـ ١٩٩٨م.

ـ المفصّل في تاريخ النحو العربي ـ د. محمد خير الحلواني ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

ـ مفهوم الجملة عند سيبويه ـ د. حسن عبد الغني الأسدي ـ دار الكتب

العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

ـ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ـ أبو محمد الأنصاري السجلماسي ـ تحقيق: عادل الغازي ـ مكتبة المعارف ـ الرباط ـ ط١ ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ حازم القرطاجني ـ تحقيق: محمد حبيب الخوجة ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٨٦م.

ـ نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ـ د. نهاد الموسى ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

المكوّن الحواري في كتاب سيبويه
(قراءة استكشافية للتفكير التداولي)

مهاد الحوار:

يحوي الواقع التعليمي أبعاداً مفاهيمية ومصطلحاتية تستوجب العودة إلى مفهوم البعد التواصلي الذي يؤدّيه ذلك الفعل التعليمي داخل المنظومة المفاهيمية، وقد احتلت المقصدية جانبا مهماً في نظرية سيبويه، بوصفها أمراً مخططاً له في ذهنه، إذ تمثّلت في آليتي المحاورة الخاصتين بالخطاب الحجاجي التداولي، وهما التشخيص والمقام، فتفرّعت من ثمّة أوجه تمظهر التوصيل (فعل الاتصال) عند سيبويه، لمساندة الأفكار التي أراد أن يوصلها عبر رسالته.

إنّ الإلحاح على المقصدية يجعلنا نؤكّد أنّ اللغة عند سيبويه لغة تواصلية يرتبط فيها طرفا التواصل (المتكلم والمخاطب) بعلاقة تحيل على تفاعل تواصلي بوصفه ماهية الحوار ومكوّنه الأساس فهو «تبادل الأخذ والعطاء بين ممثلي الخطاب في سياق حواري يحكمه التعاون، وينبني على الملائمة»[(١)].

ومن هنا فقد أخضع سيبويه صنوف القول والتعبير الحواري لما تقتضيه الطبيعة العلمية ، فلم يقتصر الحوار في الكتاب على مفهوم واحد، بل احتوى في باطنه على مفاهيم عدة اقتضاها الإتجاه الوظيفي عند سيبويه في تحليله الظواهر اللغوية في أبعادها التركيبية والدلالية والتداولية، فكان كثيراً ما يلجأ «لتقدير

---

(١) الحوار وخصائص التفاعل التواصلي ص١٥ ، وينظر اللغة والخطاب ص ١٣٢.

حوارية تداولية من أجل تسويغ أو تفسير وضع نحوي معّين»[1].

وهو ضرب من الرياضة الفكرية في استحضار الموقف لتعليل الظاهرة النحوية حوارياً، ولما كانت الغاية من الحوار إقامة الحجة ودفع الشبهة والفاسد من القول والرأي بطرق الاستدلال الصحيح[2]، فقد كان سيبويه مخططاً ومنظماً حينما أمسك زمام أمور الحوار بين الأفراد في نصوص كتابه بنباهة ، وقدرة على التنبه على ما لجهاز التحاور من سيطرة على نواميس الحدث التخاطبي، فكان مبدأ التفاهم بمنزلة المعيار الضابط؛ إذ يستحيل استمرار الحوار في حالة الاختلاف في المفهوم الذهني لمفردات مهمة وجوهرية ، ومن هنا فإنّنا لا نعدم إشارات عنده إلى خلق المتلقي (النموذج المثالي)، وبيان أثره في التوصل إلى المعنى باستعداده الفطري وتكوينه الثقافي اللذين يؤهلانه لمعرفة دقائق التشكيل واستنباطه دلالات الأساليب وهوما يشي بالقول إنّه قد تعامل مع متلق واع يفقه الأساليب ، ولاسيما أنّ أبحاثه امتازت بعناية فائقة في بعدها الاستعمالي، وهو أمر يقود إلى التقائها مع الطابع التداولي لها، فمما أورده سيبويه في قوله: «هذا عبد الله معروفاً» و«هو زيد معروفاً» مفسراً بنيتهما الدلالية بـ«أنّك ذكرت للمخاطب إنسانا كان يجهله ، أو ظننت أنّه يجهله، فكأنّك قلت: أثبته أو ألزمه معروفاً، فصار المعروف حالاً... والمعنى أنّك أردت أن توضّح أنّ المذكور (زيد) حين قلت: معروفاً ولا يجوز أن تذكر في هذا الموضع إلّا ما أشبه المعروف؛ لأنّه يعرّف ويؤكّد، فلو ذكر هنا (الانطلاق) كان غير جائز؛ لأنّ الانطلاق لا يوضّح أنّه زيد

---

(١) الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ص٢٧٠، وينظر الصورة والصيرورة بصائر في أحوال الظاهرة اللغوية، ونظرية النحو العربي ص١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) أصول الحوار ص٧.

ولا يؤكّده ومعنى قوله معروفاً (لاشك) وليس ذا في منطلق»[١].

إنّ التصور الدلالي التوكيدي في سياق الخطاب الإخباري كان سبيله الحوار في ممارسة خطابية ليثبت في ذهن المخاطب ما لم يثبت بذكر (معروفاً) في إفادة دلالة التوكيد «فالكلام إذا تأكّد تقرّر وصار حقيقة لا مراء فيها وبات لاشكّ ولا نزاع يدور حوله»[٢].

ويدرج سيبويه نصاً آخر تتحقق فيه دلالة تنبيهية عبر انضواء البنية التركيبية على أداة التنبيه (هـا) إذ «إنّ العرب تقول: هذا أنت كذا وكذا لم يرد بقوله أنْ يعرّفه نفسه، كأنّه يريد أن يُعلمه أنّه ليس غيره، هذا محال، ولكنّه أراد أنْ يُنبّهه، كأنّه قال: الحاضر عندنا أنت والحاضر القائل كذا وكذا أنت»[٣].

انّ هذا الفعل الخطابي التنبيهي لا يُنجز إلّا في مواقف اجتماعية وتواصلية يقتضيها التواصل بين المتكلم والمخاطب بما يسهم في كيفية توجيه الخطاب وتنسيقه، فسيبويه ههنا يستجيز أنْ يُقال (هذا أنت) وفي موضع آخر لا يستجيز ذلك قائلاً: «ولا يكون على أن تضمر (هذا)؛ لأنّك لا تشير للمخاطب الى نفسه ولا تحتاج إلى ذلك، وإنّما تشير له إلى غيره ألا ترى أنّك لو أشرت له إلى شخصه، فقلت: (هذا أنت) لم يستقم»[٤].

ويوضّح السيرافي المسألة في إطارها الحواري بين المتكلم والمخاطب، كأن

---

(١) الكتاب٢/٧٨- ٧٩ وينظر٢/٨٧- ٨٨.

(٢) أساليب التوكيد في القرآن الكريم ص١٤ وينظر التعبير القرآني ص١١٥، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه ص٢٢٧.

(٣) الكتاب٢/٣٥٥.

(٤) الكتاب١/١٤١.

يوجّه المتكلم سؤالاً أو استفساراً بشأن المخاطب الذي يشاركه في هذه العملية التواصلية فـ«إنّما يقول: (هـا أنا ذا) إذا طلب رجل لم يُدرَ أحاضر هو أم غائب، فقال: المطلوب هـا أنا ذا، أيْ: الحاضر عندك أنا وإنما يقع جواباً. ويقول القائل: أين من يقوم بالأمر؟ فيقول له الآخر: ها أنا ذا أو هـا أنت ذا .أي: أنا في الموضع الذي التمست فيه، أو أنت في ذلك الموضع ولو ابتدأ الإنسان على غير هذا الذي ذكرناه، فقال: هذا أنت، وهذا أنا، يُريد أن يُعرّفه نفسه كان محالاً؛ لأنّه إذا أشار له إلى نفسه، فالإخبار عنه بـ (أنت) لا فائدة فيه ؛ لأنّك إنّما تعلمه أنّه ليس غيره، ولو قلت: ما زيد غير زيد كان لغواً لا فائدة فيه»[1].

إنّ مجرد قول سيبويه مخاطب يُخضع النص لعملية حوارية وقد يُوحي استعمال الضمائر (أنا ـ أنت) بذلك فهي هيآت لغوية تضطلع بوظيفة التعبير عن الشخوص المتحاورة.

إنّ الحوار هو اللغة الأولى في التخاطب ووسيلة الإقناع وقد أقامه سيبويه على شواهد ومحفزات نفسية وعقلية ووجدانية فهي وسائل منطقية وقياسات جدلية تتضمن مقدمات ومسلمات يُقصد بها تصحيح كلام، وإظهار حجة ورد فاسد من القول والرأي.

انّ رؤيتنا للحوار في الكتاب لا تقوم على مفهوم أنّه محادثة بين شخصين يتحدث أحدهما ويجيبه الآخر، أو يردّ عليه على أساس المسألة والإجابة للإبانة عمّا لكلّ منهما من أفكار أو دلائل وصولاً إلى اتفاق مرغوب فيه فحسب، بل ثمّة معنى آخر ههنا للحوار وهو السعي إلى إظهار الصواب بالمراجعة. والذي قادنا إلى القول بهذا المعنى أنّ الحوار في اللغة هو الرجوع، وفقد ورد في العين «الحَور:

---

(١) هامش الكتاب ٢/٣٥٣ ـ ٣٥٤.

الرجوع إلى الشيء وعنه... وكلّ شيء تغيّر من حال إلى حال فقد صار يحور حوراً... والحَوْر ما تحت الكَوْر من العمامة... وخُفٌّ محوّر إذا بُطّن بحَوَر»[1].

وذكر الراغب الأصفهاني[2] أنّ الحور هو التردد بالذات أو بالفكر ،يقصد التردد بين جهتين ومنه قولهم: حار الماء في الغدير إذا تردد فيه. أي : تماوج ذات اليمين وذات الشمال، ومنه اشتقوا قولهم: حار في الأمر إذا تردد ، وهكذا الفكر بالنسبة لأيّ موضوع، فانّه يتردد بين شتّى المعاني والتصورات.

وكأنّ سيبويه يحفر الذاكرة بالمراجعة لتستقرّ بها الظاهرة اللغوية، فيقدّم الأجوبة بكفاءة عبر إنتاج أبنية حوارية تفصيل طائفتها في هذه المباحث:

---

(١)كتاب العين١ / ٣٧٠.

(٢) مفردات اللغة مادة (حور).

المبحث الأول
حوارية الحضور العيني (البصري)

إنّ لطبيعة الألفاظ والأقوال والعبارات طابعاً حجاجياً وقوة حجاجية تدفع المتلقي إلى تبنّي رأي أو الاستجابة إلى طلب معيّن أو اتخاذ موقف ما من القضايا أو إلى تغيير آرائه ومواقفه بشكل عام[1]. وهذا لا يتمّ إلّا عبر إنشاء الكلام من لدن المتكلّم فيفهمه المخاطب، وهاتان العمليتان لا انفصال لأحداهما عن الأخرى، مع فارق السبق الزمني للمتكلّم، وقد توجّهت هذه الإطلالة إلى أفق أوسع حينما ضمّن سيبويه حوارية الحضور العيني إشراك المخاطب بالتجربة المعيشية ليتمكّن المخاطب من الإمساك بالمعنى، من حيث إنّ التجربة المعيشية تشركهما في سنن لا تعترض معه صعوبات في الفهم لما يملكه من حيوية في فهم المعنى، اعتماداً على استراتيجية تشييد القصد عن طريق استحضار المشترك، وتموضع المتكّلم معه فيه بوصفهما صاحبي هذا الاشتراك ، فيعمل سيبويه على أنْ يُوجد رابطاً بين المخاطب والنصوص والعالم ، وهو رابط متماه ، فمواطن الاتفاق سبيل إلى الكسب والموافقة التي قد تقود إلى قول كلمة (نعم) التي تعني الموافقة والإجابة.

يقول سيبويه: «وإنْ زعم زاعم ، أنّه يقول: مررت برجل مخالط بدنه داءٌ ففرق بينه وبين المنوّن، قيل له: ألست تعلم أنّ الصفة إذا كانت للأول، فالتنوين وغير التنوين سواء إذا أردت بإسقاط التنوين معنى التنوين، نحو قولك: مرر ت برجل ملازم أباك، ومررت برجل ملازم أبيك ، أو ملازمك، فإنّه لا يجدُ بداً من

(١) ينظر اللغة والحجاج ص١٣٣.

أنْ يقول: (نعم). وإلّا خالف جميع العرب والنحويين. فإذا قال ذلك، قلت: أفلست تجعل هذا العمل إذا كان منوّناً، وكان لشيء من سبب الأول، أو التبس به بمنزلته إذا كان للأول، فانّه قائل: (نعم)»[1].

لقد عكس سيبويه ههنا أنماطا ثقافية مفهرسة يمكن عبرها فهم الخطوط العريضة لثقافة المتحاورين، بإرشاد من الرمز اللغوي الذي يكسب هذه الخطوط أهمية ويجعلها مفهومة للمجتمع، فكانت اللغة هي المرشد للواقع الاجتماعي.

إنّ محاولتنا معرفة استعمال سيبويه لمكوّنات حوارية تساعدنا على فهم الآليات المتحكمة في النص لاستنباط البنية التحتية واستجلاء الإطار الموضوعي لها، وهذه المكوّنات الحوارية تمركزت في جانبين:

الأول: الجانب الاستعاري [2].

بدءاً ننوّه أنّنا لا نضع مفهوم الاستعارة في الكتاب على قائمة الصور البيانية التي تغطي النشاط البلاغي (مجاز، تشبيه، كناية). من حيث إنّ سيبويه لم يقُل بها مصطلحاً، بل تعامل معها مفهوماً انضوى في هيئات الكتاب التركيبية التي عالجها ضمن عملية التخاطب، التي رصدها واستقرى صورها التداولية، وكأنّه نظر إلى اللغة على أساس طبيعتها، أنّها استعارية «إذ تؤسّس الآلية الاستعارية النشاط اللغوي وكلّ قاعدة أو مواضعة لاحقة تولد بقصد تحديد الثراء

---

(١) الكتاب ٢/١٩- ٢٠.

(٢) تعدّ الاستعارة خاصية من أهم الخصائص الجوهرية للغات الطبيعية مثلها في ذلك مثل القياس والالتباس إلى غير ذلك، ينظر اللغة والحجاج ص١٠٢، وأسرار الاستعارة في آيات الملك ص١٥٥.

الاستعاري»[1]. ومن ثمة فانّ اللغة آلية تقوم على المواضعة وعلى القواعد ،أي أنّها آلية تقديرية تُحدّد ما يمكن إنشاؤه من جمل، وما لا يمكن من ذلك ، كما تُحدّد ما يمكن اعتباره من بين الجمل الممكن إنشاؤها حسناً، أو صحيحاً، أو محمّلاً بمعنى. ويعد ذلك لفتة ذكية من سيبويه حينما وضع مقوّمات جوهرية للاستعارة في أنّ فهمها لا يتطلب الرجوع إلى الأشياء كما هي موجودة في العالم الخارجي بإدراكها إدراكا حسّياً بل يتطلب الرجوع إلى محتويات التعابير المشكّلة للاستعارة، أي الرجوع إلى المؤولات المختزنة في الموسوعة الثقافية للمتلقي وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، والاستعارة الحجاجية[2] هي النوع الأكثر انتشاراً؛ لارتباطها بمقاصد المتكلمين وسياقاتهم التخاطبية والتواصلية[3].وقد وظّفها سيبويه في اشتراطه أنْ تكون الصفة مشتقة لا جامدة لدلالة الأسماء المشتقة على الحدث المقترن بالذات ،أمّا ما ورد من الأسماء الجامدة [4]. بوقوعها صفات فقد أولها سيبويه بالمشتق ومنها أسماء الأجناس كالأسد «تقول : مررت برجل أسد أبوه، إذا كنت تريد أنْ تجعله شديداً ومررت برجل مثل الأسد أبوه إذا كنت تشبّهه، فانْ قلت: مررت بدابة أسد أبوها، فهو رفع لأنّك إنّما تخبر أنّ

---

(١) السيميائية وفلسفة اللغة ص٢٣٥ ، وينظر سيمياء التأويل ص٤٥.

(٢) ثمة ضرب آخر من الاستعارة يسمّى الاستعارة غير الحجاجية أو البديعية ، سياقها الزخرف اللفظي ، والتفنن الاسلوبي وليس سياق التواصل والتخاطب نحو قولهم : (أمطرت لؤلؤاً)، ينظر أسرار البلاغة ص٣٣ والصناعتين ص٢٩٥ والأسس النفسية لأساليب البلاغة ص٢١٩ وجماليات الاسلوب (الصورة الفنية في الأدب العربي) ص٢٣٧.

(٣) اللغة والحجاج ص١٠٨.

(٤) هي عند سيبويه أسماء الإشارة وأسماء الأجناس كالأسد وأي وحقّ وجدّ وحسبك وذو التي بمعنى صاحب، ينظر١/٤٣٠و١/٤٣٤و١/٤٢٢و٢/١٢و٢/٢٩.

أباها هذا السبع. فانْ قلت: مررت برجل أسد أبوه على هذا المعنى رفعت، لا تجعل أباه خلقة كخلقة الأسد ولا صورته»[1]. فالعلاقة الترتيبية تكون باعتماد القوة الحجاجية وهو ما يتبيّن في هذا المخطط:

مررت برجل أسد أبوه

النتيجة بناء على قاعدة تركيبية

الجانب اللغوي {الأب شجاع ــ الأب أسد ــــــــــ شجاعة الأب}

↓ ↓ ↓

إنسان مركز قوة إدغام في صفة واحدة

↙ ↙ ↓

الجانب الموسوعي الثقافي {(جانب مادي) (جانب معنوي) (جانب نفسي)}

إنّ استعارات سيبويه استعارات لغوية مؤسّسة على علاقات لغوية يوائم فيها بين المستعار والمستعار له ونوعية المعنى الذي توحي به استعارته مرتكناً بذلك على فطنة المتلقي وقدرته التجريدية في تحليل مواقع العلاقات بين الألفاظ ،وما تشير إليه من دلالات محتملة يصيب واحداً منها بصورة محددة، وقد استندت خصوصية استعاراته ههنا إلى الإدراك الذي تؤسس له الإحالة من الكلمة البؤرة (الأسد) إلى الجملة الإطار عن طريق تفاعل المادة التعبيرية لتوليد الصورة، وبالاعتماد على سبيل التـأمل المعرفي، فتنبثق الصورة في ذهن المتلقي بحركية الكلمات فتكون الصورة على وفق هذه الرؤية السيبويهية متجددة ليس على مستوى اللغة فحسب بل في نقل الأفكار والتجارب أيضاً، حينما يخضعها سيبويه

(١) الكتاب ٢/ ٢٩.

لممارسات لغوية تهدف إلى الاقتصاد اللغوي في التعبير عن التجارب المختلفة سعياً إلى تثبيت حكم نحوي يقوم على بنية فنية مصوغة انطلاقاً من تشخيصها فتسمح بتوصيل القصد بشكل قد يتعذر توصيله بغيرها، وهنا تتضح وظيفة السياق في فهم الاستعارة وتحليلها؛ اذ لا يمكن رفع غموضها إلّا في إطار سياق ومقام محددين وتمّ ذلك في تقنية حوارية بحضورها العيني يتجلى ذلك عبر قوله في النص: «لأنّك إنّما تخبر»، فثمة شخص ينتظر الخبر من المتكلم، فالتطبيق النحوي الإجرائي أسّس له سيبويه عبر الدلالة الإيحائية في استعارته، حينما جعل وظيفتها معرفية [1].

وفي (باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار) ينقل لنا سيبويه حوارية عينية أخرى بين سائل ومجيب «فمن ذلك أنْ تقول على قول السائل: كم صيد عليه؟. وكم غير ظرف لما ذكرت لك من الاتساع والإيجاز ، فتقول: صيد عليه يومان. وإنّما المعنى صيد عليه الوحش في يومين ، ولكنّه اتسع واختصر. ولذلك أيضاً وضع السائل كم غير ظرف.

ومن ذلك أنْ تقول: كم وُلد له؟ فيقول: ستون عاماً فالمعنى وُلد له الأولاد ووُلد له الولد ستين عاماً، ولكنّه اتسع وأوجز»[2].

استناداً إلى نص سيبويه فانّ استعماله الاستعاري يقتضي التأويل الذي يقتضي بدوره الانطلاق من معطى مباشر قابل للوصف بالارتكاز على العناصر المرئية

---

(١) تجدر الإشارة إلى أنّ بذور هذه الرؤية السيبويهية إلى الاستعارة قد عُولج أثرها في دراسات اللسانيين المحدثين، ينظر السيميائية وفلسفة اللغة ص٢٣٧.

(٢) الكتاب ١/ ٢١١.

للعلامة اللغوية [1] للانتقال إلى معنى ثان (دلالة ثاوية) تستدعي تعبئة معرفة تشترط تنظيم العمل استناداً إلى علاقات جديدة مبنية على وفق ما يستدعيه الاستعمال الاستعاري من اجل الوصول إلى تحديد المضمون الأصلي عبر الحركة اللغوية الدلالية بتفاعل السياق وتركيب الجملة، وهنا تصبح مهمة التأويل مهمة جوهرية، حينما تخلّص النسق من الوهم ، فالتأويل بهذا المعنى يعمل على تقليص المساحة بين النسق والمتلقي عن طريق تقليص المسافة بين اللغة والعالم .

ومن هنا فانّ فعلي التفسير والتأويل سيتجابهان داخل فلك اللغة وهذه الإمكانية الاستعارية ستُشكّل الوجهة الحقيقية لفعل القراءة بوصفها وسيلة تكشف عن طبيعة النص الدلالية وهي قراءة لا تُقرأ عبر الوصف، بل عبر سبر أغوار انبنائه وانساقه وتعالقاته، أي نحو الإمكان والوجود .

ولعلّ سلوكه هذه الطرق التعبيرية واتباعه هذه الأساليب الاستعارية يكمن في تأثره بالقرآن الكريم الذي فيه «عُدّ الإعجاز البياني الوجه الأوّل من وجوه الإعجاز القرآني وأهمها قاطبة»[2] . ولا سيما ما يتصل منها بتصوير عناصر الطبيعة وظواهرها المختلفة، نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[3] . «فالليل والنهار لا يمكران ولكنّ المكر فيهما »[4] . فنسبة المكر إلى الليل والنهار هو من باب التوسع؛ لأنّها من صفات الإنسان ،وهذه الإفادة السيبويهية احتكم

---

(١)أُعجب عبد القاهر الجرجاني في الاستعارة قائلاً (فانّك ترى بها الجماد حيّاً ناطقاً والأعجم فصيحاً والأجسام الخرس مبيّنة والمعاني الخفية بادية جلية) أسرار البلاغة ص٣٣.

(٢) التشخيص في التعبير القرآني (بحث).

(٣) سبأ/٣٣.

(٤) الكتاب١ /١٧٦ .

فيها إلى النص القرآني ومعلوم أنّ القرآن حوار رباني موجّه للعباد.

لقد تنبّه سيبويه إلى أنّ الاستعارة في بعدها المعرفي وسيط مهم بين الذهن البشري وما يحيط به من موجودات يتمّ عبرها تفسير الملتبس وتجاوز كثير من العراقيل التواصلية.

ويتوغل أبو بشر في توجيه السيرورة الدلالية لتوكيد الفعل المحذوف بالمصدر برؤى حوارية تبرز تحليلاته لهذا النمط من الخطاب المتسم بتكثيف دلالي وذلك في «قولك: ما أنت إلّا سيراً، وإلّا سيراً سيراً، وما أنت إلّا الضرب الضرب، وما أنت قتلاً قتلاً، وما أنت إلاّ سير البريد، فكأنّه قال في هذا كلّه: ما أنت إلّا تفعلَ فعلاً، وما أنت إلّا تفعلَ الفعلَ، ولكنّهم حذفوا الفعل لما ذكرت لك... واعلم أنّ السير إذا كنت تخبر عنه في هذا الباب، فإنّما تُخبر بسير متصل بعضه ببعض في أي الأحوال كان. وأما قولك: إنّما أنت سيرٌ، فإنّما جعلته خبراً لأنت ولم تُضمر فعلا»[(١)]. بإجراء تركيبي ضبط كلّ نمط في النص السابق، وقيمته التمييزية، إذ كشف بوضوح عبر تشابه غير ملحوظ للوهلة الأولى بين المخاطب والدهر، إلّا أنّ قصد المبالغة المستوحى من قوله: «سير متصل بعضه ببعض» أقرّ أنّ استعارته لن تكون مظهراً لغوياً، بل مظهراً ثقافياً عامّاً تتأثّر به اللغة، حينما بناه على بعد نفسي في جعْل الدهر شخصاً متجسّماً لا عرضاً متوّهماً[(٢)]، قصد المبالغة، فالعلاقة

---

(١) الكتاب١/٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٢) تعرّض ابن جني في كتابه الخصائص٢/٤٤٢ ، لهذه الفكرة التجسيدية حينما تحدّث عن التوكيد الذي هو أحد معاني المجاز في اللغة عاداً إياه إخباراً عن العرض بما يخبر عنه الجوهر، فعنده أنّ التوكيد قادر على أنْ يصوّر (العرض) في النفوس عن طريق التخييل، بوصفه شخصاً متجسماً يُشاهد ويلمس ويُعاين، وهو ترداد تصريحي لما لّمح به سيبويه.

الاستعارية ههنا أصل العلاقة الاستدلالية في عملية التخاطب الحواري الذي تغوّرت إفرازاته لتوصلنا بتفكيكها إلى الضمير «أنت» وهو مكوّن على مستوى التركيب والدلالة يشير إلى وجود مخاطب حضورياً نظر إليه سيبويه من منظورين:

ـ الأول: تركيبي حينما حدّد بخط تفسيري قطعي وجوب توفير (المسند إليه) له.

والآخر: دلالي حينما حققت هذه البنية التركيبية دلالة اقناعية بالمبالغة في قراءتها التأويلية من لدن المخاطب.

ويستشّف مما سبق أنّ سيبويه لم يتعدّ في معالجاته الدلالية نطاق البيئة الواقعية والتداولية إذ تناول نماذج تركيبية جارية على ألسنة العرب في استعارات متكئة على مفاهيم مرتبطة بكيفية مباشرة بالتجربة كاللمس والذوق والشم والرؤية والسماع، ليخلق لنا عبر عيّناته التركيبية علاقات جديدة تسمح لنا بادراك المفاهيم والقيام باستدلالات حول تلك المفاهيم باستعمال المعرفة ،فكانت استعاراته في الحوار وسيطاً فعّالاً بين المتكلم ،وتطوير أنساقه التصويرية ومعارفه وثقافته، وذلك بوساطة تعميم المعلوم على المجهول واسقاط المشهور على الجديد وبمسلكه الوصفي والعلمي، التقت طروحاته في معالجة الخطاب اللساني باللغويات الحديثة.

الثاني: الجانب التشخيصي

وهو ضرب من الحوارات الاقناعية يبرز بصورة ضمنية تسمح بإعطاء معنى للظواهر في هذا العالم ، عن طريق ما هو بشري، إذ تدلّ مادة (شخص) لغةً: على

الارتفاع والظهور [1] .

أمّا في الاصطلاح ، فهو إسناد صفة ما يعقل ، أي الإنسان إلى ما لا يعقل من المحسوسات والمعنويات ، بحيث تبدو وكأنّ لها حواس الانسان ومشاعره.

أو هو خلع الصفات الإنسانية على أشياء وكائنات غير إنسانية، سواء أكانت حية أم جامدة، معنوية أم غير معنوية [2].

وقد جعل سيبويه من هذه الظاهرة نشاطاً معرفياً نلفي داخله نموذجاً تأويلياً وتحليلياً حينما تأوي إليه كلّ الوقائع الدالة التي تنتجها الممارسة الإنسانية على صعيد الفرد أو الجماعة.

ومما يلفت الانتباه هو قدرة سيبويه ـ عبر اللغة ـ محاورة الأشياء الجامدة غير العاقلة والمعاني التي لا تدرك إلّا بالذهن عن طريق (الانسنة) التي تُلبس الأشياء صفات الكائن الحي وسلوكه بأجواء تقوم على التشبيهات وبثّ الحركة ما يعمل على لفت انتباه المتلقي لما فيها من آلية ، وهي مهمة ليست بالسهلة على النحوي الذي يتعامل مع العربية تعاملاً غير حيادي ينحاز به إلى التغيير والتجاوز عبر ما وراء اللغة من أفكار يمكن لنا على أ ثر ذلك وصف مهمته بالصعوبة ، فهو يعمد إلى ابتكار صياغات لغوية حينما اقتحم ميداناً أباح فيه استنطاق الصامت والجامد عن طريق الدلالة الكامنة وراءه فقد ارتكزت تشخيصاته على استدعاء صور تحكي أحداثاً من أجل نقل أفكار مرجعية، ذات قيمة رمزية تقوم العلاقة فيها على مماثلة تتحقق بين عناصر تنتمي إلى مجالات مختلفة، وتتجه نحو الإبداع عن

---

(١) كتاب العين٢/٣١٤.وينظر لسان العرب (شخص) ٢٢١١/٢٥.

(٢) ينظر التصوير الفني في القرآن ص٦٣ ـ ٦٤ ،والطبيعة في القرآن الكريم ص٤٦٠. والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

طريق تحريك الذهن انطلاقاً من الخصائص العامة ومن دون الخروج عن الإطار التداولي.

إنّ هذا النمط من التشخيص في إطاره الحواري يمكن استجلاؤه من نص سيبويه «يا سارق الليلة زيداً الثوبَ، لم تجعلها ظرفاً»[1] .

فبناء على ما تقدّم أنّ (الليلة) لم تعد زمناً، وإنّما صارت عند سيبويه مشخصة بأنّها تكون مسروقة فأوقع (الليلة) في نسجها التركيبي في الجملة موقع المفعول ورفدها بدلالة جديدة ، محوّلاً إيّاها من معنى مجرد إلى هيأة تنتقل بالحواس، فقد لجأ سيبويه إلى إزالة الحواجز بين مجالات الإدراك عبر بعض العلاقات الطبيعية التي تربط بين عناصر الواقع لتحلّ محلها علاقات أخرى موّظفاً أسلوب الحوار الذي يمكن أنْ يجلب النظر إليه عن طريق النداء في قوله: (يا سارق)، لينفذ منه إلى ما وراءه مما أراد من تقرير حكم نحوي .

ولعلّ الناظر إلى تشخيصاته يجد أنّها سيرورة دائرية تتكوثر بفعل الانتقال من وضعية الفعل إلى ردة الفعل، إذ يدرج سيبويه في فضاء كتابه قوله تعالى: «واسأل القرية» بموجب علاقة تضامن وتقارب دلالي يصبّ في دائرة التشخيص المنتظم في حوار، إذ يكشف عن الأواصر العلائقية القائمة بين الحدث والمرجعية الخارجية من طرف و المتكلم والمخاطب من طرف آخر ، وهي علاقات حوارية تشدّ الخطاب وتجعله ملتحماً بشروط تداولية إذ يقول: «ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى جدّه: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾. إنّما يريد أهل القرية، فاختصر وعمل الفعل في القرية، كما كان عاملا في

(١) الكتاب ١/ ٤١و١٧٥و١٧٦و١٧٧.

الأهل لو كان ههنا»[1].

فقد تقصّى سيبويه ههنا سلوكاً كلامياً مختزلاً حينما حدّد مكونات الكلام الغيابية بالمكونات الحضورية رابطاً تقليص البنية التركيبية بالسعة الدلالية، فالقرية بموجب الدلالة تحوّلت إلى فاعل متحدِّث ومنفِّذ[2]، وهذا ما أشار إليه رصف عناصر الكلام فـ«عمل الفعل في القرية كما كان عاملاً في الأهل لو كان ههنا». وكأنّنا في هذه الآية التي أوردها سيبويه ـ لتعزيز رؤيته التحليلية والدلالية في حواراته ـ إزاء استلزامين:

ـ الأول: استلزام عرفي، وهو اتفاق أصحاب اللغة الواحدة على أنّ للفعل فاعلاً.

والآخر: استلزام حواري ينكشف بتغيّر السياقات التي يرد فيها، فالمعنى الدلالي للتركيب والصيغة اللغوية الشكلية، كشف سيبويه عنهما بقوله: «واسأل أهل القرية». وهذا هو مبدأ التعاون الذي أشار اليه (غرايس) والذي يعدّ أساساً للعملية التخاطبية إذ يربط بين أطراف الحوار بشكل مستمر «فيسعون إلى تحقيق التفاهم فيما بينهم بطريقة عقلانية منطقية، وهو مبدأ اجتماعي يتحكم في العلاقات الاجتماعية للمتكلمين عن طريق الاستعمال العرفي للغة، وأخلاقي لما يوجد من احترام وتداول بين المتحاورين، إنّه مجموع القواعد التي لابدّ أنْ يخضع لها المتحاورون حتى يتحقق التواصل بينهم ويصلوا إلى فائدة مشتركة ينمو بقدر

(١) الكتاب ١/٢١٢ .والآية من سورة يوسف/٨٢.

(٢) المنفذ من مصطلحات النحو الوظيفي وتشير إلى من قام بالعمل، ينظر الوظائف التداولية في النحو الوظيفي: ص٩.

ما يساهم كل طرف مساهمة فعّالة في الحوار بما يراه مناسباً لمقام التخاطب»[1] .
وتتحدّد البنية الحوارية عبر مشاركة الفعل (اسأل) الموجهة الى المخاطب في انتاج هيكل حواري آخر يُنشئه سيبويه في كنف الثقافة الشعرية بعد أنْ قدّم له بالثقافة الاسلامية[2] التي نجد تجلياتها في تشخيصاته، فـ«العباد إنّما كُلّموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون»[3].

إذ يورد بيتاً لجميل بثينة قائلاً فيه: «ولو نصب هذا البيت، قال الخليل: لجاز ولكنّا قبلناه رفعاً:

ألم تسأل الربعَ القواءَ فينطقُ
وهل تُخبرَنْك اليومَ بيداء سملقُ [4]

لم يجعل الأول سبباً للآخر، ولكنّه جعله ينطق على كلّ حال، كأنّه قال: فهو مما ينطق كما قال: أئتني فأحدّثك فجعل نفسه مما يحدّثه على كلّ حال»[5].

فهو يجري «هذا على كلام العباد، وبه أُنزل القرآن»[6]. فلمّا كان معرفة الحكم

---

(١) الاستلزامات الحوارية للأساليب الخبرية في رواية (الدراويش يعودون الى المنفى) ص٩.

(٢) أورد سيبويه نصوصاً قرآنية مُؤنسَن فيها غير العاقل وموسوم بسمات ما هو عاقل، مقرّراً بحسّ معرفي لغوي من إفادة التفكير التشخيصي وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ يوسف/٤ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾. النمل/١٨، فالسجود والقول فعل مَن يعقل ((فزعم أنّه بمنزلة ما يعقل ويسمع لما ذكرهم بالسجود وصار النمل بتلك المنزلة حين حدّثت عنه كما تحدّث عن الأناسي)) الكتاب٢/٤٧.

(٣) الكتاب١/٣٣١.

(٤) ديوان جميل ص١٤٤ وينظر الخزانة٣/٦٠١ والهمع٢/١١والسملق الارض المستوية التي لا شجر فيها ينظر العين٢/٢٧٨ وينظر اللسان (سملق).

(٥) الكتاب٣/٣٧.

(٦) الكتاب١/٣٣٢.

وتحديده متوقفاً على تحديد المعنى، فقد وسّع سيبويه ههنا الرقعة الإعرابية للفعل (ينطق) بأنْ يكون مرفوعاً على الاستئناف والقطع أو يكون منصوباً على الجواب، وهذه الإحاطة بالعلاقات التي يُقيمها السلوك اللغوي لم تكن بمنأى عن السياق الاجتماعي والنفسي للأطراف المشاركة في الانجاز الحواري، فكان أحدهما قادراً عليه معبراً عنه، والآخر جامداً لا يحير جواباً، ولا يقدر على المحاورة إلّا أنّ الشاعر عمد إلى استنطاقه، وينكشف لنا السر الدلالي في مجاراة سيبويه لنمط السؤال الحواري (ألم تسأل) ليظهر به احتمالية النصب واستحسانه على الرفع. وهو ما يفصح عن جدارة معالجات سيبويه للغة في إظهاره منطق النسق عبر تشخيصاته، اذ كشف أولاً عن نسق العلاقات؛ لأنّه من أبجديات الإدراك للنص فمن دون المعرفة الأولية للعلاقات يستعصي النص على الفهم عبر القيام بعملية استكشاف، إمّا بالتقدير، وإمّا بالتمثيل ثمّ ببيان تصورات الإدراك التي طبعها المقام اعتماداً على مرجعيات مشتركة تقع في البنية الذهنية فتكون لحظة التأويل عند المخاطب ذات بعدين:

ـ الأول: ذوقي باستشعار جمالية التشبيه في التشخيص في محاولة لتذوق النص شكلاً ومعنى، إذ يفزع سيبويه في مشروع التواصل إلى القرآن الكريم والشعر، ما عزّز قيمة هذا المشروع.

ـ والآخر: استرجاعي يتمّ فيه استجلاء المعنى انطلاقاً من المبنى، وهي لحظة آنية لا يمكن الفصل بين بعديها.

إنّ هذه التشخيصات في أطرها الحوارية تتطلب حذقاً ومهارة، بما يزيد القناعة يقيناً بأهميتها وبأهمية الكشوف اللغوية التي يقدّمها هذا النحوي البارع ،وهو يحتكم إلى السياق الاجتماعي الذي يجري الظاهرة التشخيصية في مفاصلها،

فتكون نصوصه موازية لعمق الظاهرة هذه، وليس ذلك بكثير على لغوي تيسّرت في منهجيته أسرار اللغة.

على وجه العموم يمكن أن نستشفّ أنّ الجانب التشخيصي عند سيبويه استند إلى أسس هي:

١ـ الأساس اللساني: وهو بنية القول الداخلية بمعزل عن استعمالها، أو هو النسق اللغوي الذي تتمّ به عمليتا التدليل والاستدلال، بين طرفي التواصل، إذ تنتظم المكونات اللغوية مؤلّفة في سنن لغوي متفق عليه، يخضع في تحليله إلى معرفة مشتركة بمدلولات الوحدات الصوتية والصرفية والمعجمية، بما يفضي إلى انبناء خصائص تركيبية، يتمّ عبرها نقل دلالات مختلفة بمعان مقصودة.

٢ـ الأساس الموسوعي: وهو مجموعة الخبرات المعرفية والمعتقدات والتمثّلات عن العالم الخارجي، فكلّ سلوك تواصلي ينطلق من تراكم تجارب تكون بمعطياتها سبيلاً يوجّه الاستدلال.

٣ـ الأساس المنطقي: استطاع سيبويه بهذا الأساس ضبط ضروب الانتقال من المقدّمات إلى النتائج عبر مراعاة العلاقات الاستلزامية بينها، وهو أمر متعلق بمجموعة من قضايا مسلّم بها، إلى قضايا تلزمها عبر الربط بين ما هو حاصل (الأقوال)، وما هو مستحصل (ما تستلزمه تلك الأقوال من شروط وجودية قبلية تُؤسّس عليها الأقوال). سواء أكانت شروطاً متعلقة بمعلومات مضمرة في بنية الأقوال أم شروطاً سياقية متعلقة بالمقام.

وأمام هذا الشرط التعاوني في الحوارية التخاطبية تحقق التواصل التشخيصي ـ إنْ جاز لنا التعبير ـ في نصوص سيبويه؛ لأنّها أمدّت متلقيها بما هو جديد وانْ كان عالماً بفحواها؛ لأنّ سيبويه يسوقها على قدر افتقار متلقيه لها.

المبحث الثاني
حوارية الاستحضار الذهني (الافتراضي)

يعّد الافتراض عند سيبويه قوة تجمع بين أشياء تضافرت، ليجرّدها المتلقي في عقله ويجمعها ليتصورها، وهذا التنسيق العقلي جزء من تفكيره المعرفي ،وقدرته على التأمل والاستبطان، حين يتدرّج العقل في أدراك هذه النقلة من عالم محسوس إلى عالم غير محسوس، عبر تقديم الأدلة والبراهين، فالتفكير بوساطة العلامات هو وحده القابل للظهور والتجلي انطلاقاً من وقائع خارجية؛ لأنّ الفكر لا يمكن إدراكه والتعرف عليه إلّا عبر وقائع خارجية ملموسة والفكر الذي لا يمكن التعرف عليه، هو فكر لا وجود له، والخلاصة هي أنّ كل ّتفكير ينبغي أنْ يكون بالضرورة بوساطة العلامات، من حيث إنّه لا علامة بدون فكر، ولكن لا فكر بدون علامة أيضاً.

وأمام هذه المعادلة انزاحت نصوص في الكتاب إلى أن تكون افتراضية لضمان تأويل ملائم لمحتوياتها وتحفيز المتلقي على تصديقها كما لو كانت تجربة حقيقية، فيتأسس المعنى تبعاً لذلك على أرضية ذهنية تقابلية.

ولقياس التفكير علينا قياس أسلوب التفكير السليم والقدرات التفكيرية الخاصة كالتخيّل والترابط والحكم، ومن هنا فقد كان لسيبويه طاقة ابتكارية بنائية في حواراته تمثّلت بالافتراض، وهي ظاهرة تدعو لنفسها في الكتاب وتفتح بابها من حيث إنّ القصد يمكن أيضاً أنْ نتأوّله عن طريق الافتراض وهو ما يسمّيه (غرايس) بـ(معنى المتكلم) من حيث إنّه يمكن التعبير عن المعنى

باستراتيجيات مختلفة «فإنّ التداولية وحسب بعض الاعتبارات هي دراسة الطرق التي تتجلى بها المقاصد في الخطاب»[1]. أي الاهتمام بظروف الخطاب وسياقه، إذ يذكر سيبويه الموقف التداولي فيما يتطلبه من رصف عناصر خطابية على وفق دليل نظمي خاص بالخطاب الدال على المدح أو الذم المبني على أساس حوار جار بين متكلم ومخاطب فإذا قال الأول: «عبد الله نعْمَ الرجل، فهو بمنزلة: عبد الله ذهب أخوه. كأنّه قال: نعْمَ الرجل. فقيل له: مَن هو؟. فقال: عبد الله. واذا قال: عبدالله. فكأنّه قيل له: ما شأنه؟. فقال نعْمَ الرجل»[2].

ففي نص سيبويه تتسع بنية المدح أو الذم لاستيعاب حمولة مزدوجة الأولى بافتراضها عبر الحوار، والأخرى استحضارها بتمظهرها في العلامات، لتؤدّي وظيفتها التعبيرية، وذلك يقودنا الى الاستئناس بهذا النظام العميق الذي انبنى عليه الحوار السيبويهي، وهو حوار تفسيري تأويلي أوجد سيبويه عبره علائق رابطة بين البنية الظاهرية والبنية المؤولة باستحضار المقابلة بينهما، بنائياً وذهنياً فيُنتج المعنى ويفهم ويؤول ،اعتماداً على العناصر الحاضرة افتراضاً وإيحاءً.

ويجري سيبويه حواراً آخر مفترضاً لمخاطب يقول قولاً، ويردّ عليه رجلٌ آخر هو المتكلم موضحاً ذلك بالبيان والبرهان قائلاً: «ويقول الرجل: يا ويلاه، فيقول الآخر: ويلاً كيلاً. كأنّه يقول: لك ما دعوت به ويلاً كيلاً. يدلّك على ذلك قولهم: إذا قال: يا ويلاه «نَعَمْ ويلاً كيلاً». أي كذلك أمرك، أو لك الويل ويلاً كيلاً. وهذا مشبّه بقوله: ويلٌ له ويلاً كيلاً. وربما قالوا : يا ويلاً كيلاً»[3].

---

(١) مناهج البحث اللغوي عند العرب ص٨٣.

(٢) الكتاب٢/١٧٦- ١٧٧.

(٣) الكتاب١/٣٣٣.

فـ(ويلٌ) تجري عند سيبويه مجرى ما فيه الألف واللام من المصادر والأسماء إذ يقول: «فهذه الحروف[1] كلّها مبتدأ مبني عليها ما بعدها، والمعنى فيهنّ، أنّك ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك، ولست في حال حديثك تعمل على اثباتها وتزجيتها ، وفيها ذلك المعنى، كما أنّ حسبك فيها معنى النهي، وكما أنّ رحمةُ الله عليه فيه رَحمهُ الله»[2] . إلّا أنّه يجوز نصبها بأنْ يجريها العرب مجرى (جدعاً) و(عقراً) ويبيّن سيبويه هذا الحكم النحوي في تحليله لإجراء كلامي دار في موقف حواري اجتماعي مفترض ـ إذ يمكن استجلاء ذلك عبر لفظتي كأنّه وربما ـ عمل على هيمنة دلالة الدعاء .

فضلاً عن ذلك فإنّ الافتراض ههنا يحظى بوصفه تفاعلاً بين الواقع والخيال، حينما يقدّم نفسه عبر مقترحات ذهنية. ومن هنا فالافتراض في نصوص سيبويه ينأى عن أنْ يكون مقصدياً صرفاً أو خيالياً صرفاً، بل أنّه صناعة سيبويهية واعية تقوم على مدّ أواصر اللغة حينما يتحوّل القول إلى قوة مادية فاعلة ببلورة الأشياء لغوياً بما قد لا يخطر على بال أحد، وهذه الصنعة تنتهي إلى وضع سنن يجمع بين المكوّن التخييلي والقوانين المعيارية والمقصدية بشمولية منهجية، ولما كان شرط الحوار العلمي أنْ يبقى الكلام مع الكلام لا مع المتكلم ،فإنّه بذلك تنكشف لنا حقيقة منهجية سيبويه عبر كلامه هو وإنْ افترض متكلمه.

لقد جعل سيبويه من الافتراض وسيطاً إلزامياً يخلق واقعاً عوضاً من أنْ يكون نسخة منه. ونخلص إلى القول إنّ سيبويه استطاع أنْ يقتنص معلومات مجردة

---

(١) يعني بالحروف (سلام عليك ولبيك وخير بين يديك وويل وويح لك وويس لك وويلةٌ لك وعولة لك وخير له وشرّ له) ينظر الكتاب١ / ٣٣٠.

(٢) الكتاب١ / ٣٣٠.

تدخل في إطار التفكير المجرد والحقيقة الحدسية بالبصيرة لا بالبصر بأنْ يستوعب المتلقي ملامح شخص في فكره بكلّ اتقان لمضمونه أنّه (هو) فينفتح بذلك باب الفهم؛ لأنّ بؤرة الوضوح قد لوحظت بمنظار المعرفة المسبقة، وهو ما يؤكد حضور فعل النظر الذهني في القضية، فهو نظر بالعين المجازية ـ إنْ جاز لنا التعبير ـ ومن ثمّة فهو وسيلة أكثر فاعلية تُنبئ عن بصيرة عقلية في اضفاء الطابع المادي على ما هو غائب.

المبحث الثالث

حوارية الحضور العيني بالاستحضار الذهني [1]

يسهم الصوغ التصويري في جعل الخطاب يؤدي وظيفتين اجتماعيتين هما: الإقناع الفعال والتشخيص الأمين من حيث إنّ الفكر داخل الصورة ينسجم ـ عبر نصوص سيبويه ـ مع الواقع خارج الصورة ولا ينفصل عنه، فللغة عند سيبويه اسبقية في تحريك العقل بمهاراته التجريدية واسبقية الانفعال والإحساس في التجسيد، اذ يتراصان بوصفهما تقنية في بناء خطاب تداولي (سمعي ـ بصري).

إنّ هذا الضرب من الحوار في الكتاب يتجاوب بوعي مع الإبداع، فهو غالباً ما يكون مسبوقاً بقصدية تتمثّل باختيار نماذج تخضع لارتباطها بمرجعية فكرية ومضامين مشتركة بين المتكلم والمخاطب إلى تحريك خبرات ومعارف وتجارب إبداعية نحو الفهم والإدراك، وهو ما يشي إلى القول بأنّ البحث العلمي يوقظ فينا ضرورة قول إنّ الطابع البصري ههنا يستثمر معرفة قُدّمت للمتلقي أو أُشير إليها وهذا يعني نأي التعدد؛ لأنّ المحاولة التأليفية سينتج عنها حضور شيء لم يكن موجوداً تلك اللحظة فتكون الصورة مقولة مركزية في التجسيد مرتبطة بعناصر غائبة، لتكون الصورة في النهاية ملتحمة بالإدراك من أجل تكوين الموضوع ، فلقد حاول سيبويه رسم الصورة باللغة محاولاً جعْل المتلقي يبعثها حسب معرفته بعناصر الواقع ،فالتخييل عند سيبويه وصف للعملية التمثيلية من جهة، والأثر المتوخى أو الممكن من جهة أخرى .فالبناء اللغوي يُشكّل بعده ههنا

---

(١) يقول ابن رشيق في كتابه العمدة ٢٩٥/٢ ((ابلغ الوصف ما قلب السمع بصراً)). إذ يقلب سيبويه السمع بصراً عبر آلية الحوار الثانية ـ بعد آلية التشخيص ـ وهي المقام.

إلى جانب التأثير النفسي من حيث إنّ الخيال ملكة نفسية (ملكة التفكير بالصور) أو ملكة نفسية لخلق الصور أو استرجاعها يوظفها سيبويه كيما يكون في ذهن المتلقي ما هو متخّيل ،فالذي في ذهن المتلقي ليس الخيال بل المتخيّل بتجلياته اللغوية، فيجمع أبو بشرفيه بين الملكة وهي مجال للدراسة النفسية والاجتماعية، والمقاصد التي هي حديث عن تجليات لغوية، وكلّ ذلك يتمّ في إطار حواري. وهذا الضرب من الحوار لم يحظَ بحديث ضمني أو مستقل في دراسة على الرغم مما فيه من روعة بناء وقوة تأثير في النفوس على صعيد كلا الجانبين الفني والوظيفي، فهذا الضرب من الحوار يخاطب فيه سيبويه متلقيه عقلاً وحسّاً ووجداناً، ضمن نظام من العلاقات السياقية(تعبيرية ـ تصويرية ـ فكرية)تحمل فكره السيبويهي في إظهار لحكمة العربية، إذ يقول: «فانّ النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب وذلك أنّ رجلاً من أخوانك ومعرفتك لو أراد أنْ يخبرك عن نفسه أو عن غيره فقال: أنا عبد الله منطلقاً، وهو زيدٌ منطلقاً. كان محالاً؛ لأنّه إنّما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية ؛ لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر، وإنّما يضمر إذا علم أنّك قد عرفت مَن يعني، إلّا أنّ رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فيه، فقلت: مَن أنت؟. فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك. كان حسناً»[1].

هذا الحوار صوّر قصة كاملة يعرض فيه سيبويه مشهداً حيّاً وشاخصاً في صورة بناء محكم بقواعده وأركانه يحمل فيه سيبويه متلقيه بأنْ يظل خياله نشطاً، متحرّكاً، لمتابعة مراحل التصوير المختلفة بدءاً من تحديد أنّه من الأقرباء ثمّ أنّه خلف جدار ثمّ أنّه يريد حاجة في متابعة لأحوال المتكلم من أجل إبراز الفروق

(١) الكتاب ٢/ ٨٠- ٨١.

القولية .

فالحضور العيني لمشاركي الحدث تمّ باستحضارهم ذهنياً، وهي صورة حوارية منسجمة تتواصل داخل السياق ضمن نظام العلاقات من أجل فهم المعنى. فالمقام شرط تداولي ألحّ سيبويه عليه ههنا إذ «لكلّ طرح خطابي مقام وموضوع، يحققان انسجامه، بشرط استخدام المتكلم لمقدمات عقلية في بداية طرحه، لبناء أول جسور التواصل المقنع بينه وبين مخاطبه»(١).

ومن هنا فانّ هذا التصوير في إطاره الحواري، لم يكن مجرد تشكيل لغوي ،بل هو تشكيل لغوي خاص يقصد به التأثير، من حيث إنّه متصل بنظرية المعرفة الإنسانية، وتلك قضية إخال أنّ سيبويه جعلها قضية أساسية، حينما جعل هذا الضرب من الحوار نموذجاً متنوّعاً، متفاعلاً مع السياق، ومجسّداً للفكرة اللغوية المقصودة، ولاسيّما أنّ دور التمثيل ـ عنده ـ هو الكشف عن المعاني الغامضة، والتصوير بمنزلة التشكيل لها حتى يتصوره السامع، كأنّه ينظر إليه بعينه، فكانت قيمة هذا التصوير في إطاره الحواري في نقل المعاني الذهنية في صورة حسية عبر إيجادها ذهنياً، ومن ثمّة يُبرز هذا الضرب من الحوار التصويري(٢) المعاني عند سيبويه بنوعيها:

١ـ المعاني المحققة: وهي التي لها وجود خارجي حسّي.

٢ـ المعاني المفروضة المتخيلة .

---

(١) المثل في كتاب كليلة ودمنة ص٢٤٧ ـ ٢٤٨. وينظر الصورة الذهنية في تصوّر المعنى ص١٣٣وما بعدها.

(٢) مما يبدو أنّ لسيبويه أساسا في صوره يغذي نصوصه عبره بالمعرفة الحقة ، وهو الفكر الديني ، إذ تعد الصورة الفنية قاعدة الأسلوب القرآني الأساسية وأداته المفضلة في التعبير عن المعاني المجردة والحالات النفسية والمواقف الإنسانية ،ينظر الصورة الفنية في القرآن الكريم ص٧.

فقد فسّر سيبويه التركيب (أنا عبد الله منطلقاً) و(هو زيد منطلقاً). بالإحالة بالارتكان إلى إرادة المتكلم من معنى؛ لأنّه أراد أنْ يخبرك عن نفسه أو غيره بالانطلاق، وكان حقّه أنْ يقول: (أنا منطلق) و(هو منطلق»). من حيث إنّك لا تضمر، فتقول: (أنا) أو(هو) حتى تكون معروفاً فتستغني عن قول (عبد الله) أو (زيد) في حين أنّه حكم على التركيب نفسه (أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك) بالحسن استناداً الى ملابسات المسرح اللغوي المصاحبة للتركيب؛ ولأنّ المتكلم ينادي رجلاً خلف حائط ،فهو يجهله أو يجهل مكانه، فمن ثمّ أفاد قوله (أنا عبد الله). ثمّ بيّن حاله[(١)]. لقد تفطن سيبويه إلى جعل الظاهرة اللغوية أقوالاً حية تأخذ قيمتها الحقيقية من تعالقها بعناصر المحيط الذي ولدت فيه، وهو ما يميّز الخطاب اللغوي الطبيعي عن الخطاب التجريدي [(٢)].

ومما أورده سيبويه قوله: «ولو رأيت ناساً ينظرون الهلال، وأنت منهم بعيد فكبّروا، لقلت: الهلال وربّ الكعبة. أي: أبصروا الهلال»[(٣)] .

إنّ دراسة المقام كمكوّن حواري تقتضي دراسة النظام القولي بما يضّمه من قرائن بوصفها وسيلة من وسائل التحليل الأساسية، وهذه القرائن تعمل على كشف مجموع القيم المكوّنة للمقام، فمن هذه القرائن المكان [(٤)]. فالمتكلم يرى

(١) ينظر الدلالة والتقعيد النحوي ص٤١٢.

(٢) لمعرفة فرق الخطاب الطبيعي عن التجريدي، ينظر التواصل بين القصد والاستقصاد مقاربة تداولية لفاعليتي التدليل والتأويل ص٩١ والمكون التداولي في النظرية اللسانية العربية ص٣٤٢.

(٣) الكتاب ١/٢٥٧.

(٤) لتوضيح أهمية المكان في النصوص، ينظر بناء الرواية العربية السورية ص٢٦٢ وبناء الرواية ص١١٠

الناس إلّا أنّه في مكان بعيد عنهم، وهذا المكان تحّول من مجرد خلفية مرتبطة بوقوع الأحداث إلى عنصر تشكيلي يكمل تحديد الدلالة، فلأنّه بعيد عنهم، استغنى عن ذكر الفعل (ابصروا)، واكتفى بقول (الهلال)؛ لأنّه استحضر ذهنياً رؤيتهم للهلال وتأكدت حضورياً تلك الرؤية عبر التكبير. فتجاوز المكان ههنا وظيفته الأولية كإطار هندسي تقع فيه الأحداث ليتسع إلى فضاء يسهم في تشييد النصوص والتأثير فيها، وسيبويه في إحضاره المكان في نصوصه، إنّما كان سبيله إلى ذلك التصوير الذهني المتخيّل، مجسّداً فيه مشهداً من العالم الخارجي في لوحة مصنوعة من الكلمات عبر حوار المتكلم مع نفسه مستحضراً فيه:

١ـ حقائق فعلية وأحداثاً معيّنة، لا يشكّ المتلقي في ثبوتيتها المرجعية، لكنّ ذكرها في النص يكون له طابع حجاجي.

٢ـ إنّ تلك الحقائق أحدثت صراعاً جدلياً مع أحداث أخرى كان المتلقي(١) يتوقع ذكرها، لكنّ المتكلم رغب عنها، لأجل خلق إطار منطقي للحقائق التي اختارها وكذلك لكي تصير فعلاً هي الملائمة للمقام، وهو ما يبرز لجوء سيبويه ـ في نصوصه لهذين الشرطين التداوليين ـ إلى مجموع الطروحات الحوارية مرتكناً إلى الحجج المتنوعة والمكثفة، والتي تتضح من تعداد الأفكار، فكانت صور سيبويه تترى في مسرح لغوي متكامل متخذاً منها وسيلة تفسيرية لا تسعى إلى التوضيح والبيان فحسب، بل إلى الإقناع أيضاً، إذ هي أقوى تأثيراً في النفوس من التعبير المجرد.

ويستخلص من ذلك أنّ الصورة ـ عند سيبويه عبر الحوار ـ جاءت في مظهرين:

---

(١) أود الإشارة أنّ المتلقي ههنا هو المتكلم عينه فهو يتحدّث مع نفسه.

الأول:صور عقلية وهذه تنشأ من وجود أفكار مشتركة لدينا مع الآخرين ، مما يؤدي بنا إلى تكوين فكرة عن الأشياء مشابهة لما نتخيّله عنها، فهو إدراك ذهني، وهي مرتبة من مراتب وجود الشيء إلاّ أنّها ذهنية الوجود .

الآخر: صور حسيّة وتكون معرفتها عن طريق الحواس التي تنقل لنا فكرة كافية عنها إمّا نفياً ، وإمّا إثباتاً.

وفي كلا المظهرين يكون الاعتماد على التجربة؛ لأنّها سبيل المعرفة.

لقد فهم سيبويه الواقع وجعله معقولاً، ومن ثمّ جعل (الواقع) بما فيه من مؤثرات، و(الذات) من حيث إنّها فكر يكون العالم مصاحباً لتمثّله من جنس واحد حينما عمد إلى تعقيل الواقع في نظريته النحوية .

نتائج حواريات سيبويه:

١ـ كان الحوار عند سيبويه أداة حجاجية لها أصولها المتمثلة في سلوكه الطرق العلمية والتزامه بها من جهة تقديم الأدلة المؤيّدة للنصوص، وصحة النقل في الأمور المنقولة، ومن جهة أخرى الاتفاق على منطلقات ثابتة .

٢ـ إنّ بلاغة الاستعارات عند سيبويه تستمد شرعيتها من القيم الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، فالتوصل إلى هذه الصورة لا بدّ من أنْ يكمن في القدرة على علاقة تبادلية، تتمّ داخل بنية الشعور الجمعي، وضمن إطار ثقافي تكسبها حياة حينما يرفعها إعمال الفكر والتفكير.

٣ـ كانت صور سيبويه واستعاراته، تصدر عنها قيم إفادية متعددة من حجاج وإخبار وتوصيل وتقويم ومن ثمّ نقول إنّ ما ورد منها في نصوص الكتاب، اكتملت قيمتها المقصدية الإخبارية، لتضمّنها غرضاً توصيلياً في إطار حجاجي فمنحها هيأة متعددة القيم والمقصديات المتكاملة.

٤ـ أثار سيبويه معرفة كاملة عند متلقيه، باختياره المفردات التي يوظفها والمجالات الاستعارية التي يعتمدها فهي لا تعمل عنده على بيان القصد فحسب، بل تُثير ردود أفعال عند متلقيها في إطار اختزالي في التجربة، غني في اللغة، فكانت تشخيصاته في اسلوبه الحواري مؤصّلة لغوياً قبل أنْ تكون مظهراً من مظاهر التداول الخطابي.

٥ـ لقد وجدت تشخيصات سيبويه رحماً لها هو مجالات معرفية، فنمت فيها، ولم تبقَ في مراحلها الجنينية بما يجعلها مؤثرة آنياً في متلقيها بعد ربطها بنسق تؤثر فيه، مع طرح لمسألة أنّ بناء هذا النسق قد يكون مجموعة من رموز، يتمّ إرسالها بشكل تقني، إلّا أنّه يراعي إلى جانب ذلك حيثيات التجربة الإنسانية وهو ما

يميّز نصوص سيبويه بأنّ المواضعة المسطرية فيها لا تأخذ جانب التجريد، بل تتقابل والحياة الاجتماعية بصورة سيبويهية مُدمجة مختلف أبعاد الظاهرة الانسانية.

٦ـ تجاوزت اللغة عند سيبويه نسق الجملة الى مستوى النص الذي يتوجه إلى الآخرين، ليكون خطاباً ومن هنا فقد توافر في نصوصه عنصران أساسيان:

الأول: الاسلوبية الأدبية بما تشتمل عليه من إعمال الفكر والخيال.

والآخر: القصدية بأدواتها الحجاجية والاقناعية، وعلى هدي ذلك ،يمكن القول إنّه لا فصل بين بلاغة الحجاج وبلاغة الاسلوب في الكتاب من حيث إنّ ترتيب الحجج يولّد نوعاً من التعالق والترابط، بينها وبين النتائج مما يجعل الاستدلال الحجاجي برمّته، متسلسلاً ومتنامياً ومتماسكاً، وهذا التفاعل المتبادل كانت وراءه طاقة دينية لإنجازه، تلك الطاقة التي تجسّدت في القرآن، فكانت نظاماً يُشكّل جزءاً أصيلاً في تكوين المتحاورين ويكشف عن حكمة العربية.

مكتبة البحث

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ أساليب التوكيد في القرآن الكريم ـ عبد الرحمن المطردي ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ـ الجماهيرية العربية الليبية ـ ط١ـ ١٩٨٦م.

٣ـ الاستلزامات الحوارية للأساليب الخبرية في رواية «الدراويش يعودون إلى المنفى» ـ مقال على موقع منتديات من المحيط إلى الخليج ـ لعبد الرحمن تبرماسين ودلال وشن.

٤ـ أسرار الاستعارة في آيات الملك في القرآن الكريم ـ بحث ـ هناء محمود شهاب وعمار غانم محمد ـ مجلة التربية والعلم ـ المجلد (١٥) ـ العدد (٤) ـ ٢٠٠٨م.

٥ـ أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ) ـ تحقيق: محمود محمد شاكر ـ دار المدني ـ جدة .

٦ـ الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ـ أدريس مقبول ـ عالم الكتب الحديث ـ الأردن ـ ط١ـ ٢٠٠٦م.

٧ـ الأسس النفسية لأساليب البلاغة ـ مجيد عبد الحميد ناجي ـ دار إحياء التراث العربي الا سلامي ـ بغداد ـ ط١ ـ ١٩٨٤م.

٨ـ أصول الحوار وآدابه في الإسلام ـ صالح بن عبد الله بن حميد ـ دار المنارة للنشر والتوزيع ـ جدة ـ مكة ـ ط١ـ ١٩٩٤م.

٩ـ البحث الدلالي في كتاب سيبويه ـ دلخوش جار الله حسين دزة بي ـ أطروحة دكتوراه ـ جامعة بغداد.

١٠ـ بناء الرواية ـ سيزا قاسم ـ دار التنوير ـ بيروت ـ ١٩٨٥م.

١١ـ بناء الرواية العربية السورية ـ سمر روحي الفيصل ـ اتحاد الكتّاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٩٥م.
١٢ـ التشخيص في التعبير القرآني ـ عقيل عبد الزهرة مبدر ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة الكوفة ـ العدد(٦) ـ ٢٠١٠م.
١٣ـ التصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٦م.
١٤ـ التواصل بين القصد والاستقصاد مقاربة تداولية لفاعليتي التدليل والتأويل ـ فاس ـ المغرب٢٠٠٣م.
١٥ـ جماليات الاسلوب (الصورة الفنية في الادب العربي) ـ فايز الداية ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
١٦ـ الحوار وخصائص التفاعل التواصلي دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية ـ افريقيا الشرق ـ الدار البيضاء ـ المغرب ٢٠١٠م.
١٧ـ خزانة الأدب ـ البغدادي ـ بولاق ـ ١٢٩٩هـ.
١٨ـ الخصائص ـ أبو الفتح بن جني ـ (ـ٣٩٢هـ) ـ تحقيق: محمد علي النجار ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ ط٤ ـ١٩٩٠م.
١٩ـ الدلالة والتقعيد النحوي دراسة في فكر سيبويه ـ محمد سالم صالح ـ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ط١ـ ٢٠٠٦م.
٢٠ـ ديوان جميل ـ جمع وتحقيق حسين نصار ـ دار مصر للطباعة ١٣٨٢هـ.
٢١ـ سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة والإشارة) ـ رشيد الادريسي ـ المدارس للنشر والتوزيع ـ ط١ـ الدار البيضاء ٢٠٠٠م.
٢٢ـ السيميائية وفلسفة اللغة ـ ايكو أمبرتو ـ ترجمة: أحمد الصمعي ـ المنظمة العربية للترجمة ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.

٢٣ـ الصورة الذهنية دراسة في تصوّر المعنى ـ (بحث) ـ أحمد معلوف ـ مجلة جامعة دمشق ـ المجلد(٢٦) ـ العدد (١+٢) ـ ٢٠١٠م.

٢٤ـ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ـ جابر عصفور ـ دار التنوير للطباعة والنشر ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٣م.

٢٥ـ الصورة والصيرورة بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي ـ نهاد الموسى ـ دار الشروق للنشر والتوزيع ـ عمان ـ الاردن.٢٠٠٣م.

٢٦ـ الطبيعة في القرآن الكريم ـ كاصد ياسر الزيدي ـ منشورات ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ سلسلة دراسات (٢٣٦) ـ المركز العربي للطباعة والنشر ـ بيروت ـ١٩٨٠م.

٢٧ـالعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الجبل للنشر والتوزيع والطباعة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٥ ـ١٩٨١م.

٢٨ـ كتاب سيبويه ـ أبو بشر عمر بن عثمان (ـ١٨٠هـ) ـ تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط٣ ـ ١٩٨٨م.

٢٩ـ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ـ أبوهلال العسكري (ـ٣٩٥هـ) ـ تحقيق: مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨١م.

٣٠ـ كتاب العين مرتباً على حروف المعجم ـ تصنيف الخليل (ـ١٧٠هـ) ـ تحقيق: عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ـ ٢٠٠٣م.

٣١ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ـ ١٩٩٥م.

٣٢ـ اللغة والحجاج ـ أبو بكر العزاوي ـ ط١ـ الدار البيضاء ـ ٢٠٠٦م.

٣٣ـ اللغة والخطاب ـ عمر أوكان ـ أفريقيا الشرق ـ المغرب ـ ٢٠٠٠م.

٣٤ـ المثل في كتاب كليلة ودمنة بين الإخبارية والتوصيلية تقريب تداولي ـ هاجر مدقن ـ مجلة الأثر ـ العدد الخاص بالملتقى الدولي الرابع في تحليل الخطاب.

٣٥ـ المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الاصفهاني (ـ٥٠٢هـ) ـ تحقيق: محمد خلف الله ـ مطبعة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ١٩٧٠م.

٣٦ـ المكوّن التداولي في النظرية اللسانية العربية (ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجاً) ـ أطروحة دكتوراه ـ ليلى كاده ـ كلية الآداب ـ جامعة الحاج لخضر باتنة ـ الجزائر.

٣٧ـ مناهج البحث اللغوي عند العرب في ضوء النظريات اللسانية ـ أطروحة دكتوراه ـ نسيمة نابي ـ جامعة مولود معمري ـ الجزائر ـ٢٠١٠م.

٣٨ـ نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ـ نهاد الموسى ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ١٩٨٠م.

٣٩ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ـ تحقيق: عبد العال سالم مكرم وعبد السلام محمد هارون ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٢ ـ١٩٨٧م.

٤٠ـ الوظائف التداولية في اللغة العربية ـ منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.

اسس ترجيح القراءات في الكتاب
(صنعة أبي بشر في التأويل النحوي)

ديباجة البحث:

احتلّ كتاب سيبويه مركزية في مسار النحو العربي، بل نُظِر إليه نظرة تقديسية حينما جُعِل مفتاح مقاربة للنص القرآني على قول أبي حيان إنّ :«الكتاب هو المرقاة إلى فَهْم الكتاب ... فجدير لَمن تاقت نفسه إلى علم التفسير و ترقّت إلى التحقيق فيه والتحرير أنْ يعتكف على كتاب سيبويه ،فهو في هذا الفن المعوّل عليه والمستند في حلّ المشكلات إليه»[1]. حيث يرسم لنا سيبويه ـ في هذه الورقة البحثية ـ صورة يتجاذبَ اكتمالها معطيان اثنان :

الأول: متعلق بالسماع ـ بشواهده القرآنية المختارة ـ إذ الاستقراء عبرها يُوصِل النحوي إلى بناء نموذج للغة يُمثّل فكر النحوي بالنسبة لنظام اللغة فتكون قيمة السماع عندئذ في أنّه المادة التي يجري عليها الاستقراء.

والآخر: إنّ تفحّص أصول النحو تجعلنا نمتثِل لما انطوت عليه من توجيهات نستشرف بها أثر الجانب الديني فيها، ما يتجلى عبره مقصد الدراسة ههنا في تشخيص معالجة سيبويه اجرائياً للقراءات القرآنية بترجيحه فيما بينها بإفصاح لا إلماح ـ يومئ به ـ

إنّ دراسة هذا شأنها تكاد تكون غُفلاً نحاول العناية بها بتلمس ملامحها عبر الكتاب في ترسيمه أصول العربية وتأصيل منهج سيبويه التقعيدي من خلالها تأكيداً لما هو متعارف عليه في تعامله مع القراءات أنّها «سُنّة لا تخالف»،

---

(١) البحر المحيط ١/ ١١.

واستدراكاً على أفكار قرّت في دائرة ضيقة لا تتجاوز ما ذُكِر من مفردات أنّ أبا بشر لم يُرجّح قراءة على أخرى بزعم من بعض المحدثين.

ومن هنا اقتضى سبر غور ترجيح القراءات في كتاب سيبويه أنْ يكون أفق التطبيق مُودَعاً في مبحثين يتقدّمهما تمهيد يُستجلَى منه استكناه الترجيح واعلاماً بالأشواط التي قطعها سيبويه في ميدان القراءات القرآنية طرحاً في ظلّ نظرات ثاقبة عمّا وراء النصوص من تحليل يبرز لنا:

ـ المبحث الأول: الذي يعرض لدوالّ الترجيح بالتركيز على علاقة اختيار الدال بالتوجيه السيبويهي.

ـ والمبحث الآخر: في جهات الترجيح بوصفها عناصر لانتاجه فعُقد لتبرز عبره مرتكزات تكشف النقاب عن الترجيح السيبويهي للقراءة في المحيط اللغوي المتداول، وعلى هدْي ما تطلبه هذه الرؤى توسّعت دائرة التحليل لعرض نتائج تُضاف إلى تفسيرات سيبويه العميقة.

إنّ الاستحقاق الوحيد الذي ادعيه هو أنْ تكون هذه الاعتبارات صادقة في هذه القضية التي لا تكاد العين تُخطئ ملاحظتها في الكتاب.

مهاد البحث:

يمكننا في البدء الاهتداء إلى نتيجة عبر عدم إغفال حقيقة أنّ قيام العقلية العربية على النص الديني جعلها لا تقبل ممارسة أيّ نشاط ذهني إلّا من أصل منصوص عليه، ومن هنا فإنّ عمل النحوي لا ينفك عن حمولات من الثوابت المعرفية لعلّ أهمّها بناء استدلالاته بداية من النص الديني بما يُمهّد السبيل أمامه ليمتح منه كلّ آلياته الإجرائية بوصفه مفسّراً له أو مستثمراً مكوناته في البحث. ومما لا جدال فيه أنّ النص القرآني حمل من السمات القدسية ما جعله «عند علماء العربية والبيان لبّ الكلام ومركز اللغة الأصيلة وإليه مفزع النحاة واللغويين في بناء قواعدهم، فثبت لديهم أنّه لا يمكن معارضته أو ردّ آية من آياته بدعوى مخالفتها لقياس أو قاعدة أو اجتهاد، بل اعتُبر الممثل الأسمى للأسلوب الفصيح وما قام النحو في جوهره إلّا للحفاظ على طهارته اللغوية من كلّ تحريف أو لحن»[1]. وقد أعار سيبويه عناية كبيرة للقرآن الكريم وقراءاته في تحليل التراكيب والكلام لما في القرآن من دلائل سامقة على أنّه أوثق نص وصل وانتسج فيه أعلى أساليب الكلام العربي الرفيعة وأكثرها فصاحة وبلاغة فضلاً عن أنّه صورة منعكسة للعربية الأصيلة المُشكِّلة للجذور السليقية .

ونومئ إلى أمرين متلازمين ـ فيما سيتمّ عرضه ـ في فكر الكتاب:

ـ أولهما : نأي صاحب الكتاب عن خلط النص القرآني بالقراءات سواء أكانت متواترة أم شاذة «فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفيتها من

---

(١) الأسس المعرفية ص٢٣٤.

تخفيف وتثقيل وغيرهما»(١) وعلى هذا الأساس يمكن وضع الحدود التمايزية استناداً إلى اصطلاح علماء القراءة للقراءات أنّها «علم يُعرف منه اتفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والإعراب والحذف والإثبات والتحريك والإسكان والفصل والاتصال وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال من حيث السماع أو هي أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً إلى ناقله» (٢). ما ينبني عليه أساس استند إليه سيبويه في معالجاته اللسانية وهو أنّ اختلاف القراءات راجع إلى اختلاف الألسنة بما يُنبِئ عن حكمة العربية فيما يجيش في صدور قبائلها فتنطق به ألسنتها وهو ما يُحيلنا إلى:

ـ ثانيها : فلم تكن شخصية سيبويه شخصية الواصف الذي يستنطق بعض جوانب المادة اللغوية ويحلّلها ويستنبط الأحكام النحوية منها بل كانت شخصيته شخصية المُنظِّر حينما أسّس مقارباته اللغوية عبر تحديد وجوهها المنطقية والدلالية الخاضعة لتصرف لسان المتكلم العربي فتدقيق النظر في ميدان تعامل شيخ النحاة مع القراءات يقود إلى أنّ طروحاته في التطبيق إنّما جاءت لتدعيم النظرية النحوية التي استنبطها من كلام العرب، فهو لم يأخذ قواعد العربية من الآيات القرآنية التي يستشهد بها فاعتقاد سيبويه المطلق أنّ عمله التنظيري كان موجهاً إلى الاستعمال العربي بمادته المتداولة هو إطار قاده إلى النأي عن تقعيد أشكال مفترضة ظناً أو تخميناً(٣). فـ «إنْ عرضت في الكلام مسألة يجوز فيها أكثر

(١) البرهان في علوم القرآن١ /٣١٨.

(٢) لطائف الإشارات١ /١٧٠ . وينظر المدخل لعلم القراءات ص٧.

(٣) يقول سيبويه : (فهذا اقوى من أن أحدث شيئاً لم تكلم به العرب) ينظر الكتاب ٣/ ٣٧٩.

من وجه استشهد لكلّ منها بما ورد في القرآن»[1]. وانطلاقاً من ذلك **يُتوصّل إلى ما يكشف عن قوله: «أنّ القراءة لا تُخالَف؛ لأنّ القراءة السّنة»**[2].

فلقد أدرك أبو بشر حقيقة حاول إفهامها متلقيه أنّ كلام الله إنّما نزل بلسان العربي لم يخرج عنه مفاد ذلك يُثبته قوله في: « **هذا بابٌ من النكرة يَجرى مجرى ما فيه الألفُ واللام من المصادر والأسماء** »[3] حينما رصد أنّ اخضاع معنى (ويل) للدعاء فيه قبح مستخلصاً ذلك من الماجريات التركيبية عند العرب فيقول : **«وأمّا قوله تعالى جدُّه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[4] و﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[5] فإنّه لا ينبغى أن تقول: إنّه دعاءٌ ههنا لأنّ الكلام بذلك قبيح واللفظ به قبيحٌ ولكنّ العبادَ إنّما كُلِّموا بكلامهم وجاء القرآنُ على لغتهم وعلى ما يَعنون فكأنّه واللهُ أعلمُ قيل لهم: وَيلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ووَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ أي هؤلاءِ ممن وجب هذا القولُ لهم لأنَّ هذا الكلامَ إنّما يقال لصاحب الشّر والهلكةِ فقيل هؤلاء ممن دخل فى الشرّ والهلكة ووجَبَ لهم هذا»**[6].

إنّ ارتكانه إلى ذلك تتناسل عبره حقيقة أنّه «لم يُعب قارئاً ولم يُخطئ قراءة بل كان يذكرها ليُبيّن وجهاً من العربية وليقوي ما ورد عن العرب وإنْ كانت من القراءات المفردة لا يُخطئها ولا يخطئ القارئ بها إنّما يحاول تخريجها على أحدى لغات العرب؛ لأنّه يرى اللغات الواردة عن العرب فصيحة صحيحة وإنْ قلّ مَن

---

(١) دراسات في كتاب سيبويه ص١٨ ، والقراءات في كتاب سيبويه ص٤٠.

(٢) الكتاب ١/١٤٨.

(٣) الكتاب ١/٣٣٠.

(٤) الآيات٤٩,٤٧,٤٥,٤٠,٣٧,٣٤,٢٨,٢٤,١٩,١٥ من سورة المرسلات.

(٥) المطففين/١.

(٦) الكتاب ١/٣٣١.

يتكلم بها ولا يرى المتكلم بها مخطئاً»[1] انضوت تحت هذه المعالجة التطبيقية حقيقة أنّ سيبويه لم يرجح قراءة على أخرى بحسب النظر السطحي إلى نصوصه إلّا أنّ قيمة خلافية لذلك تنكشف لنا من التمعّن والتدبر في نصوصه وتحليلاته مما يتكفّل بإثبات ترجيحه لقراءة من دون أخرى إنّ استيحاء هذه الحقيقة في ظلّ هذا الجانب يمكن استكناهه من قوله: «**وزعموا أنّ بعضَهم قرأ**[2] ﴿**وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾[3] **وهي قليلة**»[4].

وقوله: «وزعموا أن أبا عمرو قرأ يا صالحيتنا جعل الهمزة ياءً ثم لم يقلبها واواً ولم يقولوا هذا في الحرف الذي ليس منفصلاً وهذه لغة ضعيفة لأنّ قياس هذا أنْ تقول: يا غلا موجل»[5].

وربما حاولت الدكتورة خديجة الحديثي تحوير عبارة (الضعف والقلة) في هذين النصين إلى أنّهما «عنده ليسا في القراءة نفسها إنّما في اللغة التي قرأ بها القارئ»[6] إلّا أنّ هذا التحوير الخارجي لعبارتي سيبويه (الضعف والقلة) قد وُجِد مصحوباً بتحوير داخلي في نصوصها ما جعلنا نلتمس عبر هذه النصوص ملامح الترجيح التي حاول أبو بشر من خلالها ترسيم أصول العربية وتأصيل منهجه التقعيدي تأكيداً لما هو متعارف عليه تداولاً إذ تقول: «وقد يُرجّح في بعض الأحيان بين القراءتين ويصف إحداهما بأنّها أجود من الأخرى ، وإنْ

(١) الشاهد وأصول النحوص٥١ والقراءات في كتاب سيبويه ص٣٦.

(٢) سيفصّل البحث هذه القراءة في قابله وينظر٤/ ١٥٥.

(٣) سورة ص/ ٣.

(٤) الكتاب ١/ ٥٨.

(٥) الكتاب٤/ ٣٣٨.

(٦) الشاهد واصول النحوص٥٤.

كانت الأخرى عربية كما في قوله: «ومثلُ ذلك قولُه جلّ ثناؤه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾[1].

وإنما حَسُنَ أن يُبْنَى الفعلُ على الاسم حيث كان مُعْمَلاً في المُضْمَرِ وشَغَلْتَه به ولولا ذلك لم يحسُنْ؛ لأنّك لم تَشغَلْه بشيء ... وقد قرأ بعضُهم (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ... فالنصب عربيٌّ كثيرٌ والرفْعُ أَجود)[2]»[3].

وقولها: «فهو لم يُخطِّئ قراءة ولم يُلحّن قارئاً ولم يُرجّح قارئا من القراء على غيره، بل كان يؤيد القراءة أو يؤولها أو يرجحها من غير أنْ يعتمد شخصية القارئ في ذلك؛ لأنّ اهتمامه كان موجّهاً إلى ما يرد في القراءة من ألفاظ وعبارات وإلى صحتها أو مخالفتها للمشهور وافقت كلام العرب أم خالفته»[4] فهو لا يُرجّح قارئاً على قارئ إلّا أنّ مصفوفة دوال النص أعلاه يدلّ على استقراء مدلول لوجود ترجيح قراءة على أخرى تتضح دلالة ذلك بالتفريع إلى خطوات اجرائية في هذه الورقة البحثية مُقنَّنة بنصوص سيبويه نلجها بالمبحث الأول.

---

(١) فصلت/١٧.

(٢) الكتاب ١/٨١ ـ ٨٢.

(٣) الشاهد وأصول النحوص٥٧.

(٤) الشاهد وأصول النحوص٥٩.

المبحث الأول
دوالّ الترجيح

تقتضي طبيعة هذا المبحث جمع المادة العلمية بالوقوف عند معطيات الدوال الرافدة لمنحى الترجيح وقد برزت من خلال ذلك طائفة ألفاظ استُشف عبرها ملامح الترجيح في دراسة نصوص الكتاب، وإنْ لم تصل حدّ الاستقراء الشمولي منها:

١ـ الترجيح بدالّ (أجود).

لهذا المقياس قيمة كبيرة في السمو بالتركيب اللغوي يقول أبو نصر الشيرازي: «إنّا لا ندّعي أنّ كلّ ما في القراءات على أرفع درجات من الفصاحة»[١] ما نستدلّ به على أنّ في القراءات تدرجاً في طاقة الفصاحة من حيث إنّ الاستعمالات اللسانية عند سيبويه درجات في الفصاحة ومن هنا فقد تكون شحنة الرفع أقوى داخل كيان القراءة على نحو قراءة قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ ﴾[٢] على الرغم من بروز النصب قبلها في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾[٣] إذ يرتكح حكم الرفع عند أبي بشر بتعليل أنّ **«أَمّا وإذا يُقطَعُ بهما الكلامُ وهما من حروف الابتداء يَصرفانِ الكلامَ إلى الابتداء إلاّ أن يَدْخُلَ عليهما ما يَنْصِب ولا يُحْمَلُ بواحدٍ منهما آخِرٌ على أوّلَ كما يُحْمَل بثُمَّ والفاءِ ألا ترى أنهم قرءُوا ﴿ وَأَمَّا**

(١) منجد المقرئين ص٢٤٣.

(٢) فصلت/١٧.

(٣) فصلت/١٦.

ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ ﴾ وقبله نصبٌ وذلك لأنها تَصرِفُ الكلامَ إلى الابتداءِ إلاّ أن يُوقَع بعدَها فعلٌ نحو أمّا زيداً فضربتُ»[1] ففي ظلّ إعادة بناء مقتضيات الرفع يُحكم على (أمّا) أنّها حرف إبتداء فكانت مناسبة الرفع للإبتداء معيار التفضيل عنده بأنّه الأجود حيث يقول: «وإنما حَسُنَ أن يُبْنَى الفعلُ على الاسم حيث كان مُعْمَلاً في المُضْمَرِ وشَغَلْتَه به ولولا ذلك لم يَحسُنْ لأنّك لم تَشغَلْه بشيء... وقد قرأ بعضُهم ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ ﴾... فالنصب عربي كثيرٌ والرفْعُ أَجودُ»[2] وتتكفل كفاية السيرافي اللغوية رفد حكم الرفع بإيلائه عناية الجمهور قراءةً[3]. قائلاً: «لأنّك إذا رفعت لم تحتج إلى إضمار شيء، وإذا نصبت أضمرت فعلاً وأنت لو أردت إعمال الفعل في الاسم كان يمكنك أنْ تحذف الضمير الذي في الفعل ويصل إلى الاسم ولم يكن يحتاج إلى التأول البعيد»[4] إنّ الانحراف عن النصب ـ على الرغم من قول سيبويه أنّه عربي كثير ـ إلى الرفع ينطلق من معنى الشرط في (أمّا) فالشرط يقتضي الفعل وهو أولى به[5]ما حظي به النصب بـ (القياس)[6] وتلك حظوة متأتية من أنّ (أمّا) تنوب عن فعل فكأنّها هو ولذا لا يليها الفعل[7] فالسلوك اللغوي فيها سيُوجّه بتحديد عناصره بتقدير: «أمّا ثمودَ فهدينا

---

(١) الكتاب ١/ ٩٥.

(٢) الكتاب١/ ٨١ ـ٨٢.

(٣) قراءة الرفع للجمهور ينظر البحر المحيط ٧/ ٤٩١ واتحاف فضلاء البشر ص٣٨١.

(٤) شرح كتاب سيبويه١/ ٣٢٦.

(٥) ينظر البيان ٢/ ٣٣٨ وشرح المفصل٢/ ٣٤.

(٦) البيان ٢/ ٣٨.

(٧) ينظر مغني اللبيب ٨٢ ـ ٨٣ والقراءات في كتاب سيبويه ص١٨٥.

هديناهم»[1] تبيان ذلك للمتمعن في الكتاب يتمّ عبر ثنائية تقديرية يتحكّم فيها الفعل فيُحلل أبو بشر نسيج التركيب اللغوي في قراءة النصب في الآية من خلال حيز يشمل قول (زيداً ضربته). فاستدلاله بالآية على توجيه النصب فيه ما يدلّ على أنّه يوجّهها عليه إذ يقول : « **وإنما حَسُنَ أن يُبْنَى الفعلُ على الاسم حيث كان مُعْمَلاً في المُضْمَرِ وشَغَلْتَه به ولولا ذلك لم يحسُنْ لأنّك لم تَشغَلْه بشيء وإن شئت قلت زيداً ضربتُه وإنّما نصبهُ على إضمار فعلٍ هذا يفّسره كأنّك قلتَ ضربتُ زيداً ضربتُه إلاّ أنهم لا يُظهِرون هذا الفعلَ هنا للاستغناءِ بتفسيره فالاسمُ ها هنا مبنٌّى على هذا المضمَر**»[2] ويُدرج قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ ﴾ بالنصب بوصفها آصرة ترابطية من جهة الوحدات المشاركة في الدليل النظمي قائلاً: «**وقد قرأ بعضهم ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ ﴾ إلاّ أنّ القراءة لا تُخالَفُ لأنّ القراءة السُّنَّةُ**»[3] وتحت سيطرة الإبتداء يكون الرفع عند أبي بشر أفصح من النصب فيمضي في تنوّع وظائف الأدلة لاستلزام هذا الترجيح فيُحدِّد الميل تجاه الرفع بقول بشر ابن أبي خازم:

فأمّا تميمٌ تميمُ بنُ مُرٍّ ... فألفاهُم القومُ رَوْبَى نِيامَا[4]

إذ تتشخص القيمة الخلافية بين الرفع والنصب بتوظيف الإبتداء في (أمّا) لأنّها لا تعمل في الاسم الواقع بعدها شيئاً فكأنّها لم تُذكر قبله ويمكن بلورة النتيجة عبر تواتر العلاقات التركيبية في سياق الآية أنّ فصاحة الرفع تحدّدت

---

(١) شرح كتاب سيبويه ١/٢٤٨.

(٢) الكتاب ١/٨١.

(٣) الكتاب ١/١٤٨.

(٤) ينظر الكتاب ١/٨٢ وديوان بشر ص١٩٠ وأمالي ابن الشجري ٢/٣٤٨ واللسان (روب).

قيمتها عبر(أمّا) التي لا يليها الّا الاسماء[1] بوصفها حرف ابتداء وهي قيمة لا يمكن الوقوف عليها إلّا على صعيد النظام بل لا يمكن تصورها خارجه.

٢ـ الترجيح بدالّ (القوة).

القوة طاقة من طاقات الحَبل والجميع القُوى وفي الحديث «يذهب الدين سُنّة سُنّة كما يذهب الحبل قوة ً قوةً»[2].

وفي لسان العرب: «أقوى الشيء اختصّه لنفسه... وأقوى إذا استغنى»[3] ومن هنا فالمدلول اللغوي لا ينفصم عن مصاحبة ترجيح يُفضي إلى تشكيل هيكله نص سيبويه إذ يقول: «وقد قرأَ أناسٌ (والسَّارقَ والسَّارقةَ)[4] و(الزانيَةَ والزانِيَ)[5]. **وهو في العربيّة على ما ذكرت لك من القوّة . ولكن أَبَتِ العامَّةُ إلاّ القراءةَ بالرفع وإنّما كان الوجهُ في الأمر والنَّهى النصبَ لأنّ حدَّ الكلام تقديمُ الفعل وهو فيه أوجبُ إذ كان ذلك يكون في ألف الاستفهام لأنّهما لا يكونان إلا بفعل**»[6].

يرصد أبو بشر في هذا الباب رفع الاسم ونصبه إذا أعقبه أمر أو نهي مقرون بالفاء أو متجرد عنها فيُورِد قراءتين :

ـ الأولى: بالرفع[7] «الزانيةُ والزاني».

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤والكشاف٣/ ٤٤٩.

(٢) العين مادة قوا (قوى) ٣/ ٤٤٥.

(٣) لسان العرب٤٢/ ٣٧٨٩.

(٤) سورة المائدة/٣٨. ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾.

(٥) سورة النور/ ٢.﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾.

(٦) الكتاب١/ ١٤٤ .والقراءة لعيسى بن عمر ويحيى بن يعمر ينظر الكتاب ٣/ ٤٧٦.

(٧) الكتاب١/ ١٤٢.

ـ والأخرى: بالنصب[1] «الزانيةَ والزاني».

وكذلك «السارقُ والسارقةُ» و«السارقَ والسارقَةَ».

إذ تتشكّل الجزئيات التكوينية للأمر والنهي بالفعل ويقرن سيبويه ههنا بينهما وبين الاستفهام فيقول: إنّ حروف الاستفهام بالفعل أولى[2] بل هما أقوى في هذا من الاستفهام؛ لأنّ الاستفهام قد تلحقه الاسماء أمّا الأمر والنهي فلا يكونان إلّا بالفعل[3] ويبدأ أبو بشر بتصنيف المعطى اللغوي الداخل في تشكيل القراءتين مُحدِّداً القيم الخلافية بين الرفع والنصب قائلاً: «**وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ فإنّ هذا لم يُبْنَ على الفعل ولكنه جاء على مثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ثمّ قال بَعْدُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ ﴾ فيها كذا وكذا. فإنما وُضِعَ المَثَلُ للحديث الذى بعده فذكر أخباراً وأحاديثَ فكأنه قال ومن القَصَص مَثَلُ الجنّة أو مما يُقَصُّ عليكم مَثَلُ الجنّة فهو محمول على هذا الإِضمارِ ونحوِه والله تعالى أعلم وكذلك « الزانية والزاني كأنّه لمّا قال جلّ ثناؤُه : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾. قال : في الفرائض الزَّانِيَةُ والزَّانِى أو الزانيةُ والزانِى في الفرائض ثم قال: فاجْلِدُوا فجاءَ بالفعل بعد أن مَضَى فيهما الرفعُ كما قال:**

وقائِلِة خَوْلانُ فانْكِحْ فتاتَهم

فجاء بالفعل بعد أنْ عَمِل فيه المضمَرُ وكذلك «والسارق والسارقة» كأنه قال و فيما فرضَ اللهُ عليكم السارقُ والسارقةُ أو السَّارق والسارقة فيما فرض عليكم

---

(١) الكتاب١ /١٤٤.

(٢) الكتاب١ /١٤٤.

(٣) الكتاب١ /٩٨.

فإنّما دخلت هذه الأسماءُ بعد قصَص وأحاديثَ ... وقد قرأ أناسٌ «والسَّارقَ والسَّارقةَ» و« الزانيَة والزانِيَ» وهو في العربيّة على ما ذكرت لك من القوَّة ولكن أَبَتِ العامَّةُ إلاّ القراءةَ بالرفع»[1]. فالأمر والنهي بالفعل وينهض النصب بإضمار فعل اختياراً لسيبويه إذ لا يجوز عنده أنْ يكون (فاقطعوا) خبر المبتدأ[2]؛ لأنّ خبر المبتدأ لا يدخل عليه الفاء. وقد يرتضي المتلقي بتوهين قراءة النصب لاشتمال نص سيبويه على قول: (ولكن أَبَتِ العامَّةُ إلاّ القراءةَ بالرفع) إلّا أنّ أبا بشر يوفر لترجيح النصب على الرفع بنية قولية تجسّد فيها الترجيح هي الاستدراك بـ (لكن) والحصر بـ (إنّما) والتعليل بأنّ النصب ههنا وجه الكلام وحدّه والقول بـ (أوجب) ويعدّ ذلك لفتة ذكية منه بوضعه تقويماً للنمط أنّه وجه الكلام وحده وبناءً على أثر ذلك يتمّ انتقاء فعلين من الرصيد المعجمي هما (فاجلدوا) و(اقطعوا) بتقدير (اجلدوا الزانية والزاني) و(اقطعوا السارق والسارقة)[3] فتدوم بذلك موافقة الأصول اللغوية .

يقول ابن جني «ولا موضع لقوله تعالى: فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ؛ لأنّه تفسير»[4].

٣ـ الترجيح بدالّ (سألت).

إنّ الإطار الدلالي للخطاب الاستفهامي هو إرادة المتكلم «من المخاطب أمراً

(١) الكتاب١/١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) الكتاب١/٩٨.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء٢/٢٤٤. وإعراب القرآن للنحاس١/٤٩٦. والمحتسب في شواذ القراءات٢/١٠٠ والكشاف٣/٤٧ ، والتبيان٢/٩٦٣ ، والقراءات في كتاب سيبويه ص٢٣٢.

(٤) المحتسب في شواذ القراءات ٢/١٠٠.

لم يستقرّ عند السائل»[1] ويستمد الخطاب الاستفهامي بـ (سألت) عند ابي بشر مضامينه من معين الإخبار فيرفد السؤال بالجواب بما يكفل تفسير الهيكل التركيبي للعلاقة الأفقية في السلسلة الكلامية بما يتقرّر معه اقتضاء الوظيفة الإدراكية. ونعزو هذا التقنين إلى نصه: «**وسألت الخليل رحمه الله عن قولهم: اضربْ أيُّهم أفضل. فقال : القياس النصب كما تقول: اضرب الذي أفضل؛ لأنّ أيّا في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة الذي كما أنّ من في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة الذي. وحدثنا هارون أنّ ناسا وهم الكوفيون يقرءونها ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيَّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [2] وهي لغة جيدة نصبوها كما جروها حين قالوا: امرر على أيّهم أفضل فأجراها هؤلاء مجرى الذي إذا قلت: اضرب الذي أفضل؛ لأنك تنزل أيّا ومن منزلة الذي في غير الجزاء والاستفهام**»[3] فقد ماز قراءة النصب ـ بأنّها جيدة ـ على قراءة الرفع التي تُستَوحى من سؤاله عن (اضربْ ايُّهم أفضل)حينما جعل (أيّهم) مرفوعة لا منصوبة ما نجم عنه ترابط عضوي بين النصب والجودة حينما قال: «وهي لغة جيدة» فالنصب مقياس الجودة بإيماءة منه عبر قراءة الكوفيين.

وعبر السؤال قد يتوسع المؤشر الدلالي بانفتاح مجال العلاقة التركيبية باشتماله على قضيتين، وهو ما تمحورت حوله قراءة قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[4] فالعامل

---

(١) الكتاب١ /٩٩.

(٢) سورة مريم/٦٩.

(٣) الكتاب٢ /٣٩٨ـ ٣٩٩.

(٤) سورة الشورى/٥١.

الأساس في قراءة النصب هو (أو) إذ يشير سيبويه إلى أنّ في هذا المكوّن إضماراً لـ (أنْ) حيث يقول: «وسألت الخليل عن قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾. فزعم أن النصب محمول على أن سوى هذه التي قبلها ولو كانت هذه الكلمة على أن هذه لم يكن للكلام وجهٌ ولكنّه لمّا قال: إلّا وحيا أو من وراء حجاب كان في معنى إلّا أنْ يوحي وكان أو يرسل فعلاً لا يجري على إلّا فأجري على أنّ هذه كأنّه قال: إلّا أنْ يوحي أو يرسل لأنّه لو قال: إلّا وحياً وإلّا أنْ يرسل كان حسناً وكان أنْ يرسل بمنزلة الإرسال فحملوه على أنْ إذ لم يجز أنْ يقولوا أو إلّا يرسل فكأنّه قال: إلّا وحياً أو أنْ يرسل»[1] وفي ضوء هذه الرؤية التحليلية المعززة بالكشف التركيبي تغدو هذه القراءة حسنة بترجيح قضية النصب على الرفع فيجعل وسيط الترجيح ـ بعد السؤال ـ قوله «كان حسناً» فـ« لا يجوز أنْ يعطف أو يرسل» على أنْ «يكلّمه الله» لفساد المعنى»[2] وهذه القراءة للجمهور[3]وقرأها أهل صقع المدينة بالرفع بإضمار (هو يرسل) إذ يقول : «وبلغنا أنّ أهل المدينة يرفعون هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ فكأنه والله أعلم قال الله عز وجل: لا يكلّم الله البشر إلّا وحياً أو يرسل رسولاً. أي في هذه الحال وهذا كلامه إيّاهم كما تقول العرب: تحيتك الضرب وعتابك السيف وكلامك القتل»[4] مفسِّراً الرفع بقوله: «وعلى هذا

(١) الكتاب ٣/٤٩.

(٢) البحرالمحيط٧/٥٠٤.

(٣) البحرالمحيط٧/٥٠٤.

(٤) الكتاب ٣/٥٠.

الوجه فسّر الرفع في الآية كأنّه قال أو هو يرسل رسولاً»[1] وعبر الدلالات الإضافية التي يتكفلها سياق السؤال قد تتمخض شخصية سيبويه المستقلة في موقفه الحواري مع أستاذه فيستدعي ردّا يُسترشد من خلاله تثبيت حكم بالجودة فيما أورده: «وسألت الخليل عن قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[2] فقال: إنّما هو على حذف اللام كأنّه قال: ولأنّ هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون وقال ونظيرها ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾[3] لأنه إنّما هو لذلك فليعبدوا فإنْ حذفت اللام من أنْ فهو نصبٌ كما أنّك لو حذفت اللام من لإيلاف كان نصباً هذا قول الخليل ولو قرءوها (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) كان جيداً وقد قرئ »[4].

إلّا أنّه ردّ يجري في إطار المخالفة للأستاذ التماس ذلك لا يتطلب إلّا الرؤية إلى رصف العناصر النظمية في نصه «ولو قرءوها (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) كان جيداً».

إذ يُرجح أبو بشر كسر همزة (أنّ) على فتحها ويستمدّ من ممارسات قرائية أخرى تطبيقاً يكفل له برهاناً لما ذهب إليه مورِداً قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ

---

(١) الكتاب ٣/٥١.

(٢) سورة المؤمنون/٥٢.

(٣) سورة قريش/١.

(٤) الكتاب ٣/١٢٦ ـ ١٢٧، ومثل هذا المورد ينظر الكتاب ٣/١٢٣.

(٥) سورة الجن/ ١٨.

مُّبِينٌ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [2] مشيراً إلى أنّ هذه الشواهد **«بمنزلة وإن هذه أمتكم أمة واحدة»**[3] ويُكسب رأيه عودةً في مخالفة الأستاذ بقوله: **«ولو قرئت وإن المساجد لله كان حسنا»**[4] فثمّة حدّ دلالي فاصل بين مورفيمي (إنّ) و(أنّ) بتخصيص المكسور الهمزة بمواضع الإبتداء والاستئناف أمّا المفتوح الهمزة فلا تكتمل بنيته الدلالية إلّا بوروده بعد فصائل تركيبية تؤدي وظائف سياقية مختلفة تنعكس آثارها النظمية على (أنّ) من جهة النسيج التركيبي والدلالي وقد كشف لنا أبو بشر عبر فضاء النصوص القرآنية عن المفارقة الدلالية باستبدال (إنّ) بـ (أنّ) في إطار تحليله هذه الرؤية التبادلية.

٤ـ الترجيح بدالّ (الترك).

يورد أبو بشر في ميدان النسق التأويلي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ﴾ [5] متحدّثاً فيه عن الاسمين المعرفتين الواقعين معمولين لـ (كان) ويرتضي بحرية الخيار قائلاً: **«وإذا كانا معرفةً فأنت بالخيار أيُّهما ما جعلتَه فاعلا رفعتَه ونصبتَ الآخَر كما فعلتَ ذلك في ضربَ وذلك قولك: كان أخوك زيداً وكان**

---

(١) سورة هود/ ٢٥.

(٢) سورة القمر/١٠.

(٣) الكتاب ١٢٧/٣.

(٤) الكتاب١٢٧/٣ويشير المحقق في الهامش أنّه في(ط) وردت العبارة (جيداً) لا(حسنا) وهو ما يتساوق مع ما قدمنا له من ربط الحكم بمعيار الجودة وإنْ كان لفظ الحسن دالاً أيضاً على الترجيح إنْ لم يكن أقوى بدليل استثمار أبي بشر له في باب الاستقامة من الكلام والإحالة حينما وصف الكلام المستقيم أنّه حسن ينظر ٢٥/١.

(٥) من سورة الأنعام /٢٣.

زيدٌ صاحبَك وكان هذا زيداً وكان المتكِلمُ أخاك» [1] فاسم كان وخبرها فيه لشيء واحد ومعيار التأويل عنده متأت من (أنّ) وما دخلت عليه فتماسكها مع مدخولها كوّن مصدراً مؤولاً بنصب (فتنتهم) يكون اسماً لـ (كان) بتقدير هو (قولهم) وبإفادة النحاة استجازة أنْ يُعامل المصدر معاملة الضمير من جهة أنّ المصدر المُعرّف لا يوصف وكذلك الضمير[2] أفادنا أبو بشر بالنأي عن التضييق إلى الاختيار في استجازة جَعْل المصدر اسماً لـ(كان) وما دونه في التعريف خبرها[3] وهو ما تبسط القول فيه قراءة النصب في (فتنتهم) إذ فيها عن الأرفع بما هو دونه في التعريف ما يقتضي معه ملائمة ترك التاء في الفعل (تكن) .

والمعالجة التحليلية السيبويهية لهذه المسألة يجلوها قوله: «ومثلُ قولهم: ما جاءتْ حاجتَك .إذ صارتْ تقَع على مؤنَّث قراءةُ بعض القرّاء (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا) و﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [4] وربَّما قالوا في بعض الكلام: ذهبتْ بعضُ أصابِعه وإنَّما أنّث البعضَ لأنّه أضافه إلى مؤنّثٍ هو منه ولو لم يكن منه لم يُؤنِّثْه؛ لأنه لو قال: ذهبتْ عبدُ أمَّك لم يَحْسُنْ»[5] فاستدلال سيبويه بـ «تلتقطه بعض السيارة » بالتاء في (تلتقطه) ليس له تعلق بـ (كان) ومعموليها المعرفتين بل أورده لوقوع التأنيث دليل ذلك أيضاً قوله «ما جاءت حاجتك» بوقوع التأنيث في ضمير (ما). ويوضّح السيرافي كلام أبي بشر قائلاً: «وقوله: «تلتقطه بعض

---

(١) الكتاب١ /٤٩ ـ ٥٠.

(٢) اعراب القرآن للزجاج ١ /٢٨١، والكشف عن وجوه القراءات وحججها ١ /٤٢٦ وهمع الهوامع٢ /٩٤.

(٣) ينظر إعراب القرآن للزجاج١ /٢٨١.

(٤) من سورة يوسف/١٠.

(٥) الكتاب١ /٥١.

السيارة» ليس من باب كان ولكنّه شاهد على أنّ الشيء المذكر قد يُؤنث إذا كان المذكر بعضاً لذلك وبعض السيارة سيارة، فأنّث لهذا كما تقول: تلتقطه السيارة»[١] وقد لا يتغيّر نمط القول عند أبي بشر مؤكِّداً عبارته السالفة «فأنت بالخيار» بإضافة «إنْ شئت» في قوله : «وإن شئت رفعتَ الأوّل كما تقول: ما ضرب أخوك إلا زيداً . وقد قرأ بعض القرّاء ما ذكرنا بالرفع»[٢] فينتقل عبر هذا الإجراء – بترك التاء – إلى فسحة التطبيق بإيراد نموذج قرآني آخر هو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾[٣] إلّا أنّ فيه استحقاقين :

الأول: أنْ تحمل (حجتهم) موقعاً إعرابياً آخر على أنّها اسم (كان) [٤] لا خبر لها فتكون أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب على أنّه خبرها بتقدير (قولَهم) .

والآخر: استدعاء التاء في الفعل (تكن) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾.

فمن أجل ذلك أورد أبو بشر هذه المقايسة بين الآيتين يُدرك عبر هذه الإجرائية أنّ مبدأ الاختيار بين الرفع والنصب في (حجة)و(فتنة) بقوله: **«وتركُ التاء في جميع هذا الحدُّ والوجهُ وسترى ما إثباتُ التاء فيه حسنٌ إن شاء الله من**

---

(١) شرح أبيات سيبويه١ /٥٣.

(٢) الكتاب١ /٥٠.

(٣) من سورة الأعراف/٨٢.

(٤) ضعّف ابن هشام وجه الرفع في (حجتهم) فهو عنده كضعف الإخبار بالضمير عما دونه في التعريف ينظر مغني اللبيب ص٥٩٠.

هذا النحو لكثرته في كلامهم»(١).

فمن يدقق النظر يرى أنّه مال إلى ترك التاء في الفعل (تكن) واستيعاب هذا الميل(٢) كان على أثر دلالة (ترك) كما يتضح في هذه الترسيمة التأويلية:

ترك التاء	اثبات التاء
↓	↓
الاستدلال بقوله تعالى: «تلتقطه بعض السيارة»	الاستدلال بقوله تعالى: «ما كان حجتهم إلّا أن قالوا»
↓	↓
الأصل «يلتقطه بعض السيارة»	الأصل «تكن حجتُهم قولاً»
↓	↓
التأويل (القول بعض الفتنة)	التأويل (الحجة هي القول)
↓	↓
الحكم (النصب في فتنة وهو الحدّ والوجه)	الحكم (الرفع في حجة)
↓	↓
النتيجة (يكن قولهُم فتنةً) تذكير تذكير	النتيجة (تكن حجتُهم قولاً)
	↓
	بالقياس(تكن فتنتُهم قولاً) تأنيث تأنيث

---

(١) الكتاب ١/ ٥٣.

(٢) من الأمثلة المشابهة لما تمّ ذكره ينظر ما أورده أبو بشر في ٢/ ٣٤٨.

ولعمري أنّ مثل هذه الموازنات لا تقوم إلاّ على أرضية علمية رصينة اتكأت عليها تحليلاته التفضيلية الترجيحية.

٥ـ الترجيح بدالّ (لو قال).

قد يستعير ابو بشر مضموناً دلالياً لتجنب التفسيرات الاحتمالية متخذاً من بعض العبارات تصميماً نظمياً خاصاً لبيان القيمة الأصلية الدلالية لما يعرضه من نماذج قرآنية استدلالنا على تطبيق هذه الرؤى التحليلية تأتى عبر قوله: (لو قال) الذي أورده تعقيباً على قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾[١] إذ جُعِلت (أنّ) مفتوحة الهمزة «ولو قال فإنّ كانت عربية جيدة»[٢] فالميل إلى الكسر في همزتها فيه ترجيح بالجودة عنده على الصعيد الشكلي والدلالي لأنّ الفاء ههنا تقتضي الاستئناف والكسر مختار في همزة (إنّ) لأنّه لا يحتاج إلى اضمار بخلاف الفتح وهي وجهةٌ قوية في العربية[٣].

وفي ظلّ معالجة الخطاب الطلبي يقول: «وتقول: مره يحفرها وقل له يقل ذاك وقال الله عز وجل: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾[٤] ولو قلت: مره يحفرها على الابتداء كان جيداً»[٥].

لعلّ أبا بشر ههنا يعقد موائمة بين (لو) والجودة لما فيها من تعيين الخطوط الدلالية فتفكيك الدليل النظمي في الآية يقود إلى تقدير اقترانه بـ(أنْ) بتأويل «أنْ

---

(١) من سورة التوبة/٦٣.

(٢) الكتاب٣/١٣٣.

(٣) ينظر البحر المحيط٥/٦٦ والقراءة بفتح الهمزة للجمهور.

(٤) من سورة ابراهيم/٣١.

(٥) الكتاب٣/٩٩. ومثل هذا الموضع ينظر الكتاب ٣/٣٦ـ و٢/٦٣.

يقيموا الصلاة وأنْ ينفقوا مما رزقناهم» واكتساب هذا التأويل تجسّد عبر مشابهة الآية لقول (مُرْه يحفرها) إذ يُبرز لنا سيبويه هذه البنية التأويلية عبر قوله: **«وقد جاء رفعه على شيء هو قليلٌ في الكلام على مره أن يحفرها فإذا لم يذكروا أن جعلوا المعنى بمنزلته في عسينا نفعل وهو في الكلام قليلٌ لا يكادون يتكلمون به»**(١) فيكشف لنا عن قلة الاستعمال هذا في دائرة اللغة فالجودة عنده كانت للإبتداء باستجلاء غطى فضاءه مقايسة الآية على قوله: (مره يحفرُها) وبهذه المعالجة الدقيقة المنطوية على (لو) كشف أبو بشر عن كيفية تخطيط الدليل النظمي وإدراك الوظائف التمايزية له وتعيين مدى الاستعمال بحسب المقتضيات.

٦ـ الترجيح بدالّ (أكثر).

قد تستقرأ بعض المقاييس التركيبية لما سمعه سيبويه من العرب وتُحمل على توجيه بعض القراءات القرآنية كما في قوله : «وقال الخليل رحمه الله: من قال يا زيد والنضر فنصب فإنّما نصب ؛لأنّ هذا كان من المواضع التي يرد فيها الشيء إلى أصله فأمّا العرب فأكثر ما رأيناهم يقولون: يا زيد والنضر وقرأ الأعرج «(يا جبال أوبي معه والطيرُ) فرفع ويقولون: يا عمرو والحارث وقال الخليل رحمه الله: هو القياس كأنه قال ويا حارث»(٢) ويبدو من ذكر سيبويه لفظ (أكثر) ارتكان إلى تحليل هذه المسألة عبر الاستعمال بقوله: «فأمّا العرب فأكثر ما رأيناهم يقولون: يا زيد والنضر» وإيراده القراءة إنّما هي تصديق للوقوف على الماهية السطحية والتحتية لهذا التركيب إذ يردف الآية بأمثلة واقعية استعمالاً في ظلّ علاقة استدعائية اسهم الاستعمال فيها إذ يقول: «ولو حمل الحارث على يا كان

(١) الكتاب ٣/٩٩.

(٢) الكتاب ٢/١٨٧.

غير جائز البتة نصب أو رفع من قبل أنّك لا تنادى اسما فيه الألف واللام بيا ولكنّك أشركت بين النضر والأول في يا ولم تجعلها خاصة للنضر كقولك: ما مررت بزيد وعمرو. ولو أردت عملين لقلت: ما مررت بزيد ولا مررت بعمرو. وقال الخليل رحمه الله: ينبغي لمن قال: النضر فنصب لأنه لا يجوز يا النضر أنْ يقول: كل نعجة وسخلتها بدرهم. فينصب إذا أراد لغة من يجر؛ لأنّه محال أنْ يقول: كلّ سخلتها ،وإنّما جر؛ لأنّه أراد وكلّ سخلة لها ورفع ذلك لأنّ قوله والنضر بمنزلة قوله ونضرٌ»[1] ما لا يمكن معه اغفال انتباهة شيخ النحاة إلى أثر الاستعمال في التركيب وهذا التحليل ينأى عمّا ذكره أبو حيان من قول لسيبويه أورده في البحر المحيط على أنّ في التركيب إضماراً بتقدير «وسخّرنا له الطير» وهو رأي لم أره متجسِّداً ضمن نص في مدونة سيبويه.

٧ـ الترجيح بدالّ (أحسن).

قد يمتلك الدالّ (أحسن) قدرة استلابية لمضمون الترجيح المثبت على المستوى النحوي في ظلّ تحليل سيبويهي لتثبيت قاعدة أو استنباط حكم نحوي مثاله قوله في « باب ما يُختار فيه إعمالُ الفعل مما يكون في المبتدأ مبنياً عليه الفعلُ . وذلك قولك: رأيتُ زيدا وعمراً كلَّمتهُ، ورأيتُ عبد الله، وزيداً مررتُ به، ولقيتُ قيساً وبكراً أخذْتُ أباه. ولقيتُ خالداً وزيداً اشتريتُ له ثوباً. وإنَّما اختيرَ النصبُ ههنا؛ لأنّ الاسم الأوّلَ مبنيٌّ على الفعل فكان بناءُ الآخِرِ على الفعل أحسنَ عندهم إذ كان يُبْنَى على الفعل وليس قبله اسمٌ مبنيٌّ على الفعل لَيجريَ الآخِرُ على ما جَرَى عليه الذى يَليه قبله إذ كان لاَ ينقص المعنى لو بنيتَهَ على الفعل . وهذا أولى أن يُحمَلَ عليه ما قَرُبَ جِوارهُ منه إذ كانوا يقولون: ضربوني

(١) الكتاب ٢/ ١٨٧.

وضربتُ قومَك؛ لأنّه يليه فكان أنْ يكونَ الكلامُ على وجهٍ واحدٍ إذا كان لا يمتَنِعُ الآخرُ من أن يكونَ مبنياً على ما بُنى عليه الأولُ أقربَ في المأخَذ ومثلُ ذلك قوله عزَّ وجلَّ : ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١) وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾(٢) ومثلُه ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾(٣) وهذا في القرآن كثير»(٤) إذ يُعزِّز سيبويه تحليله لحسن القراءة بالنصب عبر المماثلة في نطاق معالجاته التطبيقية بإيراد عينات قرآنية أخرى بغية استثمارها في فضاء الإقناع وهي سمة من سمات اللغة السيبويهية في الكتاب التجأ إليها أبو بشر توكيدا لرؤاه التحليلية.

---

(١) من سورة الانسان/٣١.

(٢) من سورة الفرقان ٣٨- ٣٩.

(٣) من سورة الأعراف/٣٠.

(٤) الكتاب١/ ٨٩.

المبحث الثاني: جهات الترجيح.

مما لاشك فيه أنّ تقديم دوالّ الترجيح إنّما هو تجذّر يرتبط ببناء نسق في صلب الترجيح نفسه فهو إيذان أنّ طروحات صاحب الكتاب وتعليلاته الخصبة قد لا يستلزم الوقوف عند تلك الدوالّ فحسب بل يغدو المجال فسيحاً لانبعاث معالجات متصلة بنظريات قيّمة في الوقت الحاضر استوعبتها جهات مثّلتها بصورة دقيقة ما يلي:

اولاً: لغات العرب .

إنّ استدعاء وصف تام للنظام اللغوي العربي والكشف عن المنطق الذي يحكم مكوناته اللغوية لا بدّ من أنْ يرتكز على الاستعمال. وقد صرّح ابو بشر بذلك قائلاً : «فإنما تجريها كما أجرت العرب»[1] ومن ثمّة فقد احتاط سيبويه من كلّ تقعيد نحوي لا يحترم سنن العرب في تواصلهم ؛لأنّك إنّما تنطق بلغتهم وتحتذي في جميع ذلك أمثلتهم. بيد أنّ إجراء مقاربات على مستوى اللغات قد يمتنع ههنا عند أبي بشر فالكيفية الإجرائية التي يرد عليها الدليل النظمي في إطار الأصل أو القياس قد تكون في سيرورتها التركيبية النحوية أقوى، فتُرجّح على غيرها بوصفها فيصلاً مؤشر ذلك نجده في **«هذا باب ما أُجْرَى مَجْرَى لَيْسَ في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يَصيرُ إلى أصله . وذلك الحرفُ ما تقول: ما عبدُ الله أخاك وما زيدٌ منطلقاً. وأمّا بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل أي: لا يعملونها في شيء وهو القياس؛ لأنه ليس بفعل وليس ما كليس ولا يكون فيها إضمار وأما أهلُ الحجاز فيشبَهونها بلَيْسَ إذ كان معناها كمعناه»**[2] إذ يورد

---

(١) الكتاب ١ / ٣٣٠.

(٢) الكتاب ١ /٥٧.

سيبويه قراءة (ما هذا بشراً) بالنصب إلى أهل الحجاز وقراءة (ما هذا بشرٌ) بالرفع إلى بني تميم مستثنياً منهم (مَنْ دَرى كيف هي في المُصحَفِ) (١) والوقوف عند عبارته (يصير إلى أصله) وعبارة (وهو القياس) يُكتفى بهما استدلالاً على ميله إلى لغة تميم . فالعلة ههنا ذات قيمة تعبيرية خاصة وظّفها سيبويه تجاه ميله وترجيحه لغة تميم في إبطال عمل (ما) قائلاً: «لأنه ليس بفعل ...ولا يكون فيها إضمار»(٢) فأصلها الإلغاء من العمل أمّا أهل الحجاز فقد شبّهوها بـ(ليس) فرفعوا بها الاسم ونصبوا الخبر. وهذا يُحيل إلى المزايلة بين نظام الاستعمال اللغوي ونظام القواعد النحوية وإقرار تحقيق البعد الوصفي للقواعد النحوية بجريانها على سمت العرب شُحن ههنا بدلالات تعليلية جعلت نص سيبويه مكتسباً ميلاً إلى القراءة التميمية تتجلى هذه النتيجة عبر إفصاحه عن رفضه موازاة الحجازيين بين (ما) و(لات) وهي موازاة تتولى سبب الإعمال قائلاً: «وأما أهلُ الحجاز فيشبَهونها بلَيْسَ إذ كان معناها كمعناها كما شبّهوا بها لاتَ في بعض المواضع وذلك مع الحِين خاصّةً لا تكون لاتَ إلاّ مع الحين تُضْمِرُ فيها مرفوعا وتَنْصِبُ الحين؛ لأنّه مفعول به ولم تَمَكَّنْ تمكُّنَها، ولم تستعمل إلا مضَمراً فيها؛ لأنَّها ليستْ كليس في المخاطَبة والإِخبار عن غائبٍ تقول: لستَ ولستِ وليسوا وعبدُ الله ليس ذاهبا فتَبْنِى على المبتدأ وتُضْمِرُ فيه ولا يكون هذا في لات. لا تقول: عبدُ الله لاتَ منطلقاً، ولا قومُك لاتُوا منطلِقينَ ونَظيرُ لاتَ في أنّه لا يكون إلاَّ مضمرَا فيه ليس ولاَ يكون في الاستثناء إذا قلت : أَتَوْني ليس زيداً ولا يكونُ بِشْرا.

---

(١) الكتاب١/٥٩.

(٢) الكتاب ١/٥٧ وينظر شرح كتاب سيبويه للرماني٢/٢٣. والإنصاف ١/١٦٦ وشرح الكافية الشافية ١/٤٣٥.

وزعموا أنّ بعضَهم قرأ (وَلاَتَ حِينُ مناَص) وهي قليلة»[1] ويتكفل نص سيبويه إعطاء أوجه الإقناع بالتغاير بين (ما) و(لات) قائلاً: «لا تكون لاتَ إلّا مع الحين تُضْمِرُ فيها مرفوعا وتَنْصِبُ الحين؛ لأنّه مفعول به ولم تَمَكَّنْ تمكُّنَها، ولم تستعمل إلا مضَمراً فيها؛ لأنّها ليستْ كليس في المخاطَبة والإخبار عن غائبٍ تقول لستَ ولستِ وليسوا وعبدُ الله ليس ذاهبا فتَبْنِي على المبتدأ وتُضْمِرُ فيه ولا يكون هذا في لات... ولا يجاوَزُ بها هذا الحين رفعتَ أو نصبتَ ولا تَمَكَّنُ في الكلام كتمكُّن ليس وإنَّما هي مع الحين كما أن لَدُنْ إنّما يُنْصَبُ به مع غُدْوَةً وكما أنّ التاء لا تَجرُّ في القسم ولا في غيره إلاّ في الله إذا قلت: تاللهِ لأَفْعَلَنَّ»[2] فالمشابهة ضعيفة ؛لأنّ (لات) لا تعمل إلّا مع (الحين) يكتنف هذا الأمر قوله: «شبّهوا بها لاتَ في بعض المواضع وذلك مع الحِين خاصّةً لا تكون لاتَ إّلا مع الحين» [3] وقوله في موضع آخر: «وكما أنّ لات إذا لم تعملها في الأحيان لم تعملها فيما سواها فهي معها بمنزلة ليس فإذا جاوزتها فليس لها عمل»[4] ومن جانب آخر أنّ (لات) لا بدّ فيها من إضمار إذ يقول : «ولم تستعمل إلا مضَمراً فيها»[5] ومن هنا فإنّ أبا بشر لا يقتضب القول بشأن ميله إلى لغة تميم عبر قراءتهم فيُفصّل في أنّ طلب عَقْد مشابهة في قراءة الحجازيين أمر موهوم الحصول ههنا بين (ما) و(لات) و(ليس) في العمل عبر مديات الاستعمال فالذي تحكّم في سلامة التركيب ههنا

---

(١) الكتاب ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) الكتاب ١/ ٥٧ ـ ٥٩

(٣) الكتاب ١/ ٥٧.

(٤) الكتاب ٢/ ٣٧٥.

(٥) الكتاب ١/ ٥٧.

الارتكاز على الأسس اللغوية وهي معالجة دقيقة منطوية على المبادئ القياسية لهذه الكيفيات.

ثانياً: المعنى

يجنح سيبويه إلى عينة قرائية مفسِّراً مكوناتها الدلالية بعزو العلاقات الأفقية المعيارية إلى المعنى قائلاً: «وزعم أبو الخَطّاب أَنّ مثلَه قولُك للرجل: سَلاماً تريد تسلُّماً منك كما قلت براءَةً منك تريد لا أَلْتَبسُ بشيء من أمرك. وزعم أنّ أبا ربيعةَ كان يقول: إذا لقيتَ فلانا فُقْل له: سَلاماً. فزعم أنّه سأَله ففَسَّرَه له بمعنى براءةً منك. وزعم أنّ هذه الآية ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[1] بمنزلة ذلك؛ لأنّ الآيَةَ فيما زَعم مكّيّةٌ ولم يؤمَرِ المسلمون يومئذ أنْ يسلِّموا على المشركين ولكنّه على قولك: براءة منكم وتسلُّما لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرّ»[2] فالنص قد لا تجد معه مضاعفة استهلاك جهد عقلي لبيان المراد بل الاقتصاد واضح من مقدمته التي كشف بها سيبويه عن النظام النحوي في هذه الممارسة القرائية بالنصب في (سلام) من دون الرفع، إنّما مآل ذلك إلى المعنى فانبعثت حمولتها الدلالية بالارتكاز الإدراكي على أنّ معنى (السلام) في الآية هو (البراءة والتسلّم) إذ لم يؤمر المسلمون بالتسليم على المشركين في مكة وقتئذ والآية مكية. ومن ثمّة فقد سجلت هذه التداعيات تغييراً في علاقة الإسناد ففارق بين (سلامٌ) و(سلاماً) وهو بذلك المعنى يؤكِّد أنّ وجه هذه المصادر النصب فيميل إليه؛ لأنّها مصادر وضعت موضعاً واحداً وهو إرادة الدعاء فيُختزل فيها الفعل فالميل إلى قراءة النصب على الرفع تمّ تقصّيها عبر المعنى ويُحلل أبو بشر ميله نحو النصب قائلاً

---

(١) من سورة الفرقان /٦٣.

(٢) الكتاب ١/٣٢٥- ٣٢٦.

في (سلام) إنّ : «انتصابه كانتصاب الحمدَ لله»[1] فكما أنّ (الحمد) حقها الرفع لكونها معرفة إلّا أنّها أُلزمت النصب ههنا «فهذا يَنتصب على إضمار الفعل ولم يُرِدْ أن يَجعله مبتدأ خبره بعده ولا مبنيًّا على اسم مضمَرٍ»[2] ومثله «قوله جلّ ثناؤه : ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ . أي حَراماً محرَّماً يريد به البراءةَ من الأمر ويبعِّدُ عن نفسه أمراً. فكأنّه قال: أُحَرِّمُ ذلك حَراماً محرَّما. ومثل ذلك أن يقول الرجلُ للرجل: أتَفعل كذا وكذا ؟ فيقولُ: حِجراً أي سِتْراً وبراءةً من هذا »[3].

إنّ إدراج قراءة الرفع قد لا تبدو جلية في نصوص سيبويه السالفة الذكر إلّا أنّ سيبويه يُنشط العقل ويُحركه وصولاً إلى أنّها مفضَّل عليها بالنصب عبر قوله: **«واعلم أنَّ من العرب من يَرفع سلاما إذا أراد معنى المباراْةِ»**[4] ويُستكنه من قوله : «**وتركوا لفظ ما يَرفعُ كما تركوا فيه لفظَ ما يَنصب لأنَّ فيه ذلك المعنى ولأنَّه بمنزلة لفظِك بالفعل**»[5]. فالكشف عن أنّ «سلام« بالرفع إنّما هو نائب عن مصدر واقع بدلاً من الفعل يتوارى ذلك عبر قوله: «وفي هذا المعنى كلّه معنى النصب». ويدعم هذه الرؤية التحليلية والدلالية بقوله: «**والنصب أكثر وأجود**»[6] .

وربما مثّلت القراءة تحولاً نحوياً لا يكون اعتباطياً وإنّما مرتكزاً على أسس

---

(١) الكتاب١/ ٣٢٤.

(٢) الكتاب ١/ ٣٢٦.

(٣) الكتاب ١/ ٣٢٦.

(٤) الكتاب١/ ٣٢٦.

(٥) الكتاب١/ ٣٢٦.

(٦) الكتاب١/ ٣٢١.

استعمالية وخلفيات معرفية تمنحها مستوى صوابياً لمسايرتها ما دأبت عليه العرب في نظرية التواصل التفاهمي بالاحتكام إلى القاعدة التداولية التي نصّ عليها بقوله: «فإنّما تجريها كما أجرت العرب»[1]. وقوله: « فليس لك أنْ تجري بالحرف غير ما أرادوا »[2].

وقوله : «أنْ تجري هذه الحروف كما أجرت العرب وأنْ تعني ما عنوا بها» [3].

فأهمية معيار الاستعمال في توجيه المؤشر الدلالي واستكشافه يمكن استبيانه عبر نص أبي بشر في «**بابٌ من النكرة يَجرى مجرى ما فيه الألفُ واللام من المصادر والأسماء وذلك قولك: سلامٌ عليك، ولَبَّيْك، وخيرٌ بين يديك ،ووَيْلٌ لك، ووَيْحٌ لك، ووَيْسٌ لك ، ووَيلةٌ لك ، وعَوْلةٌ لك، وخيْرٌ له، وشرٌّ له. و ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [4] فهذه الحروفُ كلّها مبتدأةٌ مبنيٌّ عليها ما بعدها والمعنى فيهنَّ أنّك ابتدأتَ شيئاً قد ثَبَتَ عندك ولَسْتَ في حال حديثِك تَعملُ في إثباتِها وتَزْجِيتِها وفيها ذلك المعنى كما أنّ حسبُك فيها معنى النهى، وكما أنّ رحمةُ الله عليه فيه معنى رَحِمَه اللهُ . فهذا المعنى فيها ولم تُجعَلْ بمنزلة الحروف التي إذا ذكرتَها كنتَ في حال ذكرك إيّاها تَعملُ في إثباتها وتزجيتها كما أنّهم لم يجعلوا سَقْياً ورعيا بمنزلة هذه الحروف فإنما تجريها كما أجرت العرب وتضعها في المواضع التي وُضعن فيها ولا تُدْخِلَنَّ فيها ما لم يُدخِلوا من الحروف ألاَ ترى أنّك لو قلت: طَعاماً لك ، وشَراباً لك، ومالاً لك. تريد معنى سَقْياً أو معنى المرفوعِ**

---

(١) الكتاب ١ /٣٣٠.

(٢) الكتاب ١ /٢١٨.

(٣) الكتاب ١ /٣٣١.

(٤) من سورة هود/١٨.

الذى فيه معنى الدعاءِ لم يجز لأنّه لم يُستعمَل هذا الكلامُ كما استُعمل ما قبله . فهذا يدلُّك ويبصّرك أنّه ينبغي لك أن تُجرِيَ هذه الحروفَ كما أجرتِ العربُ وأنْ تَعْنِيَ ما عَنَوْا بها. فكما لم يجز أن يكون كلُّ حرف بمنزلة المنصوب الذى أنت في حال ذكرك إيّاه تَعملُ في إثباته ولا بمنزلة المرفوع المبتدأ الذى فيه معنى الفعل كذلك لم يجز أن تَجعل المرفوعَ الذى فيه معنى الفعل بمنزلة المنصوب الذى أنت في حال ذكرك إيّاه تَعملُ في إثباته وتزجيته ولم يجز لك أن تَجعل المنصوبَ بمنزلة المرفوع . إلاّ أنَّ العرب ربَّما أجرتِ الحروفَ على الوجهينِ ومَثَلُ الرفع ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [1] يدلُّك على رفعها رفعُ حُسْنُ مآبٍ . وأمّا قوله تعالى جدُّه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [2] و ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [3] فإنّه لا ينبغي أن تقول إنّه دعاءٌ ههنا؛ لأنّ الكلام بذلك قبيح واللفظ به قبيحٌ ، ولكنّ العبادَ إنَّما كُلِّموا بكلامهم وجاء القرآنُ على لغتهم وعلى ما يَعنون فكأنَّه واللهُ أعلمُ قيل لهم وَيلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ووَيْلُ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ أي: هؤلاءِ ممن وجب هذا القولُ لهم؛ لأنَّ هذا الكلامَ إنّما يقال لصاحب الشّر والهلَكةِ فقيل هؤلاء ممن دخل في الشرّ والهلكة ووجَبَ لهم هذا» [4] .

فـ(ويلٌ) مرفوعة بالإبتداء عنده وإجراء هذا اللفظ على وجه الرفع أقوى عند سيبويه من النصب ؛إذ النصب يحمله على معنى الدعاء؛ لأنّ «بعض العرب يقول

---

(١) من سورة الرعد/٢٩.

(٢) من سورة المرسلات الآيات/١٥ـ ١٩ ـ ٢٤ ـ ٢٨ ـ ٣٤ ـ ٣٧ ـ ٤٠ـ ٤٥ـ ٤٧ـ ٤٩.

(٣) سورة المطففين/١.

(٤) الكتاب ١/٣٣٠- ٣٣١.

وَيْلاً له وويلةً له وعولةً لك ويجريها مجرى خَيْبَةً»(١) واللفظ به ههنا قبيح عنده لقوله: إِنّه لا ينبغي أن تقول إنّه دعاءٌ ههنا لأنّ الكلام بذلك قبيح واللفظ به قبيحٌ. وتتمحور بذلك الأنماط الخطابية على الطاقة الوظيفية المستوحاة من ائتلاف الرصيد المعجمي مع المناويل التركيبية والمبادئ التداولية مما يتولد عبره ترجيحٌ تتعاضد أجزاؤه نتيجة هذه العملية الإئتلافية.

ثالثاً: المقام.

وهو من المرجِّحات المهمة عند أبي بشر حيث يجمع بين أقطاب ثلاثة المتكلم والخطاب والمخاطب ؛إذ قد ترد الآية مرهونة بمقام حيكت حوله فيُحلّل أبو بشر نسيجها اللغوي وطبيعة دلائلها النظمية محدِّداً توجيه السلوك اللغوي باختيار حكم نحوي من خلال ذكر أسباب التلفظ بالقول أو تحديد العلاقة بين المتكلم والمخاطب **(فالتهاون بالخلف)** (٢) قد لا تجده ههنا إذ يقول: «**فإنّ النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب ، وذلك أن رجلًا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقاً. وهو زيد منطلقاً. كان محالا؛ لأنه إنّما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية؛ لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر وإنّما يضمر إذا علم أنّك قد عرفت من يعنى . إلّا أنّ رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله**

---

(١) الكتاب ١ /٣٣٣.

(٢) الكتاب١ /٢٧٢.وهو مفهوم دقيق عبّر عنه أبو بشر تنبيهاً إلى أنّ صناعة الإعراب قد يعتريها نقص جراء إهمال أصحابها مقام القول أثناء اشتغالهم بوصف التراكيب واعرابها. ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه ص١٩٩ . والبعد التداولي عند سيبويه ص٢٥٥.

فيه فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسنا»[1].

فالنحو عند سيبويه غير مستقل بنفسه ،بل مرتبط بعناصر خارجية لذا فإنّ الجملة عند سيبويه «ليست بنية جامدة ؛ولكنّها حية ومتداولة بين متكلم ومخاطب يراعي فيها المتكلم ما يأخذ باهتمام مخاطبه فيقدّم ما يجب تقديمه ويؤخر ما يجب تأخيره إنْ كان المقام يقتضي الإطناب ومثل هذه السمات المميزة لطبيعة الكلام كثيرة في كتاب سيبويه»[2].

يمدّنا سيبويه بنطاق تحليلاته المقامية واستنتاجاته الدلالية في ظلّ إطار المقام بنصّه في باب ما يجري في الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه قائلاً فيه : «**تقول: أتاني زيد الفاسق الخبيث .لم يرد أنْ يكرره ولا يعرفك شيئا تنكره؛ ولكنه شتمه بذلك. وبلغنا أنّ بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا** ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[3] **لم يجعل الحمالة خبرا للمرأة ؛ولكنّه كأنّه قال: أذكر حمالة الحطب شتماً لها وإنْ كان فعلا لا يستعمل إظهاره**»[4] فثمّة تغاير إعرابي ضمن قوله :« **أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا**» ومقابلة بين هذه القراءة وقراءة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] يُعدِّيها سيبويه من زعْم يونس« **أنّها عربية**»[6] إلى تحليلها إلى أنّ النصب فيها محمول على الشتم في الآية الأولى والتعظيم مدحاً في الآية الثانية. ما يُستشّف عبره تواصل

---

(١) الكتاب٢/٨٠- ٨١.

(٢) التركيب في كتاب سيبويه نظام الجملة وأصول التقدير ص٤٠.نقلاً عن البعد التداولي في كتاب سيبويه ص٢٥٧.

(٣) سورة المسد/٤.

(٤) الكتاب ٢/٧٠.

(٥) الفاتحة/ ٢.

(٦) الكتاب ٢/٦٣.

سيبويه في سعيه للكشف عن ميله إلى النصب إذ يقول : «زعم الخليل أنّ نصب هذا على أنّك لم ترد أنْ تحدث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه؛ ولكنّهم قد علموا من ذلك ما قد علمت فجعله ثناء وتعظيماً ونصبه على الفعل كأنّه قال: أذكر أهل ذاك وأذكر المقيمين ولكنّه فعل لا يستعمل إظهاره»[1] ويتعمّق سيبويه في توصيف هذه المحاورات القرآنية بأنّها مخصوصة بمواضع قائلاً: «**واعلم أنّه ليس كل موضع يجوز فيه التعظيم ولا كل صفة يحسن أنْ يعظم بها لو قلت: مررت بعبد الله أخيك صاحب الثياب أو البراز. لم يكن هذا مما يعظم به الرجل عند الناس ولا يفخم به . وأمّا الموضع الذي لا يجوز فيه التعظيم فأنْ تذكر رجلاً ليس بنبيه عند الناس ولا معروف بالتعظيم ثم تعظمه كما تعظم النبيه وذلك قولك: مررت بعبد الله الصالح. فإنْ قلت: مررت بقومك الكرام الصالحين. ثم قلت: المطعمين في المحل جاز؛ لأنّه إذا وصفهم صاروا بمنزلة من قد عرف منهم ذلك وجاز له أنْ يجعلهم كأنّهم قد علموا فاستحسن من هذا ما استحسن العرب وأجزه كما أجازته**»[2] ويُحدِّد الشنتمري بعض الشروط التداولية للتعظيم قائلاً: «واعلم أنّ التعظيم يحتاج إلى اجتماع معنيين في المعظم أحدهما: أنْ يكون المعنى الذي عُظِّم به مدحاً وثناء ورفعة. والآخر أنْ يكون المعظم قد عرفه المخاطب وشهر عنده بما عظم به أو يتكلم المتكلم بصفة ينفرد بها المخبر عنه عند المخاطب ويعرفه بها ثم يأتي بعد بصفات يُعظّمه بها كقولك: مررت بعبد الله الكريم الفاضل فتنصب الفاضل على التعظيم ؛لأنّك لمّا قدّمت الكريم صار كأنّه

(١) الكتاب٢/٦٥- ٦٦.

(٢) الكتاب ٢/٦٣.

قد عرف وشهر»[١] فالنصب يختزن معنى التعظيم أو الشتم ولهذا أعلن الزمخشري «وأنا استحب هذه القراءة»[٢] إنّ ملاحظة العلامات الإعرابية قد لا يمدّنا بذلك العمق في تحليل الظاهرة النحوية، بل لا بدّ من اعتبار السياق (الخُلف) وهي مرحلة نظر عميق في تحليل الجملة لا نجد نضجها عند النحاة الخالفين .

(١) النكت ٢/٧٤وهذا الفهم مأخوذ عن السيرافي ٢/٦٩.
(٢) الكشاف ٤/١٠.

نتائج البحث

انطوى ما قدمنا له من نصوص سيبويه على نتائج يمكن الكشف عنها بما يلي:

أولا: إنّ تصفّح ما أُنجز حول الكتاب من دراسات وبحوث في القراءات يوحي بأنّ جوهر جهد إمام النحاة لم يُفهم فيها فوقف التقويم لمجهوده عند حدود أنّه لم يُفضّل قراءة على أخرى وبذلك تمّ الإجهاز على مضمون ما اشتغل عليه سيبويه وهو الذي حاول أنْ يرسم لنا عبر القراءات القرآنية شكلاً بيانياً معبِّراً عن الكميات الاستعمالية لهذه القراءات ما يكشف عن قدرة ابتكارية في ميدان الدراسة اللغوية عامة.

ثانياً : قد تبدو احتمالات الاختيار متعددة فهو لا يجعل من قراءة الجمهور مركزاً للميل فحسب بل يُدخِل معه في هيكل الميل القراءة المفردة واعتماد مثل هذه الآلية الديناميكية ينعكس عبره صواب نظرته إلى أنْ القراءة سُنّة لا تُخالف تتجلى فيها لغات العرب وإنْ اختلفت في درجات الفصاحة .

ثالثاً : سلك أبو بشر في عرضه قواعد العربية مسلكاً دقيقاً وعلمياً حينما أيّدها بكلام الله ولم يجعل القرآن الكريم مُولِّدا لنحو العرب؛ لأنّ القرآن نزل بلغتهم وعلى ما يعنون فهو لم يدرس نحو القرآن عبر القراءات.

رابعاً: حملت نصوص سيبويه سمة ـ انفرد بها عبر إجراء تحليلات علمية دقيقة ـ أنّه كان وفياً لسُنة القراءة لا يبخل عن وصف بعضها بالقوة إنْ توفرت لها شروط القوة أو الحسن إنْ وافقت الذائع المعروف من كلام العرب الذي يُتوخى منه ضبط لغة القرآن وصونها من التحريف .

ثبت المظان

ـ اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ـ أحمد الدمياطي ـ رواه وصححه وعلق عليه علي محمد الضباع ـ طبع عبد الحميد أحمد (د.ت).

ـ الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي من القرن الأول إلى الخامس الهجريين ـ فؤاد بو علي ـ عالم الكتب الحديث – ٢٠١١م.

ـ إعراب القرآن المنسوب للزجاج – تحقيق ودراسة إبراهيم الإيباري ـ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – ١٩٦٣م.

ـ إعراب القرآن – أبو جعفر النحاس – تحقيق: د. زهير غازي زاهد ـ مطبعة العاني – بغداد ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

ـ أمالي ابن الشجري ـ هبة ا بن الشجري – تحقيق: محمود محمد الطناحي – مكتبة الخانجي –ا لقاهرة –ط١ – ١٩٩٢م.

ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين – أبو البركات عبد الرحمن بن الأنباري – تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط٤ـ ١٩٦١م.

ـ البحر المحيط ـ أبو عبد الله محمد بن حيان الأندلسي – مطبعة النصر – الرياض – (د.ت).

ـ البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ـ تحقيق: أبو الفضل إبراهيم – القاهرة – ط١ـ ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧م.

ـ البعد التداولي عند سيبويه – د.أدريس مقبول – عالم الفكر ـ المجلد (٣٣)ـ العدد(١) ـ ٢٠٠١م.

ـ البيان في غريب القرآن – أبو البركات عبد الرحمن بن الأنباري ـ تحقيق: طه

عبد الحميد طه ـ مراجعة مصطفى السقا ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ١٩٨٠م.

ـ التبيان في إعراب القرآن – أبوالبقاء عبد الله بن الحسين العكبري ـ تحقيق: علي محمد البجاوي – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه – القاهرة –(د.ت).

ـ دراسات في كتاب سيبويه ـ د.خديجة الحديثي ـ وكالة المطبوعات .

ـ ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي – تحقيق: عزة حسن ـ مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم – دمشق ـ ١٩٦٠م.

ـ الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه ـ د. خديجة الحديثي – مطبوعات جامعة الكويت ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

ـ شرح أبيات سيبويه ـ أبو محمد يوسف بن أبي سعيد السيرافي ـ حققه وقدم له د. محمد علي سلطاني ـ دار المأمون للتراث – ١٩٧٩م.

ـ شرح الكافية الشافية ـ جمال الدين أبي عبد الله بن مالك – تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي – دار المأمون للتراث ـ ط١ـ ١٩٧٩م.

ـ شرح كتاب سيبويه ـ علي بن عيسى الرماني – تحقيق: محمد إبراهيم شيبة – جامعة أم القرى ـ١٤١٥هـ.

ـ شرح كتاب سيبويه للسيرافي ـ تحقيق: د. رمضان عبد التواب ود. محمود فهمي حجازي ومحمد هاشم عبد الدايم – مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ـ١٩٨٦م.

ـ شرح المفصل ـ موفق بن يعيش ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ (د.ت).

ـ القراءات في كتاب سيبويه حتى باب المبدل من المبدل منه توجيها نحوياً – نبيهة عبد الرحيم سندي – السعودية ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

ـ كتاب سيبويه ـ أبو بشر عمرو بن عثمان – تحقيق: عبد السلام هارون – الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ط٢ـ ١٩٧٧م.

ـ كتاب العين مرتباً على حروف المعجمـ تصنيف: الخليل بن أحمد – تحقيق: عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية – بيروت ـ ط١ـ٢٠٠٣م.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – أبو القاسم جار الله الزمخشري ـ نشر أفتاب إيران ـ (د.ت).

ـ الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها – أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي ـ تحقيق: د. محيي الدين رمضان – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط٢ـ ١٤٥١هـ ـ ١٩٨١م.

ـ لطائف الإشارات لفنون القراءات –أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني – تحقيق: مركز الدراسات القرآنية –مجمع الملك فهد للطباعة – ١٤٣٤هـ.

ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ـ أبو الفتح عثمان بن جني ـ تحقيق : د. علي النجدي ناصف ود. عبد الحليم النجار ود. عبد الفتاح اسماعيل شلبي – لجنة إحياء التراث الاسلامي ـ مصر – ١٣٨٦هـ .

ـ المدخل لعلم القراءات – محمد بن محمود حوا – النسخة الالكترونية.

ـ معاني القرآن ـ أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء – تحقيق ومتابعة محمد علي النجار ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة – (د.ت).

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ـ أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام – تحقيق: مازن المبارك ود. محمد علي حمد الله ـ راجعه سعيد الأفغاني ـ دار الفكرـ بيروت – ط٣ـ١٩٧٢م.

ـ منجد المقرئين ومرشد الطالبين – محمد بن محمد الجزري – تحقيق: د. عبد

الحي القرماوي – دار المطبوعات الدولية ـ ط١ – ١٩٧٧م.
ـ النكت في تفسير كتاب سيبويه ـ الأعلم الشنتمري ـ دراسة وتحقيق : الاستاذ رشيد بلحبيب ـ وزارة الأوقاف والشؤون الأسلامية ـ المغرب ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

القياس في مدونة سيبويه بين وصف الحقائق اللغوية وفرض القواعد

ملخص البحث

تعد دراسة عملية القياس ذات شأن كبير في الدراسات اللغوية بل هي ركيزة من ركائز الدرس اللغوي .ويقف قارئ كتاب سيبويه على استعمالات مختلفة للتعبير عمّا يُعرف بـ(القياس) وإنْ كان في أحايين كثيرة يُصرح به، فآثرت تتبع مفهوم القياس عنده عبر تحليلاته للنصوص والألفاظ المرادفة له في سياقاتها الاستعمالية في محاولة بيان ما يُقصد منها في إطار تبادل الخواص الدلالية ،وربما يجد المتمعن أنّ هذه الدراسة لاحقة لغيرها فما جديدها والقياس دليل صناعي تناولته مصنفات عدة؟ إلّا أنّ السعي ههنا استند إلى محاولة بيان أثر القياس في توجيه منهج البحث اللغوي الذي قام عليه الكتاب وارتداد انبناء الدرس النحوي عليه. وقد أُهتُدي إلى ذلك عبر لغة الكتاب التي لم تكن مشكلة من أصوات مرتبة ،بل كانت فعالية رمزية تؤهّل لإقامة تواصل لغوي عبر طاقاته الذاتية (الخيالية والفكرية) بوصفها نتاجاً خاصاً. وبهذا يمكننا تفسير اختلاف المصطلحات المترادفة في لائحة القياس، فيُبيّن المعاني بوساطة الألفاظ ؛لأنّ مدار الأمر والغاية إنّما هو الإفهام (شرط التلقي).

واعتماداً على هذا تأخذ الحاجة والعقل مكانة مركزية في ألفاظ سيبويه المُنتخَبة للقياس، من حيث إنّ الحاجة تُنتج أشكال التعبير المختلفة والعقل هو وسيلة ذلك متخذين من الجمع بين الحاجة والعقل في الكتاب نبراساً لفهم عمق الفكر اللغوي العربي في ظل إطار المشابهة الجزئية تلك المشابهة التي يؤدي بها القياس فائدة فإنْ كانت: «كلّ علة تذكرها في المحمول عليه فهي مطردة في المحمول ، فما

فائدة الحمل؟ وإنما يحمل الشيء على الشيء، إذا لم يكن المحمول في ثبوت العلة فيه كالمحمول عليه، بل يشابهه من وجه فيلحق به لأجل تلك المشابهة، وإن لم تثبت العلة في المحمول، كحمل (إنّ) على الفعل المتعدي وإنْ لم يكن في (إنّ) العلة المقتضية للرفع والنصب كما كانت في المتعدي»[1]. فلا فائدة للقياس إذا كانت المماثلة كلية بين المقيس والمقيس عليه، بل ترصد الفائدة الحقيقية له في النحو العربي من خلال المماثلة الجزئية بين المحمول والمحمول عليه ،بالارتكاز على أهم جزء فيه وهي(العلة الجامعة).. نَرفدُ ذلك بثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: القياس بين منطق اللغة ومنطق العقل.

المبحث الثاني: طاقة مدلول القياس في دوالّه.

المبحث الثالث: دينامية العلاقات القياسية.

ثمّ تقفو هذه المباحث نتائج للطروحات القياسية عند سيبويه.

---

(١) شرح الرضي على الكافية ٤/٤٨٤.

ديباجة البحث

يظهر الجانب التطبيقي لعلم اللغة الوصفي حينما تكون بياناته قابلة للقياس وهذا القياس قد يتعلق غرضه وهو (الخلق والابداع) بالكلام ؛ إذ «يمتزج بمبدأ الإبتكار بصورة عامة»[1] . وهو بهذا المعنى لا يكون نحواً بل تطبيقاً للنحو. وقد يتعلق غرضه باللغة لا الكلام الأمر الذي عبّر عنه فندريس في تعريفه القياس أنّه: «العملية التي بها يخلق الذهن صيغة أو كلمة أو تركيباً تبعاً لنموذج معروف»[2]. ومن ثمّة سيكون القياس مزدوجاً من جهة بعديه، فالبعد الأول (استعمالي). والبعد الثاني هو البعد النحوي الذي أكسب القياس تنوّعاً استدعته اللغة، إذ يمكن توصيف القياس فيه أنّه (عملية عقلية) ؛ لأنّ للعقل فيه أثراً بارزاً يقوم على أساس المشابهة بين شيئين ففيه تُرصد الظواهر اللغوية وتُصنّف بحسب تماثلها في التركيب الإعرابي أو الصيغ الصرفية، فتتقرر القاعدة اعتماداً على الاستقراء ويعتمد النحو في ظلّ تحصيل ذلك على تلك المقاييس المُستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكامه التي ائتلفَ منها[3]. حتى قيل: «إنّما النحو قياس يُتبع»[4]. و«النحو كلّه قياس»[5] فالقياس ههنا قيّم على اللغة يُهدر منه ويُضيف إليها فيُغني المتكلم عن سماع كلّ ما يقوله العرب؛ لأنّه يستطيع أن يصوغ على المثال. ولمّا كان الباحثون قد دأبوا على الانطلاق من المعجمات في

---

(١) علم اللغة العام ص١٩٣.

(٢) اللغة ص٢٠٥.

(٣) ينظر المقرب ص٤٥.

(٤) الاقتراح ص٩٤.

(٥) لمع الأدلة ص٩٨.

دراسة المصطلح سعياً إلى التقاء بين توجهات اللغة والاصطلاح وكشفاً عن جوانب الدراسة كافة، فلعلّ في هذا ما يجعلنا نولي تعريفه أهمية في إطار معالجة سيبويه له ما يُفهم منه أنّ القياس في الأصل «تقدير شيء بشيء»[1].

وزاد الجوهري في صحاحه أنّ «قياس الشيء بالشيء إذا قدرته على مثاله»[2].

وذكر التهانوي انّه «في عرف العلماء يُطلق على معان منها قانون مستنبط من تتبع لغة العرب أعني مفردات ألفاظهم الموضوعة وما في حكمها»[3].

ويرسم الجرجاني في تعريفاته بعداً آخر قائلاً عنه إنّه «قول مؤلّف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر كقولنا: العالم متغير وكلّ متغير حادث. فإنّه مركب من قضيتين إذا سلمتا لزم عنهما لذاتهما العلم حادث هذا عند المنطقيين»[4]. ومن تلك المفاهيم تُوضع حقيقة تعريفات أخرى للقياس فهو «حمل فرع على أصل بعلة»، أو «اعتبار الشيء بالشيء لجامع»، أو «تقدير الفرع بحكم الأصل»[5].

إنّ هناك عنصرين يسوغان الاهتمام بهذا الموضوع:

الأول: الطابع التوجيهي الذي تتميّز به نصوص كتاب سيبويه وسعيه المستمر إلى ربط النظرية بالممارسة.

والثاني: هو مفهوم القياس حينما تعامل سيبويه في مدونته التأسيسية الرائدة

---

(١) مقاييس اللغة/مادة (ق. و. س).

(٢) الصحاح٣/٩٦٨.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون٢/١٣٤٧.

(٤) التعريفات ص١٩٠.

(٥) ينظر لمع الأدلة ص٩٣والاقتراح ص٥٩ والقياس في اللغة ص١٩- ٢٠.

مع نُخَبه المترادفة فكان فضاءً عاماً لتلك العبارات المترادفة تعميقاً للتواصل ودعوة إلى التحرير بانفتاح ذهني عبر الفكر الحي المتجدد من خلال العلاقات والتعاطي الموضوعي اللذين يكشفان عن مفهوم (القياس) ومقاربة لصوره، إذ اعتمد «على القياس في جميع أبواب الكتاب النحوية أو الصرفية أو اللغوية أو مسائل التمرين والرياضة»[1]. بل أنّك تجد انعقاد باب بكامله قياساً كما في «باب ما قيس من المعتل من بنات الياء والواو ولم يجئ في الكلام إلّا نظيره من غير المعتل»[2]. وباب «هذا ما قيس من المضاعف الذي عينه ولامه من موضع واحد ولم يجئ في الكلام إلّا نظيره من غيره»[3].

إنّ مثل هذا الجهد لابدّ من أنْ يُقيّم ولاسيما إذا أُخذ بنظر الاعتبار جَعْله نمطاً من الاستدلال الخطابي يعي أبو بشر حدوده الخاصة، ويمكننا تكثيف فكرة القياس في نصوصه بأنّه حوّل دور العقل فيها إلى أنْ تكون وظيفته تفاعلية وحوارية مع العلوم الأخرى ـ على نحو ما سيبين ـ عبر ابتداع شكل جديد من العقلانية الاجتماعية، فلم يستهدف عقلنة القياس في مفهومه، بل بحثه على أسس عقلانية تواصلية منطلقاً من العقل في تلبية متطلبات المتلقي، وبهذا أصبح القياس حارساً أميناً عبر اللغة ومحيطها. وبافتراض وجود عملية التلقي قبل الإبداع من حيث إنّ الفكرة الجوهرية ههنا تلحّ على أنّ صاحب الكتاب مارس هذه العملية من خلال القياس بعد تأثره في السماع فالتأثير لابدّ أنْ يسبقه تلق حتى يتمّ، إذ يستفيد منه سيبويه إبداعاً وانتاجاً بحسب الفكرة التي يريد طرحها

(١) الشاهد وأصول النحو ص٢٤٨.
(٢) الكتاب ٤/٤٠٦.
(٣) الكتاب ٤/٤٢٧.

في أثناء التناول على وفق سلمية نراها في هذا المخطط:

سماع ـــــ تلق ـــــ تأثير.

يقول أبو بشر: «**ولو أنّ هذا القياس لم تكن العرب الموثوق بعربيتها تقوله لم يُلتفت إليه**»[١]. وهو ما يجعلنا نقرّ بأنّ أبا بشر يعتمد السماع ـ في أحايين كثيرة ـ طريقا للذهن و رصيداً نصّياً في بنائه الفكري والذهني يروم عبره تعليم اللسان العربي مقاييس على قدر جودتها تكون جودة الملكة الحاصلة، فقد استند سيبويه إلى القياس البرهاني[٢] الذي يتوارى خلف هذا النص حيث يقول: «وأمّا عَنْ فاسمٌ إذا قلت: مِنْ عَنْ يمينك، لأنَّ مِنْ لا تعمل إلا في الأسماء »[٣].

وقد مثل الدكتور جلال شمس الدين قول سيبويه السابق بما يأتي:

« كل كلمة تعمل فيها (مِنْ) هي اسم مقدمة كبرى.

(عن) هي كلمة تعمل فيها (مِنْ) مقدمة صغرى.

إذن (عن) هي اسم»[٤].

فكانت قراءته للقياس استعداداً عقلياً خاصاً تناول تعبيراته في ظلّ لغة تواصلية تهدف إلى دلالة مباشرة بالاستنباط أو من خلال الألفاظ المرادفة للقياس المتموقعة في اللغة باعطائها طابعاً تجديدياً يؤيّد الفكرة أو ينقضها اعتماداً

---

(١) الكتاب٢/ ٢٠ وينظر ٢/ ٣٦٣- ٣٦٤.

(٢) يقصد بالقياس البرهاني (استنباط نتيجة من قضيتين حمليتين كل منهما تتكون من موضوع ومحمول، والنتيجة أيضاً من موضوع ومحمول. والقضية الحملية تشبه عندنا في العربية الجملة الاسمية التي تتكون من مبتدأ وخبر، فالمبتدأ يشبه الموضوع والخبر يشبه المحمول). ينظر التعليل اللغوي عند الكوفيين ومقارنته عند البصريين دراسة ابستمولوجية ص٢٠٣.

(٣) الكتاب٤/ ٢٢٨.

(٤) التعليل عند الكوفيين ومقارنته عند البصريين دراسة ابستمولوجية ص٢٠٦.

على المشابهة أو التوافق وعدمها ،وهو إجراء تطبيقي يصوغ أبو بشر نصوصه في ظل تقنياته فالمسألة ليست اعتباطية بل قصدية توجّه سيبويه نحو نطاقها بما امتلكه من مقومات ابداعية تدلّ على استيعاب صاحبها لعملية القراءة والتأويل وليست مجرد عملية تحويل وتجديد، فقد تعامل سيبويه مع متلقيه على وفق رصيد معرفي يملأ فراغات كثيرة بمرادفات اصطلاحية فهو ينتخب عناصر دلالية معينة توضح مرجعية المشابهة بين المقيس عليه والمقيس، إذ يتفاعل مع النصوص بصورة نموذجية تفصح عن كفاءة موسوعية ومهارة معجمية واسلوبية وكأنّه يستنطق متلقيه عبر أسئلة ويُجيبه بما يمتلكه من كفاءات فالمعنى القبلي للقياس هو **(المشابهة)** وهذا المعنى هو منطلق للقراءات الممكنة للمترادفات القياسية جميعها إلّا أنّ أبا بشر يقدمها في إطار مسلك فني بتواجدها ضمناً في تحليل العلاقات وكأنّه يُوجِد بنيوية للقياس. وهو مدى حيوي ينبغي النظر إليه في كتابه حينما يستعير كلمات ويقدمها بمحتوى جديد عبر مفهوم (القياس) وفي محاولة لتحديد كيفية اشتغال هذه المصطلحات وكيف تعيد انتاجه.

ننوّه بدءا إلى أنّ أبا بشر قام بمسح (سماعي) معرفي للاطلاع على العربية بكلّ تفرعاتها «لأنّ سَوْق الحقائق مجردة يكون أقلّ تأثيراً في النفوس من سوقها مدعمة بالشواهد المعتمدة»[1]. ومن دون إغفال لسلوك الفاعلين بوصفهم معيدي انتاج البنية فهو يسبر المقاصد بحثاً عن الكوامن في الظواهر الكائنة ،واطروحته القياسية لا تغفل هذا الفاعل لما له من اسهام في إطار تفاعلات النسق من خلال السلوكيات الفردية .

إنّ دراسته العميقة والدقيقة للقياس تفصح عن جدارة معالجته لمفهومه الذي

(١) الحوار آدابه وضوابطه في الكتاب والسنة ص٣٠٩.

اتخذ مسارين :

الأول: تمثّل في تحليل وإعادة بناء العناصر التي تقدمها اللغة من أجل إدراك ومعرفة علّة وجودها، إذ يقول: «فقف على هذه الأشياء حيث وقَفوا ثم فسّرْ»[1].

والآخر: إبداع صيغ جديدة من أجل الوصول إلى تفسير ظاهرة القياس نفسها.

فهذا مرتكز وظيفة هذه الأوراق البحثية في قابلها.

---

(١) الكتاب ١/٢٦٦.

المبحث الأول: القياس بين منطق اللغة ومنطق العقل .

بدأ القياس مع بواكير نشأة النحو منتقلاً إليه من علوم الشريعة ، ولا يعني الانتقال أنّه وُضِع أولاً في علوم الشريعة ثمّ استُعير إلى النحو لكنّ الحاجة دعت إلى وضعه أولاً في علوم الشريعة، ثمّ صار منهجاً متبعاً في كثير من المعارف والعلوم[1] ويرى الدكتور عبد العال سالم مكرم أنّ نشأة القياس في النحو نشأة فطرية وقد ظهر على يد نحاة البصرة الأوائل قبل أنْ يُترجم منطق اليونان[2] فاقترن اسم عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي بالمرتبة الأولى إذ تواترت الأخبار عنه أنّه «أول من بعج النحو ومدّ القياس»[3].ووصف ابن سلام مدّ القياس عنده أنّه تحويل «النحو من طابع الانتحاء التطبيقي الذي رسمه علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: انحُ هذا النحو يا أبا الأسود . إلى الطابع النظري الذي يتسم بقياس حكم غير المسموع على حكم المسموع الذي في معناه»[4].

ويعدّ القياس من أدلة النحو الرئيسة ،فقد ارتبط النحو به ارتباطاً وثيقاً وصارا متلازمين؛ لأنّ النصوص المسموعة محدودة والتعبيرات غير محدودة فيُحمل بعضها على بعض بالقياس[5].

وتشير الدكتورة خديجة الحديثي إلى أنّ القياس قَوِي واشتدّ على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه، وعلى آرائهما وآراء السابقين من الشيوخ

---

(١) ينظر أدلة النحو ص١٧٢ .

(٢)القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص٩٣.

(٣) طبقات فحول الشعراء ص١٤.

(٤) الأصول تمام ص١٥٤ .

(٥) ينظر المزهر ٣١١/٢.

اعتمدت المدارس النحوية الأخرى ؛ إذ تؤكّد أنّ القياس نشأ في البصرة مع نشأة النحو وكثر[1] مستدلةً على هذا بقول أبي فيد مؤرج السدوسي وهو من أصحاب الخليل «أنّه قدم من البادية ولا معرفة له بالقياس في العربية ،وإنّما كانت معرفته قريحته، وأول ما تعلمته في حلقة أبي زيد الأنصاري بالبصرة»[2]. ونجد تآزراً بين قول الحديثي حديثاً وقول ابن جني قديماً حينما وصف الخليل بأنّه «سيد قومه وكاشف قناع القياس في علم»[3]. انبناء هذه الحقيقة يمكن تلمسها عبر أنموذج من قياساته في سؤال التلميذ استاذه «عن قوله عزّ وجّل: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[4] فقال: هذا كقول زهير:

بَدا لِيَ أَنّي لستُ مُدْرِكَ ما مَضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا

فإنما جرّوا هذا لأنّ الأول قد يدخله الباء فجاءوا بالثاني وكأنّهم قد أثبتوا في الأول الباء فكذلك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزماً ولا فاء فيه تكلموا بالثاني وكأنّهم قد جزموا قبله فعلى هذا توهّموا هذا»[5] فالمعطوف (سابق) جُرّ لتوهم دخول الباء في المعطوف عليه وهو خبر ليس والتماس مشابهة في التوهم بين الموضعين قادته إلى أنْ يكون جزم الفعل (أكن) مقيساً على (سابق) في البيت. فالقرابة بين الفعل المجزوم والاسم المجرور هي في التوهم فانتفت الحيرة في تفسير الجزم في الآية لما كشفته تلك المقايسة. ومثل هذه الطروحات قد

---

(١) ينظر الشاهد وأصول النحو ص٢٢٧.

(٢) نزهة الألباء ص٨٩، وينظربغية الوعاة ص٤٠٠ والشاهد وأصول النحو ص٢٢٨.

(٣) الخصائص ١/٣٦١.

(٤) المنافقون /١٠.

(٥) الكتاب ٣/١٠٠- ١٠١.

يستشعر قارئها بعداً عن القياس؛ لأنّ النص لم يورد لفظاً صريحاً له، ويمكن تقصي هذه الرؤية التحليلية القياسية من دون ذكر لفظه في نص سيبويهي آخر وردت فيه (إنّ) المخففة عاملة من دون حذف اسمها ويحتج سيبويه لإعمالها أنّها مقيسة على الفعل الذي يعمل وإنْ كان محذوف الأجزاء نحو قولك: (لم يكُ زيدٌ منطلقاً) فـ «لم يغيّر ذلك أن تنصب بها كما أنّك قد تحذف من الفعل فلا يتغيّر عن عمله»[1] مورداً شاهداً على ذلك :

«كأنْ وَريدَيْه رِشاءُ خُلْب[2]

وهذه الكاف إنّما هي مضافة إلى أنْ»[3]. فالمماثلة الجزئية بين المقيس عليه والمقيس ارتكزت ههنا على أهمّ جزء في عملية القياس وهي العلة الجامعة بينهما فعملت (إنّ) حملاً على الفعل المتعدي. وهو شبه جزئي وليس كلياً ؛ لأنّها «**ليست بفعل إنّما جُعلت بمنزلته»**[4]. ونعقّب بقول سيبويه: **«وهم مما يشبهون الشيء بالشيء وإن لم يكن مثله في جميع الأشياء»**[5]. ليقودنا إلى أمر يجعلنا نركن إلى جانب القول إنّ القياس كالمجاز اللغوي بحاجة إلى علاقة تربط بين طرفيه إمّا أنْ تكون عقلية كالمجاز المرسل أو تخييلية كما في الاستعارة ،فالعلاقة العقلية قد تكون مناسبة العلة أو أطراد الحكم والعلاقة التخييلية هي الشبه بين المقيس والمقيس عليه[6] ومن هنا فإنّ سيبويه ـ على وفق ما سيبين ـ تجاوز بهاتين

---

(١) الكتاب ٣/١٦٤.

(٢) ديوان رؤبة ص١٦٩.

(٣) الكتاب٣/١٦٤.

(٤) الكتاب١/٥٩.

(٥) الكتاب ٣/٦٤٦ ، وينظر٤/٩٣.

(٦) الاصول تمام حسان ص١٥٥.

العلاقتين أساس المشكل في القياس وهو :

١ـ المزج بين المنطق وواقع الاستعمال. فالمنطق يبيح استعمالات كثيرة قد لا يبيحها الاستعمال. نومئ إلى مورد لذلك يمكن تصنيفه في مجال الافتراضات يقول فيه أبو بشر: «**اعلم أنّ المفعول الثاني قد تكون علامته إذا أضمر في هذا الباب العلامة التي لا تقع إيّا موقعها وقد تكون علامته إذا أضمر إيّا، فأمّا علامة الثاني التي لا تقع إيّا موقعها فقولك: أعطانيه وأعطانيك فهذا هكذا إذا بدأ المتكلم بنفسه، فإن بدأ بالمخاطب قبل نفسه فقال: أعطاكني أو بدأ بالغائب قبل نفسه فقال: قد أعطاهوني فهو قبيح لا تكلم به العرب ولكنّ النحويين قاسوه**»[١] فقد اعتمد سيبويه ههنا على مقدمات يقينية فلم تحتج نتائج هذه المقدمات إلى دليل سماعي. فارتكز على القياس من دون الاستعمال؛ من حيث إنّ تلك الصياغات لا تشكّل موضوع الخطاب الكلامي الحقيقي الواجب نقله، فهي غير إخبارية من جهة المبدأ، إلّا أنّ تطابق المحتويات المصوغة على شكل افتراض مع حقائق معروفة سلفاً ومقبولة من جهة المتلقي ـ فالمتكلم قبل المخاطب والمخاطب قبل الغائب ومثل هذه الحقائق تكون مستمدة من بديهات يتشاطرها عموم الأشخاص المنتمين إلى الجماعة المتكلمة ـ جعلها مسلّماً بها. وعليه تخضع هذه المعالجة لطلب جواب عن سؤال هو أيّ فائدة تُرتجى من افتراضات لا تنتهك الإخبار ويقاس عليها؟ جواب ذلك من الممكن صياغته ـ في ظل رؤية سيبويه الإرشادية ـ أنّ هذه الافتراضات شكّلت بالنسبة للخطاب نوعاً من أنواع قواعد البناء التي تُبنى عليها المحتويات المُقررة، فيُشرّع القياس للغة أفق الرصيد اللغوي لاستثماره. ولم تناظر طريقة سيبويه هذه طريقة النحاة الخالفين في التعامل

(١) الكتاب ٢/٣٦٣- ٣٦٤.

مع الأمور الافتراضية حينما خاضوا فيها بما ينأى عن الفائدة وذلك كثير في كتبهم[1]. لأنّ وظيفة القياس المُدرَكة من تحليلات سيبويه تمحورت حول:

أـ تعميم الحكم النحوي.

ب ـ تعليل الحكم النحوي.

٢ـ قضية السماع (الأنموذج اللغوي) فالقياس اللغوي أو قياس الأنماط ـ الذي يقوم به المتكلم ـ خلطه النحاة الخالفين لسيبويه مع قياس الأحكام ـ الذي يقوم به النحوي ـ وثمة فرق بين الأول والثاني إذ يجب ألّا تتم عملية إلحاق الظواهر لمجرد المشابهة الشكلية في(القياس النحوي). بل تقوم على استقراء الظواهر في نصوصها اللغوية ثمّ تتم عملية الإلحاق عند وجود علة الأصل والفرع ننطلق إلى نص يحمل فيه أبو بشر ما ينتصب من المصادر على أنّها في موضع (فاعل)؛ لأنّها موقوع فيها الأمر قائلاً: «**وذلك قولك قَتلتُه صَبْراً ولقَيتُه فُجاءةً ومُفاجأةً وكِفاحا ومكافَحةً ولقيتُه عِيانًا وكلّمتُه مُشافَهةً وأتيتُه رَكْضاً وعَدْواً ومَشْياً وأخذتُ ذلك عنه سَمْعاً وسَماعاً وليس كلّ مصدرٍ وإنْ كان في القياس مثلَ ما مضى من هذا الباب يُوضَعُ هذا الموضعَ لأنّ المصدر ههنا في موضع فاعِلٍ إذا كان حالاً**»[2] فإنّ مذهب سيبويه أنّ التقدير فيها قتلته صابراً ولقيته مفاجئاً[3]. إنّ نصب المصادر أعلاه على أنّها أحوال تأتّى من وقوع الأمر وإحداثه وهذا لم يحسن ههنا إلّا لأنّ المصدر في موضع فاعل «**وليس ذلك بقياس**

(١) ينظرالبحث اللغوي عند العرب ص١٢٤.

(٢) الكتاب١/ ٣٧٠.

(٣) ينظر الكتاب١/ ٣٧٠ (الهامش رقم٥).

مطرد كما أنّ باب سقياً لا يطرد فيه القياس فيقال طعاماً وشراباً»(١) يقول الدكتور تمام حسان : «فإذا اصطدم النحوي بفوضى المفردات آثر أنْ يبني قواعده على أمور مطردة فجرد الثوابت التي هي أطر فكرية تقوم من المفردات مقام الأصول التي عنها نبعت هذه المفردات ومنها أخذت، وإنْ لم تنطق العرب بهذه الأصول ولم يكن لها بها علم؛ لأنّها من تجريد النحاة أنفسهم وكانت هذه الأصول من نوعين: أصل وضع، وأصل القاعدة ويمكن لكلّ منهما أنْ يستصحب في الاستعمال وأنْ يعدل عنه إلى الفرع وهذا الفرع إمّا أنْ يكون مطرداً فيقاس عليه كما يقاس على الأصل ، وإمّا أنْ يكون غير مطرد فيحفظ ولا يقاس عليه»(٢). فالمقيس عليه ـ في عرف النحاة ـ شرطه الاطراد. وهنا سيشخص أمامنا سؤال عن ماهية هذا المطرد، هل هو الكثرة التي قد تبدو لأول وهلة مستنبطة من نص سيبويه : «**وقد يقول بعضهم: هذه ناقةٌ وفصيلها راتعان. وهذا شبيهٌ بقول من قال: كلّ شاة وسخلتها بدرهم ، إنّما يريد كلّ شاة وسخلة لها بدرهم ومن قال: كلّ شاة وسخلتها فجعله بمنزلة كلّ رجل وعبد الله منطلقا . لم يقل في الراتعين إلّا النصب لأنّه إنّما يريد حينئذ المعرفة ولا يريد أنْ يدخل السخلة في الكلّ؛ لأنّ كلّ لا يدخل في هذا الموضع إلّا على النكرة والوجه كل شاة وسخلتها بدرهم وهذه ناقة وفصيلها راتعين؛ لأنّ هذا أكثر في كلامهم وهو القياس والوجه الآخر قد قاله بعض العرب »**(٣) ونصه «**وممّا جرى نعتاً على غير وجه الكلام هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ فالوجهُ الرفعُ وهو كلامُ أكثرِ العربِ**

(١) الكتاب ١/ ٣٧٠ (الهامش رقم٥) وينظر شرح السيرافي ٢/٢٥٧- ٢٥٨.

(٢) الأصول تمام ص٦٥.

(٣) الكتاب٢/ ٨٢.

وأفصحهِم وهو القياسُ»[1] فإذا كانت الكثرة هي أصل القياس فكيف ستبدو قضية (ما) العاملة عمل ليس عند أهل الحجاز التي أصبحت أصلاً تُقاس عليه (لات)في نصّه: **« هذا باب ما أُجْرَى مَجْرى لَيْسَ في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يَصيرُ إلى أصله وذلك الحرفُ ما تقول: ما عبدُ الله أخاك وما زيدٌ منطلقاً . وأمّا بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل أي لا يعملونها في شيء وهو القياس؛ لأنّه ليس بفعل وليس ما كليس ولا يكون فيها إضمار. وأما أهلُ الحجاز فيشبَهونها بلَيْسَ إذ كان معناها كمعناها كما شبّهوا بها لاتَ في بعض المواضع وذلك مع الحِين خاصّةً ،لا تكون لاتَ إلّا مع الحين تُضْمِرُ فيها مرفوعا وتَنْصِبُ الحين لأنّه مفعول به»**[2] فهل المراد بالكثرة ههنا الكثرة العددية بين أفراد القبيلة الواحدة من دون نظر لغيرها فيكون استعمالها مطرداً أم هي الكثرة بين القبائل؟. سؤال يشخص من نصه القائل : **«ومثلُ ذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾**[3] **في لغة أهل الحجاز وبنو تميم يَرْفعونها إلاّ من دَرى كيف هي في المُصحَفِ»**[4]. ونصه: **«اعلم أنّ أهل الحجاز يقولون إذا قال الرجلُ: رأيت زيداً مَن زيداً؟ وإذا قال: مررتُ بزيد . قالوا :مَن زيد؟ وإذا قال :هذا عبدُ الله. قالوا: من عبدُ الله؟. وأما بنو تميم فيرفعون على كل حال. وهو أقيس القولين»**[5] مع التنبيه إلى أمر أنّ النحاة قد يقيسون على القليل سماعاً فقد ورد في الكتاب في **«باب ما حذف الياء**

(١) الكتاب ١/٤٣٦.
(٢) الكتاب ١/٥٧.
(٣) يوسف/٣١.
(٤) الكتاب ١/٥٩.
(٥) الكتاب ٢/٤١٣.

والواو فيه القياس وذلك قولك: في ربيعةَ ربعيٌّ وفي حنيفة حنفيٌّ وفي جذيمة جذميٌّ وفي جهينة جهنيٌّ وفي قتيبة قتبيٌّ وفي شنوءة شنئيٌّ وتقديرها شنوعة وشنعيٌّ. وذلك ؛ لأنّ هذه الحروف قد يحذفونها من الأسماء لما أحدثوا في آخرها لتغييرهم منتهى الاسم فلما اجتمع في آخر الاسم تغييره وحذفٌ لازم لزمه حذف هذه الحروف إذ كان من كلامهم أن يحذف لأمرٍ واحد فكلما ازداد التغيير كان الحذف ألزم إذ كان من كلامهم أن يحذفوا لتغييرٍ واحد وهذا شبيهٌ بإلزامهم الحذف هاء طلحة لأنهم قد يحذفون مما لا يتغير فلما كان هذا متغيراً في الوصل كان الحذف له ألزم وقد تركوا التغيير في مثل حنيفة... قالوا في سليمة سليميٌّ وفي عميرة كلبٍ عميريٌّ وقال يونس هذا قليلٌ خبيث وقالوا في خريبة خريبيٌّ وقالوا سليقيٌّ للرجل يكون من أهل السليقة»[1] فهذا القليل صار أصلاً يُقاس عليه. فوقعت عملية القياس لا من جهة الكثرة في العدد لكن من جهة اطراد العملية عند العرب ؛ لأنّهم يحذفون لأمر واحد كما يقول سيبويه فيكون الحذف في حالة زيادة التغيير من باب أولى والقياس أيّد سيبويه في قياسه على (شنوءة) — (شنئيّ) بأنّ (فعُولة) و(فَعيلة) كلّ منهما ثلاثي ، وثالثه حرف لين وانتهى بتاء التأنيث فجعلوا واو شنوءة كياء حنيفة وعاملوها مثلها في النسبة[2]. ونتجه نحو سؤال آخر عن (المطرد) في القياس الشاذ في الاستعمال هل يكون معارضاً للغة؟ فإنْ عارضها كيف ستثبت القواعد بوجود هذا التعارض؟. مثل تلك الاسئلة ولّد اضطراباً انسحب على كثير من الأحكام النحوية ـ عند النحاة الخالفين ـ ذلك الاضطراب الذي تجاوزه سيبويه في معالجاته القياسية. لأنهّ أسس للاطراد

---

(١) الكتاب ٣/٣٣٩.

(٢) ينظر المقتضب ٣/١٣٤ والخصائص ١/١١٥ ،والاقتراح ص٦٢وص٦٧.

ـ في القياس ـ معنى هو موافقة المقيس عليه لقاعدة سواء أكانت هذه القاعدة أصلية مثل رفع الفاعل أم فرعية نحو قياس اسم الفاعل على الصفة المشبهة في العمل في قوله: «**وقد ينبغي في قياس من قال الضَّاربُ الرَّجلِ أنْ يقولَ: الضاربُ أَخي الرجلِ كما يقول: الحَسَنُ الأخِ والحسنُ وجهِ الأخِ**»[1]. فمن المعروف أنّ اسم الفاعل هو الأصل في العمل من الأسماء المشتقة والصفة المشبهة باسم الفاعل «تشبه اسم الفاعل كما يدلّ على ذلك اسمها فلا يفرق بينها وبينه إلّا اختلاف معناهما من حيث هو تجدد وانقطاع بالنسبة لاسم الفاعل ، وهو دوام وثبوت بالنسبة للصفة المشبهة ، ولكنّها ليس بينها وبين المضارع وجه شبه تقاس به عليه فقيست على اسم الفاعل ، فكان القياس على درجتين ثانيهما قياس على ما ثبت بالقياس والاستنباط وانبنى على ذلك حكم نحوي»[2].

فقد حُمل الفرع ههنا على الأصل لأنّ الصفة المشبهة فرع على اسم الفاعل في العمل تبيان ذلك الحمل يوضحه نصّه: «**وقد قال قومٌ من العرب تُرضىَ عربيَّتُهم: هذا الضاربُ الرجلِ. شبّهوه بالحَسَنِ الوجهِ وإنْ كان ليس مثلَه في المعنى ولا في أَحواله إلاّ أنّه اسمٌ وقد يَجُرُّ كما يجر وَيَنْصِبُ أيضاً كما يَنْصِبُ ... وقد يُشبِّهون الشيء بالشيء وليس مثلَه في جميع أحواله وسترى ذلك في كلامهم كثيراً**»[3].

---

(١) الكتاب ١/ ١٩٣.

(٢) الأصول تمام حسان ص١٨٠ وينظر الحمل في لغة العرب ص١٨٢.

(٣) الكتاب ١/ ١٨٢.

نمثّل ذلك بهذا المخطط:

فرع صار أصلاً	فرع مقيس
الصفة المشبهة	اسم الفاعل

فالصفة المشبهة «لم تَقْوَ أن تَعمل عَمَلَ الفاعل[1] لأنّها ليست في معنى الفِعل المضارِع فإنّما شُبِّهَتْ بالفاعل فيما عَملتْ فيه وما تَعْمَلُ فيه معلومٌ إنَّما تَعمل فيما كان من سببها مُعَرَّفا بالألف واللام أو نكرةً لا تُجاوِز هذا لأنَّه ليس بفعلٍ ولا اسم هو في معناه والإضافةُ فيه أحسنُ وأكثر؛ لأنَّه ليس كما جرى مجرى الفعل ولا في معناه فكان هذا أحسنَ عندهم أن يَتباعدَ منه في اللفظ كما أنَّه ليس مثلَه في المعنى وفي قوّته في الأشياء»[2] فيُخلص إلى ترسيخ نتيجة أنّ مفهوم الاطراد لا يرتبط بالكمية والعدد وإنّما يعني:

أولاً: الانسجام مع النظائر دليل ذلك تعقيب سيبويه على بعض الهيئات مثل **(سغاب، جياع، هيام، غراث، عطاش)** ـ في دلالتها على الخلو ـ بعدم اطّرادها؛ لأنّها مختلفة وغير منسجمة؛ إذ يقول: **« وهذه الأشياء لا تضبط بقياس ولا بأمر أحكم من هذا»**[3] لأنّها **«تجيء مختلفة ولا تطّرد»**[4] وفي أفعل التفضيل ما يؤيد ذلك الفهم السيبويهي للاطراد يقول: «هذا باب ما تقول العرب فيه ما أفعله وليس له فعل وإنّما يُحفظ هذا حفظاً ولا يُقاس قالوا: أحنك الشاتين وأحنك البعيرين كما قالوا: آكل الشاتين كأنهم قالوا: حنك ونحو ذلك فإنّما جاءوا بأفعل

---

(١) يراد بالفاعل ههنا اسم الفاعل.

(٢) الكتاب ١/ ١٩٤.

(٣) الكتاب ٤/ ١٥.

(٤) الكتاب ٤/ ٤٢.

على نحو هذا وإنْ لم يتكلموا به . وقالوا: آبل الناس كلهم. كما قالوا: أرعى الناس كلهم وكأنهم قد قالوا: أَبَلَ يأبلُ. وقالوا: رجل آبلُ. وإنْ لم يتكلموا بالفعل، وقولهم: آبل الناس بمنزلة آبلُ منه ؛ لأنّ ما جاز فيه أفعل الناس جاز فيه هذا. وما لم يجز فيه ذلك لم يجز فيه هذا وهذه الأسماء التي ليس فيها فعل ليس القياس فيها أن يقال أفعل منه ونحو ذلك وقد قالوا: فلانٌ آبل منه .كما قالوا: أحنكُ الشاتين»[1].

ثانياً: الاجماع عليه يتكفل بيان ذلك نصه القائل: «وزعم الخليل أنّه كان القياس أنْ تثبت الهمزة في (يُفْعِل) و(يُفْعَل) وأخواتها كما ثبتت التاء في (تفعّلتُ) و(تفاعلتُ) في كلّ حال ولكنّهم حذفوا الهمزة في باب أفعل من هذا الموضع فاطرد الحذف فيه لأنّ الهمزة تثقل عليهم كما وصفت لك وكثر هذا في كلامهم فحذفوه واجتمعوا على حذفه كما اجتمعوا على حذف كلْ وترى وكان هذا أجدر أنْ يحذف حيث حذف ذلك الذي من نفس الحرف لأنّه زيادةٌ لحقته زيادةٌ فاجتمع فيه الزيادة وأنّه يستثقل وأنّ له عوضاً إذا ذهب»[2] وفي الاجماع على أسلوب معين من التعبير ما يجعله أصلاً يُقاس عليه غيره. ويُستشف في ضوء ما تقدم أنّ العربية لها نظامها الخاص ومنطقها ويأتي القياس معياراً لضبط حركة الاستعمالات اللغوية فيها بنزعتيه العقلية التي يُجرد فيها واللغوية.

---

(١) الكتاب ٤/ ١٠٠.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٧٩.

المبحث الثاني: طاقة مدلول القياس في دواله[1].

تحوّل كتاب سيبويه في الدرس النحوي إلى نصّ تشريعي لقواعد العربية منطلقاً من نصوصها في بناء لبناته ، في محاولة استنباط القواعد وصولاً إلى نظرية تُفسر تراكيب العربية ويُفاتش نصوصها من جاء بعده من نحاة خالفين ، ودراسة المصطلحات القياسية تعكس أهمية علم أصول النحو، ولّما كانت مسؤولية البحث تقتضي التساؤل عن السبب بالإجابة فإنّنا ننتخب ههنا شيئاً ثابتاً من جهة التسمية يكون كلًّا لمتغيرات من المفردات نطلق عليها (دوالّ القياس) أو (مصطلحات القياس) مما يُؤثر القول إنّ تناول أيّ موضوع بالدرس لاشكّ أنّ من ورائه فائدة متوخاة تتمثّل في الأثر الوظيفي الذي يؤديه ذلك الموضوع في ذلك العلم. فالسؤال الذي يشخص أمامنا الآن عن آفاق فائدة التلون الاصطلاحي ـ إنْ جاز لنا التعبير ـ للقياس في الكتاب ونستطلع جواباً أنّ استعمال المصطلحات يسهّل فلسفة الكلام العربي ويبيّن علله، فيسهل بذلك تعليمه عبر عملية الإقناع بتحصيل الجواب فمن هذه المصطلحات استعماله المرادف (شبّه) معللاً به لقياس تمثيلي في المستوى الصوتي ويقصد بالقياس التمثيلي ههنا «أنْ يكون لدينا بناء لغوي يحتوي على صوت معروف حكمه، وبناء آخر يحتوي على صوت مجهول حكمه، وهناك تشابه بين البنائين فنتعلل باستخدام القياس التمثيلي لنقل حكم الصوت في البناء الأول إلى الصوت في

---

(١) عرضت الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور سعيد جاسم الزبيدي للمصطلحات المرادفة للقياس ينظر الشاهد واصول النحو ص٢٤٠- ٢٥٢ والقياس في النحو العربي نشأته وتطوره ص١٦٢. وننأى عن التكرار بانتخاب مالم يذكراه بما يفيد منها الكشف عن معالجة سيبويه للنصوص قياساً.

البناء الثاني»[1]. مصداق ذلك جاء في نصّه: «...وقد قال قوم فأمالوا أشياء ليست فيها علة مما ذكرنا فيما مضى، وذلك قليل . سمعنا بعضهم يقول: طُلِبْنا وطَلَبْنَا زيدٌ كأنّه شبَّه هذه الألف بألف (حُبلى)، حيث كانت آخر الكلام ولم تكن بدلاً من ياء»[2] إذ إنَّ إمالة الألف من شروطها أنْ يأتي ما بعدها مجروراً، إلّا أنّ بعض العرب أمالوا كلمات لا تنطبق عليها شروط الإمالة وسبب ذلك عند أبي بشر هو تشبيههم الألف التي أمالوها بألف التأنيث في نحو(حبلى).

ويخصب هذا المرادف القياسي التشبيهي عند سيبويه في المجال النحوي إذ يستعمل (يشبهونها) في حمل (ما) على (ليس) عند الحجازيين ؛ لأنّها في معناها فعملت قياساً على (ليس) باعتماد الشبه المعنوي .

أمّا بنو تميم فيجرونها مجرى (هل)؛ لأنّهما حرفان من حيث إنّهما غير مختصين ، فلم تعمل (ما) قياساً على (هل) إذ يقول: «هذا باب ما أُجْرَى مجْرى لَيْسَ في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يَصيرُ إلى أصله . وذلك الحرفُ ما تقول: ما عبدُ الله أخاك وما زيدٌ منطلقاً . وأمّا بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل أي: لا يعملونها في شيء وهو القياس؛ لأنه بفعل وليس ما كليس ولا يكون فيها إضمار وأما أهلُ الحجاز فيشبَهونها بلَيْسَ إذ كان معناها كمعناها»[3].

فاستعماله لعبارة(يشبهونها) يجلي لنا علة عمل (ليس) لما بينهما من شبه معنوي، ولتمكين هذا القياس في الذهن استعان سيبويه بمشابهة لبيان هذا القياس متأتية من ربط (ما) بـ(لات) ولم يكن حمل (ما) على (ليس) متوقفاً على

---

(١) التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته عند البصريين دراسة ابستمولوجية ص٣٤.

(٢) الكتاب٤ /١٢٧.

(٣) الكتاب١ /٥٧.

حمل (لات) على (ليس)، فقال: «وأما أهلُ الحجاز فيشبَهونها بلَيْسَ إذ كان معناها كمعناها كما شبّهوا بها لاتَ» [١]. فيُستشف من ذلك تكوّن الأنساق أفقياً بصورة مشابهة مقرّاً استواءهما بالمؤشر الدلالي. ويُجري الأمر نفسه في ظلّ تأسيس يعلّل به حكم الاضمار في(ليس) و(لا يكون) إذ يقرن بين النظير والنظير الذي يشبهه فيورد صورة أخرى في معالجته القياسية تتجسّد بلفظ (النظير) قائلاً: «**ونظير (لات) في آنّه لا يكون إلّا مضمراً فيه (ليس) و(لا يكون) في الاستثناء إذا قلت: أتوني ليس زيداً، ولا يكون بشراً**» [٢] فتناظرُ (لات) و(ليس) و(لا يكون) أتاح لأبي بشر تعليلاً على وفق رؤيته التأويلية استُجيز فيهنّ الاضمار، فسلكت هذه العوامل السلوك نفسه باستتار المعمول فيها في الاستثناء. فمن خلال استعمال عبارة (النظير) تنعكس لنا مسألة مهمة وهي كمون ربط الموضوعات النحوية المختلفة بعضها بذكر بعضها الأخر وهو ما يكشف عن جانب مهم في منهجية بحثه ودراسته.

وربما وجدتَ أنّ فعلَ القراءة التأملية لنصوصه في إطارها التعليمي يجعلنا أمام استقراء لعملين منظراً فيهما ـ سيبويه ـ بـ(النظير)ومؤسساً لأحكام في النظام اللغوي أنّ: «الجزم في الأفعال نظير الجرّ في الاسماء ومن ثمّ لم يضمروا الجازم كما لم يضمروا الجار»[٣]. ومثل هذا البحث الميداني المعتمد على الاستقراء يُفسّر لنا نظام المقايسة الذي يُعلّل للأحكام. تنقيب ذلك تجليه لنا مصطلحاته القياسية المترادفة.. وقد يجعلك الإطار التعليمي السيبويهي أمام نشاط نظري من دون

(١) الكتاب١ /٥٧.

(٢) الكتاب١ /٥٧.

(٣) الكتاب١ /١٩.

اللجوء إلى كلام مرويّ عن العرب إذ ينتقل باستعمال لفظ (النظير) من قياس المتكلم إلى قياس النحوي وذلك في الباب الذي عقده مفترضاً فيه أبنية اشتقها من الأفعال المعتلة قياساً على أفعال صحيحة قائلاً فيه: **هذا باب ما قيس من المعتل من بنات الياء والواو ولم يجيء في الكلام إلّا نظيره من غير المعتل ، تقول في مثل حَمصيصةٍ من رميتُ رمويّةٌ . وإنّما أصلها رَمييّةٌ ... وتقول في أفعولةٍ من غزوت أغزوّةٌ وقد جاءت في الكلام أُدْعُوةٌ وقد تكون أدعيّةٌ على أرض مَسنيّة»**[1]. وعلى النهج نفسه وبأسلوب علمي ينتقل سيبويه للربط بين موضوعين مختلفين في النحو باستعمال مرادف(جرى مجرى) بغية إيضاح القياس في حمل اسم الفاعل على الفعل المضارع فمعناه وعمله مشابه للفعل المضارع حيث يقول: **«هذا باب من اسم الفاعل الذى جَرَى مَجرى الفِعل المضارِعِ في المفعول في المعنى، فإذا أردت فيه من المعنى ما أردت في يَفعَلُ كان نكرةً منوّنا وذلك قولك: هذا ضارِبٌ زيداً غداً . فمعناه وعملُه مثلُ هذا يَضْرِبُ زيداً غداً . فإذا حدّثت عن فعلٍ في حينِ وقوعِه غيرِ منقطعٍ كان كذلك . وتقول: هذا ضاربٌ عبدَ الله الساعةَ. فمعناه وعملُه مثلُ هذا يَضرب زيداً الساعةَ. وكان زيدٌ ضارباً أباك. فإنَّما تُحدّث أيضاً عن اتّصال فعلٍ في حال وقوعه، وكان مُوَافقاً زيداً فمعناه وعملُه كقولك كان يَضرب أباك ويوافِقُ زيدا . فهذا جرى مجرى الفعِل المضارعِ في العمل والمعنى منوَّنا»** [2].

ينتظم ههنا تصور نسقي يكشفه لنا سيبويه بطريقته عبر نسق العلاقة بين

---

(١) الكتاب٤/٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٢) الكتاب١/١٦٤. وينظر١/٣٣و١/١٠٨و١/١٦٤و١/١٨٩. ومثل ذلك ما أورده عن الصفة المشبهة التي شُبّهت بالفاعل فيما عملت فيه وتسميتها إيّاها صفة مشبهة.

العناصر المكونة للبنى وفي إطار تحليل يسمح بالوصول إلى وظائفها فيجعلنا أبو بشر إزاء مستويين، مستوى الفهم ومستوى التأويل إذ يغلب أنْ يسلك اسم الفاعل السلوك العاملي للفعل، فيجلب معمولاً يرتبط به من جهة دلالته على الحدث كما يجلبه الفعل من تلك الجهة وهذا ما يصفه سيبويه بالإجراء مجرى الفعل. ولعلّه من المفيد ههنا أنْ نقول إنّ هذا الوعي السيبويهي يستمدّ شرعيته العلمية الرياضية من الفاعلية الذهنية الخليلية الفراهيدية ، إذ تمثّل هذا الوعي في محطة (يجري مجرى) إذ إنّنا لو قرأنا جملة رياضية مكونة من حاصل جمع (١+٢)=٣ فإنّ معنى هذه الجملة ليست نتيجة الجمع الـ (٣) . إنّما هو حاصل تضافر وتكامل خمسة معان هي معنى الواحد، ومعنى الزائدة، ومعنى الاثنين ، ومعنى المساواة، ومعنى الثلاثة (النتيجة). فثمة خيال في البحث في ما وراء المادة ندرك أثره ونشعر به في سعي سيبويه للكشف عن معنى القياس بشكل مدهش صار فيه معنى (يجري مجرى) ذا تأثير قياسي من جهة توظيف (يجري) وهي كالعددين (١+٢) مع (مجرى) وهي (=) في جملته النسقية فقاد الجمع بينهما إلى نتيجة(٣) المجرى عليه فساوت عبارة (يجري مجرى) عبارة القياس.

١ +٢	=	٣
(جرى)	(مجرى)	(المجرى عليه)

وهي سمة لافتة للنظر تتسم بتكثيف دلالي بحيث يبدو كأنّه قناة للتفاعل الحي حينما أحال سيبويه العقل إلى الحس في تلمّس مكونات مادته العلمية بالتجريب بعد أنْ كانت ذهنية إلى تطبيق عملي فصار تطبيق هذا المعنى ممكناً «فالمعنى ليس شيئاً قبلياً سابقاً على وجود الشيء إنّما يتموجد في الشيء ويصبح مؤهلاً للكشف

وللبناء بوساطة التجربة النظرية والتجربة العملية»[١].

ومثل هذا التجدد لمظاهر تلك الفاعلية لا يذهب بنا إلّا إلى الإبداع. تأكيد ذلك استعماله مرادف قياسي آخر يعلّل به للمسألة وهو (ضارعت)، إذ يقول: «**وإنّما ضارعتْ أسماء الفاعلينَ أنّك تقول: إنّ عبد الله لَيَفعلُ. فيوافِقُ قولَك: لفاعل حتّى كأنّك قلت: إن زيداً لفاعلٌ فيما تُريد من المعنى**»[٢]. فـ(اسم الفاعل) و(يفعل) يعلّل سيبويه مضارعتهما بقوله: «**لاجتماعهما في المعنى**»[٣] فهما مشتملان على (الحدث) و(الزمن)[٤] الأمر الذي كمَن فيه قدرتهما على العمل باستدعاء المعمول، فجاءت بنية العبارات القياسية في نصوصه مكتفية بنفسها بوصفها نقاط ارتكاز يُنطلق منها إليه لما تحتويه هذه البنية من علاقات مترابطة يتم تحديدها باستمرار لاستكشاف أبعاد النصوص وقراءتها قراءة مثمرة ضمن حوارية العملية التأويلية، إذ تُرصد من دلالة الدال (ضارعت) أنّ هذه المضارعة عامل مهم في القياس بوصفها مفهوماً تحليلياً لبناء علم النحو. فالنحو كما يثبت نقلاً يثبت قياساً فالمعنى اللغوي للمضارع يصرّح به أصحاب المعجمات أنّه المشابهة[٥]. تأكيد هذا المدلول يُستشف من نصّه: «**واعلم أنّ ما ضارع الفعلَ المضارِعَ من الأسماء في الكلام ووافقه في البناء أُجريَ لفظُه مُجرى ما يَستثقِلون**

---

(١) ابستمولوجيا المعنى والوجود (نقد التطورية) ص١٥.وينظرنظرية البيان العربي ص٦١.

(٢) الكتاب ١/ ١٤.

(٣) الكتاب ١/ ١٤.

(٤) تجب الإشارة ههنا إلى أنّ الزمن في الفعل هو جزء من صيغته وفي اسم الفاعل جزء من التركيب النحوي من أجل ذلك كان اسم الفاعل في نص سيبويه مرهوناً بالإرادة.

(٥) ينظر العين ١٥/٣ ،والقاموس المحيط ص٩٥٨، وتاج العروس ٤١٢/٢١ ، وأساس البلاغة ص٥٦١.

ومنعوه ما يكون لَمَا يَستخفُّونَ وذلك نحو أَبْيَضَ وأَسْوَدَ وأَحْمَرَ وأصفرَ فهذا بناء أَذْهَبُ وأَعْلَم فيكون في موضع الجرّ مفتوحا استثقلوه حين قارب في الكلام ووافق في البناء»[1]. ونصه (في باب ما ينصرف وما لا ينصرف وهو يسأل أستاذه عن السبب الذي دفع العرب إلى عدم صرف (أَفْعل) «**فما باله لا ينصرف إذا كان صفة وهو نكرة؟ فقال: لأنَّ الصفات أقرب إلى الأفعال فاستثقلوا التنوين فيه كما استثقلوه في الأفعال، وأرا دوا أنْ يكون في الاستثقال كالفعل إذ كان مثله في البناء والزيادة وضارعه، وذلك نحو: أَخْضَرَ ، وأَحْمَرَ ، وأَسْوَدَ وأَبْيَضَ»**[2] فعلى الرغم من «أنَّ التنوين ملازم للتنكير فإنّهم لم يصرفوا هذه الكلمات برغم تنكيرها قياساً على الأفعال لوجود وجه شبه بينهما هو البنْية والزيادة، فنقلوا حكم الأفعال في عدم التنوين إلى هذه الصفات، وقد يحلو للنحاة أن يسمّوا هذا القياس التمثيلي قياس أصل على فرع، ما دام أنَّ الأسماء أصل والأفعال فرع»[3]. ولعمري أنّ في هذا الطرح تذكير لمتلقي سيبويه بما سبق من موضوعات وربط بينها بما تأتلف معه الأبواب ومثل هذا الابتكار العلمي المتسم بالسمة التعليمية لا يُفاجئنا ؛لأنّ مكمنه ذهن سيبويه .

---

(١) الكتاب ١ /٢١.

(٢) الكتاب ٣/١٩٣.

(٣) التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته عند البصريين دراسة ابستمولوجية ص١٨٦.

المبحث الثالث: دينامية العلاقات القياسية.

هيّأ سيبويه الأرضية للكلمات المرادفة بتجريدها من مراكزها الجوهرية أي محتوياتها الدلالية البسيطة ـ في نزعة نابذة ـ لتكون ذات محتويات بوسعها أنْ تقف ثابتة ومستقرة للتعبير عن القياس في نصوصه فهناك حالة تامة للتوازن يمكن عبرها استعادة القياس من نسقه الآني إلى نسقه الإجمالي في حركة تفكيرية ضمن سلامة استثمار ارسال الأفكار إلى العالم الخارجي بأنْ تكون ألفاظ القياس في تعايش سلمي بعضها مع بعض في كتابه بتسخيرها لانتاج مباشر للمضمون، وهو حرٌ في تجديدها ؛ لأنّه بصدد واقع مادي مباشر موصول بالانتفاع يقول نصر حامد أبو زيد: «إنّ اللاعب يختار أي نوع من اللعب يريد أنْ يشارك فيه، ولكنّه حين يدخل اللعبة يصبح محكوماً فيها بقوانينها الذاتية»[1]. إلّا أنّ أبا بشر يبدع في عمله الفني في القياس في محاولة عرض هذه القوانين الذاتية لتكون وسيطاً له ديناميته باعتماد عنصرين:

الأول: شفرة أولية تستدعي العمل النظري.

والآخر: شفرة ثانوية تستدعي مبدأ التعاون.

ونومئ إلى أصناف العلاقات التي انضوت فيها حمولة القياس حتى صارت لعبة مصطلحات القياس ـ في ظني ـ من أجمل ما صنع الذهن السيبويهي بصورة تستحق التقدير لما تحتويه هذه المصطلحات من فن العصمة من الخطأ.

١ـ علاقة إبدال[2]: يُدرج سيبويه مرادف (وما أشبهه) في «(هذا باب ما

---

(١) اشكالية القراءة وآليات القياس ص٤٠.

(٢) يشيع هذا النوع من القياس في العمل للمستزيد، ينظر١/٢٥٣، و١/٢٥٠، و٣/١٦٠، و٤/٤٨٤ ـ ٤٨٥.

يَنتصب من الأسماء التي أُخذت من الأفعالِ انتصابَ الفعل استفهمتَ أو لم تَستفهم ، وذلك قولك: أَقائماً وقد قَعَدَ الناسُ وأَقاعِداً وقد سار الرَّكْبُ ... وإذا ذكرتَ شيئاً من هذا الباب فالفعل متّصِلٌ في حال ذكرِك وأنت تَعمل في تثبيته لك أو لغيرك في حال ذكرِك إيّاه كما كنتَ في باب حمداً وسَقياً وما أشبهه»[١].

إنّ المقاربة الدلالية بين (ما اشبهه) و(القياس) ينجم عنها قراءة بدائل أخرى للنسق تحمل المعنى نفسه ،وتُفهم هذه النظرة التفسيرية في نحو «أقائماً وقد قعد الناس، وأقاعداً وقد سار الركب»[٢] من قوله: «وذلك أنّه رأى رجلاً في حال قيامٍ أو حال قُعودٍ فأراد أن ينبِّهه فكأنّه لَفَظَ بقوله: أتقومُ قائما وأَتَقْعد قاعدا ولكنَّه حذف استغناءً بما يرى من الحال وصار الاسمُ بدلاً من اللفظ بالفعل»[٣] إنّ هذه الاسماء تجري مجرى المصادر في هذا الموضع، وهو أمر جعله أبو بشر مرهوناً بعنصرين رئيسين وظّف عبرهما أساليبه التعبيرية ومحاججاته البرهانية :

الأول: المقام وهو موصول بحضور المتلقي حقيقة أو افتراضاً .

والآخر : البيان المتصل بالوظيفة الإقناعية في نصوصه .

إنّ تأمّلاً معمّقاً في طبيعة المقام التي راعاها سيبويه وفّرت له نمطاً من السياق بما كفل فيه تأثيراً في المتلقي يمكن تأمل فاعليته في إبداعه الادائي لمعنى القياس . ويُستكنه القياس من لفظ شبهوها في نص سيبويه القائل: **«وكذلك جميع ما تصرَّفَ من فعله إلاّ (تَقولُ) في الاستفهام شبّهوها بتَظُنُّ، ولم يجعلوها كيظن وأظنّ في الاستفهام ؛ لأنّه لا يَكادُ يُستفهَمُ المخاطَبُ عن ظنّ غيره ، ولا يُستفهَم**

---

(١) الكتاب ١/٣٤١- ٣٤٢.

(٢) اشكالية القراءة وآليات القياس ص٤٠.

(٣) الكتاب ١/٣٤٠- ٣٤١.

هو إلاّ عن ظنّه .فإنّما جُعلتْ كتَظنّ كما أنّ ما كَليسَ في لغة أهل الحجاز ما دامت في معناها، وإذا تَغيّرت عن ذلك أو قُدّم الخبرُ رجعتْ إلى القياس، وصارت اللُّغاتُ فيها كلغة تميم ، ولم تُجْعَلْ قلتُ كظننتُ لأنّها إنّما أصلُها عندهم أن يكون ما بعدها محكيا فلم تُدْخَلْ في باب ظننتُ بأكثرَ من هذا كما أنّ ما لم تَقْوَ قوّةَ ليس ولم تقع في كلّ مواضعها لأنّ أصلها عندهم أن يكون ما بعدها مبتدأ»[١] إذ يُصرّح سيبويه في نصه أنّه لا يقع بعد (قال) ومشتقاته إلّا ما كان كلاماً يعني لا يقع بعد هذا الفعل إلّا ما كان جملة تامة ،وأُستُثني من ذلك (تقول) في أسلوب الاستفهام على أساس: «أنّ ناسا من العرب يُوثَق بعربيّتهم وهم بنو سُلَيْمٍ يجعلون بابَ قلتُ أجْمَعَ مثلَ ظننتُ»[٢] فأجروه مجرى الظن فقالوا: «متى تقول زيداً منطلقاً وأتقول عمراً ذاهباً »[٣]. فالقياس ههنا قياس معنوي في وجه الشبه الجامع بينهما، ثمّ أراد سيبويه أنْ يُوضّح هذا القياس فذكر نظيراً له، وهو قياس (ما) الحجازية على(ليس) للشبه المعنوي، وهو ما ينكشف عبره سيطرة سيبويه على قوالب اللغة وأعراضها التركيبية .

٢ـ علاقة تكافؤ[٤]: يجري تطبيق هذه العلاقة على ممارسات خطابية يقف سيبويه فيها عند الماهية السطحية والتحتية للأحداث الكلامية فيُبيّن العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية في البنيتين المنتجتين لحدث كلامي متماسك

(١) الكتاب ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) الكتاب ١/ ١٢٤.

(٣) الكتاب ١/ ١٢٣.

(٤) تم استقراء هذه الدلالة من عبارات مرادفة مثل (يجري مجرى) ينظر ١/ ١٠٨ ، ولفظ المنزلة ينظر ١/ ٥٧ الذي ورد ذكره نحواً من (١٧٩٧) في إشارة إلى أنّ اللفظ المذكور أو التركيب يؤخذ بالمنزلة المذكورة نفسها حكماً وتعليلاً.

ومتجانس، والهدف من هذا القياس طرد الأحكام النحوية وتأصيلها؛ لأنّ الحكم في هذا القياس قد ثبت للمقيس عليه والمقيس وهو أكثر الأنواع شيوعاً ومنه ما ورد في «**باب الأسماء التي يجازى بها وتكون بمنزلة الذي وتلك الأسماء من وما وأيّهم، فإذا جعلتها بمنزلة الذي قلت: ما تقول أقول فيصير تقول صلةً لما حتى تكمل اسماً فكأنك قلت الذي تقول أقول**»[1]. **ومثل ذلك قوله في** «**باب مجرى أيّ مضافاً على القياس وذلك قولك: اضربْ أيّهم هو أفضل واضربْ أيّهم كان أفضل واضربْ أيّهم أبوه زيد جرى ذا على القياس؛ لأنّ الذي يحسن هاهنا**»[2].

٣ـ علاقة مقارنة: باعتماد الاداء اللغوي على الاتساق المعجمي والنحوي والتماسك الدلالي والتوافق الاستعمالي ،قارن سيبويه عبر المرادف (تُحمل) بين (تباً)و(ويحاً) في باب استكرهه النحويون ويصفه سيبويه بأنّه قبيح؛ لأنّهم جعلوا «**التَّبَّ بمنزلة الوَيْحِ وجعلوا** «**ويحٌ** «**بمنزلة التَّبّ فوضعوا كلَّ واحد منهما على غير الموضع الذي وَضَعَتْه العربُ ، ولا بُدَّ لوَيْحِ مع قبحها من أن تُحْمَلَ على تَبٌّ؛ لأنّها إذا ابتدُئَتْ لم يجزْ حتى يُبْنَى عليها كلامٌ وإذا حملتَها على النصب كنتَ تَبنيها على شيء مع قُبْحِها ،فإذا قلتَ: وَيحٌ له. ثم ألحقتَها التبَّ، فإنّ النصبَ فيه أحسنُ ؛ لأن تبًّا إذا نصبتَها فهي مستَغنيةٌ عن لَك، فإنّمّا قَطعتَها من أوّلِ الكلام كأنك قلتَ :وتبًّا لك فأجريتَها على ما أجرتْها العربُ**»[3]. لقد احتكم سيبويه إلى البنية العميقة في المقارنة بين تفرعات الخطاب الدعائي فاطلق المرادف (تُحمل) لما في

---

(١) الكتاب ٣/ ٦٩. وينظر١/ ١٦٤.

(٢) الكتاب ٢/ ٤٠٣.

(٣) الكتاب ١/ ٣٣٤.

الخطاب الدعائي من تشعّب البنية الادائية ويعدّ سيبويه أول من تفطن إلى هذا التفسير الدلالي لهذه الاجراءات الدعائية التي عوّل في استكناهها على تشخيص حدودها الواقعية وأبعادها الاجتماعية(١).

٤ـ علاقة إجمال :لا يمكن لأيّ استدلال قياسي أنْ يكون منتجاً إذا لم يحتو على قضية كلية على الأقل فبقدر تصور تشابه الاشياء يمكن أنْ يُتصوّر شيء ما أكثر، والكلية لا تكون إلّا من ذلك فقد عدّ سيبويه القياس في بعض المواضع مولّداً بوصفه حقلاً غنياً بالتدليل في قوله: «**ليس في الأفعال المضارعة جرٌّ كما أنّه ليس في الأسماء جزم**»(٢). فهو ينفي احتمال الاشتراك بين الفعل والاسم في الجزم والجر ويحفظ لكلّ واحد منهما اختصاصه، لكنّ مجموع المدركات الكلية في العلم قد تكوّن إطاراً عاماً للتفكير في الفروع وللبرهنة على علاقة الإجمال ـ بالاشتراك أو عدم الاشتراك ـ وتحت هذا المبدأ الكلي ينضوي كلّ ما كان آخره ألف ونون على (فعلان ـ فعلى) في التصغير وفقاً لقوله: «**واعلم أنّ كلّ شيء كان آخره كآخر فعلان الذي له فعلى وكانت عدّة حروفه كعدّة حروف فعلان الذي له فعلى توالت فيه ثلاث حركات أو لم يتوالين اختلفت حركاته أو لم يختلفن ولم تكسره للجمع حتى يصير على مثال مفاعيل فإنّ تحقيره كتحقير فعلان الذي له فعلى**»(٣) وينتخب سيبويه مرادفاً قياسياً آخر هو(جميع) تكمن فيه طاقة قياسية جبارة تختص بالعمل ـ في ظلّ انبناء القياس على المشابهة لفظاً أو معنى أو حكماً أو عملاً

---

(١) قد أقرّ هذه الحقيقة سلفاً ابن يعيش بقوله : (ولا أعلم أحداً تعرض لتفسير ذلك إلاّ سيبويه) ينظر شرح المفصل ١٢١/١. والبحث الدلالي في كتاب سيبويه ص٢٦٩.

(٢) الكتاب ١٤/١.

(٣) الكتاب٣/٤٢٠.

ـ إذ يقول: «**واعلم أنّ المفعولَ الذي لا يتعداهُ فعله إلى مفعول يَتعدّى إلى كلّ شيء تَعدّى إليه فعلُ الفاعل الذي لاَ يتعدّاه فعلُه إلى مفعول وذلك قولك: ضرِبَ زيدٌ الضربَ الشديد وضُرِبَ عبدُ الله اليومينِ اللّذينِ تَعْلَمُ لا تجعلُه ظرفا، ولكن كما تقول: يا مضروبَ الليلةِ الضربَ الشديدَ وأُقْعِدَ عبدُ الله المُقْعَدَ الكريمَ فجميعُ ما تَعدَّى إليه فعلُ الفاعلِ الذي لا يَتعدَّاه فعلُه إلى مفعولٍ يَتعدَّى إليه فِعْلُ المفعول الذي لا يَتعدَّاه فعلُه**» [1] ينطلق الفهم السيبويهي للتعدي من جهة ملازمته حقل الربط العاملي فالفعل الذي يصفه المتأخرون بأنّه لازم هو عند سيبويه متعدّ إلى الفاعل في الجملة وكذلك هو متعدّ إلى اسم الحدثان (المفعول المطلق)، ويتعدى كذلك إلى اسم الزمان والمكان نحو «**ذهبتُ أمسِ وذهبتُ وجهاً من الوجوه**»[2]. فيقيس سيبويه الفعل اللازم على الفعل المتعدي عبر لفظ (جميع) فالتعدي عنده مفهوم تكويني يتمثّل فيه مضمون العمل النحوي للفعل إذ يقوم الفعل بتكوين الجملة باستدعائه الفاعل والمفعول وبقية المكونات مما يقتضيه المحل ويريده المتكلم «ويتضح بذلك أنّ تقسيم المتأخرين للفعل قسمين لازم ومتعدّ أدّى إلى ضياع المفهوم الذي اعتمده سيبويه وتحوّل التعدي إلى مفهوم شكلي ينظر إلى وجود المفعول في الجملة فإذا نصب الفعل مفعولاً فهو متعدّ ،وإذا لم ينصب مفعولاً فهو لازم»[3]. بيد أنّ أبا بشر يقيس الأفعال اللازمة جميعها على الأفعال المتعدية في مستوى البناء الخطي الذي تظهر فيه منزلة الفعل تليها المجالات التي أُفرغت للوظائف النحوية أي :

---

(١) الكتاب١ /٤٢.

(٢) الكتاب ١ /٣٤.

(٣) مفهوم الجملة عند سيبويه ص١٥٧.

الفعل + الفاعل + مجال ٠٠٠ + مجال ٠٠٠ + مجال ٠٠٠

و«بهذا تُفهم الجملة الفعلية على أنّها شكل الامتداد الخطي الذي ينتجه عامل فعلي»[١].

٥ـ علاقة سبب ونتيجة : ينتزع سيبويه لفظ (اللازم) لمصادر بنات الأربعة بأنْ تجيء قياساً على مثال (فعْلَلة) إذ يقول: «فاللازم لها الذي لا ينكسر عليه أنْ يجيء على مثال فعللة، وكذلك كل شيء ألحق من بنات الثلاثة بالأربعة وذلك نحو دحرجته دحرجةً وزلزلته زلزلةً وحوقلته حوقلةً»[٢].

إذ لا يكتفي أبو بشر بالإشارة إلى اللازم الذي يجب أنْ تكون عليه مصادر بنات الأربعة ،بل يتوغل في توجيه سيرورتها بإعطاء السبب فالتاء لاحقة تعدت نطاق دلالة التأنيث وفُرِّغت وظيفتها التصريفية لتكون عوضاً من الألف بعد وظيفتها الأولية المعلومة بقوله: «**إنّما ألحقوا الهاء عوضاً من الألف التي تكون قبل آخر حرف وذلك ألف زلزالٍ وقالوا : زلزلته زلزالاً وقلقلته قلقالاً وسهرفته سرهافاً ، كأنّهم أرادوا مثال الإعطاء والكذاب؛ لأنّ مثال دحرجتُ وزنتها على أفعلتُ وفعلتُ**»[٣].

ونخلص مما سلف إلى القول إنّ أبا بشر جمع في بحثه القياسي بين محورين رئيسين:

---

(١) نظرية العامل في النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ص٨٨ وينظر المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه ص١٠.

(٢) الكتاب ٤/ ٨٥. ومعنى حوقله دفعه ينظر اللسان (حقل).

(٣) الكتاب ٤/ ٨٥.

الأول: ايصال المعنى[1] المألوف (المباشر) أو التداولي بإخضاع وسائله إلى أساليب يمكن أنْ نصفها بالوضوح والبعد عن التأويل ، فلا يجد المتلقي صعوبة في إدراك المقصد؛ لانبناء ذلك الفهم على اشتراك ويتمّ ذلك عبر المحور.

والآخر: وهو فنية الاتصال، بمعنى آخر تأثير بنية العمل في المتلقي . وهي غاية عند سيبويه، أعدّها قضية إبداع لديه لما كمَن فيها من اجتهاد في وسائل الايصال بالاعتماد على العقل والتجربة سعياً إلى إقناع المتلقي عبر لغة الأداء معجماً وتركيباً وبناءً في إطار حوار مشتمل على مكان أو شخوص أو أحداث أو مشاهد .

وعليه يمكن تلمس معيار (الاعلامية) [2] في معالجته للنصوص قياساً عبر مستويين:

الأول: ويتضمّن الحد الأدنى من الإعلامية تمّ تحقُّقه عبر الإفهام والفائدة التي سعى سيبويه في إيصالها إلى متلقيه.

والآخر: ويتضمّن الحد الأعلى من الإعلامية تمثّل تحقّقه في الجدة والإبداع في التعبير. وكلّ هذا تمّ في وحدة عضوية نامية في كتابه بما لا يمكن لنا إلّا بالإشارة إليها ، وهو بشأن تحليل العربية عبر ترابط لفظي ومعنوي بين مفردات القياس في ممارسة سيبويه العملية لمفهومات القياس التنظرية المنتسبة في الغرض التضمني

---

(١) يمكن أن نعنون لها (لغة العمل).

(٢) يقصد بمعيار الاعلامية ما يتضمنه النص من معلومات تهدف إلى إقناع المتلقي أو عدم إقناعه .ينظر أصول المعايير النصية ص١٩٦ ،ومدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية دي بوجراند ودريسلرص١٢وص٣٢وص٣٣. ،وينظر نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري ص٦٦- ٨٦.

الوظيفي له بتسخير ما هو فني لأغراض انتفاعية مباشرة أو عقلية محددة ،وهو موضوع تتجلى فيه نزعة تقعيدية وهو ما يعني وجود استمرارية دلالية تجلّت في منظومة القياس عبر العلاقات الرابطة بين مترادفاته .

وبمعنى آخر غاية البحث الذي خضنا القول فيه إنّما هي الكشف عن مفهوم القياس عبر بعده الدلالي القارّ في دوالّه التي أتخذها سيبويه وسائل اجرائية كيما يحلّل النصوص وصولاً إلى دلالة القياس العامة أو الكلية ،وهي قصدية سيبويهية مرتكزة على فطرة لسانية.

نتائج البحث

بعد الوقوف عند طروحات سيبويه الرصينة في القياس نجمل أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج:

١ـ جعل سيبويه معنى القياس ثابتاً في مكوناته متعدداً في تطبيقاته كساه علمية بمعطيات تجربة من دون فصل عن التجريد الذهني، وباعتماد قرب من نبض الواقع من جهة الحاجة إليه.

٢ـ إنّ استعمال المرادفات القياسية ليست عملية عفوية لاحظّ لها من التفكير بل هي قصدية اسهمت في تنمية الإقناع بوعي سيبويهي، وهذا ما يشعر به المتلقي عبر نصوص الكتاب في ظلّ منهج علمي متسم بالدقة وسعة الاطلاع خائضاً فيه المسائل النحوية باقتدار علمي ومنطقي سليمين.

٣ـ أخذ المعنى التعليمي مساحة واسعة في إيصال مضمون القياس إلى المتلقي وإنْ انفتح في الوقت نفسه على المعنى العلمي فالمعنى الأول يقول النتيجة وكيفية تحققها عبر العناية بتعليم متلقيه، والمعنى الثاني ينفتح فيه الاجتهاد عبر الوعي بالمتعلم فتتجدد وسائل توجيه المبدع إلى كيفيات العمل في تطبيقاته.

٤ـ تفطن سيبويه إلى قيمة من قيم القياس أنّه صورة أخرى للسماع يسهم الجانب المنطقي في تشكيلها على صعيد مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية.

٥ـ اجتمعت في تناول القياس عند سيبويه أربع درجات:

الأولى: اكتشاف الأدلة.

الثانية: تنظيمها بشكل يظهر ارتباطها.

الثالثة: إدراك الارتباط في كلّ جزء من الاستدلال .

الرابعة: استخراج النتيجة.

٦ـ أثبت البحث أنّ الاطراد عند سيبويه لا يرتبط بالكمية والعدد بل هو موافقة المقيس عليه لقاعدة سواء أ كانت أصلية أم فرعية.

٧ـ يُستنتج من تحليلات سيبويه للنصوص أنّ القياس عنده هو جملة الأصول أي القواعد الأصلية التي وضعها النحويون لتضبط منهجهم.

٨ـ يمكن التوصل في ضوء ما سبق إلى أنّ رؤى سيبويه القياسية ـ في نظريته التي تجمع الجزئيات النحوية ـ أكدتْ بعدين:

ـ الأول: جمع المتشابهات في الحكم النحوي في مساحة واحدة.

ـ والآخر: ارجاع المتشابهات إلى أصل واحد، مع تأكيد اختلاف درجة المشابهة بين المقيس والمقيس عليه .ومقدار المشابهة هو المحدِّد قوة العمل وضعفه.

ثبت المظان

ـ ابستمولوجيا المعنى والوجود (نقد التطورية) ـ د. سامي أدهم ـ ط١ـ مصر.

ـ أساس البلاغة ـ جار الله الزمخشري ـ تحقيق: محمد باسل عيون السود ـ دار الكتب العلمية ـ ط١ـ بيروت – ١٩٩٨م.

ـ اشكالية القراءة وآليات التأويل ـ د. نصر حامد أبو زيد ـ المركز الثقافي العربي ـ ط٤ ـ ١٩٩٦م.

ـ الأصول دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو ـ فقه اللغة ـ البلاغة) ـ د .تمام حسان – عالم الكتب ـ القاهرةـ ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

ـ أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب – رسالة ماجستير ـ عبد الخالق فرحان شاهين ـ كلية الآداب ـ جامعة الكوفة.

ـ أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء القرطبي وضوء علم اللغة الحديث ـ محمد عيد ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٩٨٩م.

ـ الاقتراح في علم أصول النحوـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق : د. أحمد محمد قاسم - ط١ـ القاهرة ١٩٩٦م..

ـ البحث الدلالي في كتاب سيبويه - د. دلخوش جار الله حسين دزه بي – دار دجلة ـ ط١ـ ٢٠٠٦م.

ـ البحث اللغوي عند العرب ـ أحمد مختار عمر ـ مصرـ ١٩٧١م.

ـ تاج العروس من جواهر القاموس - محمد مرتضى الزبيدي ـ تحقيق : عبد العليم الطحاوي - مطبعة حكومة الكويت ـ ١٩٨٤.

ـ التصور الافتراضي في بناء القاعدة النحوية في كتاب سيبويه (بحث) ـ محمد

فضل ثلجي ـ مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ـ المجلد (١٠) ـ العدد(٢) ـ٢٠١٠م.
ـ الحمل في لغة العرب ـ درير أبو السعود ـ ط١ـ دار الكتب المصرية ـ١٩٨٥م.
ـ الحوار آدابه وضوابطه في الكتاب والسنة – يحيى بن محمد زمزمي ـ دار التربية والتراث – مكة المكرمة – الدمام ـ ١٩٩٤م.
ـ دروس في الألسنية ـ ترجمة :صالح القرمادي وآخرون - المغرب ـ (د.ت).
ـ الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه – د.خديجة الحديثي – مطبوعات جامعة الكويت – ١٣٩٤هـ ـ١٩٧٤م.
ـ شرح المفصل - موفق الدين بن يعيش ـ عالم الكتب - بيروت ـ (د.ت).
ـ الصحاح - اسماعيل بن حماد الجوهري ـ تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ـ دار العلم للملايين بيروت - ط٤ـ ١٩٨٧م.
ـ القاموس المحيط - الفيروز آبادي ـ تحقيق: مكتب تحقيق التراث ـ مؤسسة الرسالة - ط١ـ بيروت ـ ١٩٨٦م.
ـ القياس في اللغة العربية - محمد حسن عبد العزيز ـ دار الفكر العربي – القاهرة - ط١ـ ١٩٩٥
ـ القياس في النحو العربيِّ نشأته وتطوُّره ـ د . سعيد جاسم الزبيديِّ ـ الطبعة الأولى ـ دار الشروق للنشر والتوزيع ـ ١٩٩٧م .
ـ كتاب التعريفات – علي بن محمد الجرجاني ـ ضبط وتصحيح جماعة من العلماء ـ ط١ – دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ١٩٨٣م.
ـ كتاب سيبويه ـ أبو بشر عمرو بن عثمان ـ تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ

ط٣ـ عالم الكتب ـ بيروت.

ـ كتاب العين مرتباً على حروف المعجم ـ تصنيف: الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٢ ـ٢٠٠٣م.

ـ كشاف اصطلاحات الفنون ـ التهانوي ـ تحقيق: لطفي عبد البديع ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ١٩٧٧م.

ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.

ـ اللغة ـ جوزيف فندريس ـ تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ (د.ت).

ـ لمع الأدلة ـ كمال الدين ابن الأنباري ـ تحقيق: سعيد الأفغاني ـ ط٢ـ دار الفكر – بيروت – ١٩٧١م.

ـ مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية دي بوجراند ودريسلر ـ د.إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد ـ الهيأة المصرية للكتاب ـ ١٩٩٩م.

ـ المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه دراسة وتحليل ـ د.غالب المطلبي ود. حسن عبد الغني الأسدي ـ مجلة المورد ـ المجلد(٢٧)ـ العدد(٣) ـ ١٩٩٩م.

ـ مفهوم الجملة عند سيبويه ـ د. حسن عبد الغني الأسدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ٢٠٠٧م.

ـ مقاييس اللغة ـ أحمد بن فارس ـ تحقيق : عبد السلام محمد هارون ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ـ دار الفكر ـ (د.ت).

ـ نظرية البيان العربي ـ خصائص النشأة ومعطيات النزوع التعليمي ـ رحمن

غركان ـ ط ١ ـ ٢٠٠٨م.
ـ نظرية العامل في النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ـ أطروحة دكتوراه ـ سعيد البطاطي ـ كلية التربية ـ الجامعة المستنصرية ـ ٢٠٠٢م.
ـ نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري ـ حسام أحمد فرج ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ٢٠٠٧م.

ظاهرة التبادل عند العرب قراءة في كتاب سيبويه

ملخص البحث:

لحظ سيبويه ـ في ضوء نظام العربية ـ مشابهة الكلام العربي بعضه بعضاً بإدراك تأتى لنا من عبارته «ومن كلامهم أنْ يشبهوا الشيء بالشيء وإنْ لم يكن مثله في جميع الاشياء» فقد ترددت هذه العبارة في أجزاء كتابه الأربعة مفسّراً بها الكلام في ضوء الواقع الاستعمالي ،عبر منهجية لمعالجة التقاطع الحاصل بين كلام العرب والمعايير النحوية، مما أفرز طرقاً مزدوجة لأنماط الكلام، وهي مرحلة عليا في السلم اللغوي تفضي إلى خط مهم من خطوط نظرية الأصول اللغوية التي ـ كما يُعتقد ـ يقوم عليها التفكير اللغوي العربي.

ومن فضول القول إنّ وضوح تلك الظاهرة يرجع إلى استقرار فهمها ونضجها عند واصفها، فجاء الكلام عن مواضعها دقيقاً، فهناك قوانين نحوية ودلالية تعمل ـ عند مراعاتها ـ على توليد المكونات البديلة، ويحاول هذا البحث أنْ يقدّم صورة للفكر البنائي الدلالي الذي اتسم به تحليل سيبويه لكلام العرب في ظلّ هذه الظاهرة .

وقد جرى تقسيم البحث على جانبين يسبقهما مهاد نبيّن فيه تصوّر سيبويه لهذه الظاهرة من خلال نصوصه، وبيان أسس ذلك التصور.

ـ أمّا الجانب الأول: فقد تناول المفاهيم المادية (المستوى المعجمي) وهو مستوى يقوم على محور الاختيار.

ـ والجانب الآخر: تناول المفاهيم العلائقية (المستوى النحوي) ويقوم هذا المستوى على محور التوزيع.

وتكمن أهمية هذه الظاهرة في أنّها تعكس المنهج التفسيري السيبويهي الذي يعلّلها على وفق مقاصد كلام العرب بالكشف عن التحولات البنائية والوظائف النحوية والمعاني المرادة من كلّ ذلك بما ينبيء عن حكمة العربية.

مهاد

انّ الأجماع منعقد على أنّ محاولة دراسة نصوص سيبويه وتفسيرها، هي محاولة محفوفة بالمخاطر لأسباب عدة، إلّا أنّ تخفيف هذا العبء يكمن في محاولات تناولت عدة قضايا بارزة دراسة وتحليلاً عبر وجهات نظر متباينة، وقد احتلّ مفهوم الخطاب موقعاً محورياً في جميع البحوث والدراسات التي تندرج في مجال تحليل النصوص. ولّما كانت كلّ عملية خطابية تستدعي عناصر عديدة ، تتمثّل في المتخاطبين وسياق الخطاب ومقاصده، فإنّ خطاب العقل في كتاب سيبويه قد ارتبط بالمكاسب ،وهو التأثير اللغوي بالعمل أو الترك[1]، مرتكزاً في ذلك على محورين:

الأول: المحور الدلالي بما يحتويه من مظاهر ترابط وانسجام بين البنية الكلية.

والآخر: المحور التداولي ويضمّ السياق وتداوليات الخطاب.

وهذان المحوران يُبنيان بدورهما على أساسين:

الاول: لغوي من منطلق انّ الخطاب في جوهره كلام يتحقق عبر وسيلة التواصل(اللغة).

والثاني: استعمالي من جهة الممارسة التواصلية للنصوص التي تحمل كلّ عناصر وأغراض عملية التخاطب.

ومن هنا فانّ هذه المقدمة تعمل على طرح سؤال مفاده، ما الذي نقصده بظاهرة التبادل في فرضية تحتاج الى البرهنة على وجودها؟.

---

(١) ترجع صحة الحكم على اللفظ الى معرفة النظم والاعراب وصحة الحكم على المعنى الى العقل والمنطق (لأنّ صحيح الكلام من سقيمه والاعراب المعروف وفاسد المعنى من صالحه يُعرف بالإعراب). الإمتاع والمؤانسة١/١٠٩.

ورد في أحد تعاريف النحو أنّه «صناعة علمية ينظر بها أصحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى فيتوَصّل بإحداهما الى الأخرى»[١]. وهذا التعريف يمكّننا من التحدث عمّا سمّاه (ديك) [٢]، بالطاقات الأساسية التي تؤهل المتكلم لإقامة تواصل لغوي عبرها سواء أكانت ادراكية أم ابستمولوجية أم اجتماعية أم غير ذلك ،إذ تتفاعل هذه الطاقات في قدرة المتكلم لتنتج قدرة تواصلية يفرضها الاستعمال ، وأمام انشاء قيمة تواصلية بوضع أحد العناصر مكان الآخر ،جعلنا من كتاب سيبويه مناراً لنا في قراءة ظاهرة التبادل عند العرب لما امتلكه صاحبه من وعي في عرض القضايا النحوية والاستدلال عليها. منطلقين من أساس أنّ التبادل هو علاقة بين مكوّنين تسمح لثانيهما أن ينشط المعلومات المشتركة بينه وبين الأول[٣].

وعلى وفق ما تقدم فقد خضعتْ ظاهرة التبادل في كلام العرب في كتاب سيبويه إلى ضوابط هي:

---

(١) الاقتراح في علم أصول النحو: ص٢. وينظر الاسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي: ص١١.

(٢) ينظر النحو الوظيفي وبناء الحاسوب: ص١١٨.

(٣)حاولت الدراسات اللسانية الحديثة تقديم هذا الفهم لكن بإعطائه صورة تختلف باختلاف الاتجاهات اللسانية فقد لجأ (هارفج) الى اتخاذ هذه المسألة وسيلة مهمة لإنشاء رابطة بين الجمل فالمتلقي يسترشد بالمكون البديل الى الدلالة نفسها اذ يدلّ كلا الشكلين اللغويين على الشيء غير اللغوي نفسه. ينظر النص والخطاب والاجراء: ص٣٠٠، ودراسة لغوية لصور التماسك النصي في لغتي الجاحظ والزيات: ص١٧٣، والاستبدال ودوره في التماسك النصي (بحث) ولسانيات النص: ص٣١.

١ـ وجود سابق للمكون المبدل عنه.

٢ـ وجود المكون البديل.

٣ـ وجود العلاقة أو الشبه الواقع بين الصيغ والانظمة .

انّنا بتقديمنا هذه القراءة التي تبحث في أسس تداول هذه الظاهرة نسعى الى تناولها عبر نظام الفكر الذي وُلِدت فيه من أجل اكتشاف الكيفية التي تشكلت بها المعرفة النحوية، حينما يجعلنا أبو بشر مدركين لوجود جانبين لهذه الظاهرة أحدهما خفي ملموس والآخر متجسد في الصياغة اللغوية ويكون المعنى مسؤولاً عن تقديم النموذج المعين للمثال المحتمل.

الاستدلال بالمصطلح على ظاهرة التبادل:

إنّ درْس المصطلح وتحديد ميدانه الذي يدور فيه البحث هما أولى خطوات البحث العلمي، وبما أنّ ميدان البحث ههنا قد حُدّد بالجانب التركيبي فانّ ما يدخل ضمن معنى البدل له مصطلحات عديدة في كتاب سيبويه منها ما هو مباشر كلفظ البدل؛ اذ ورد في العين أنّ البدل: خلفٌ في الشيء والتبديل التغيير[1]. وفي ضوء ذلك يقول سيبويه في المصادر التي نابت عن أفعالها في نحو (سقياً ورُعياً) ما نصه: «**وانّما اختزل الفعل ههنا ؛ لأنّهم جعلوه بدلا من اللفظ بالفعل كما جُعل (الحذر) بدلا من (أحذر) كذلك هذا كأنّه بدلٌ من سقاك الله، ورعاك**»[2].

---

(١) العين١/١٢٢.

(٢) الكتاب١/٣١١ وينظر موارد مشابهة ١/٣١٤ ـ ٣١٥ ـ ٣٢١ ـ٣٢٢ ـ٣٣٩ ـ٣٤١ ـ ٣٤٨ ـ ٣٥٦ ـ ٣٨١ ـ ٣٨٣.

فلم يطلق سيبويه عليه لفظ (نائب) بل كرّر لفظ البدل، فاضمار الفعل ههنا لازم ؛ لأنّ المصدر بدل من اللفظ بالفعل، فذكره جمعٌ بين البدل والمبدل منه وهذا لا يجوز في هذا الموضع[١]. ويذكر زعم «**يونس أنّ العرب تقول: انّ بدلك زيداً. أي: انّ مكانك زيداً، والدليل على هذا قول العرب: هذا لك بدل هذا. أي : هذا لك مكان هذا. وانْ جعلت البدل بمنزلة البديل قلت: انّ بدلك زيدٌ. أي :انّ بديلك زيدٌ**»[٢].

انّ التعامل مع مدونة سيبويه يتيح لنا أن نقرأ نصوصه قراءة تكفل لنا اعطاء رؤية يكون الادراك قد أسس لها ولم تقف عند اعتابه فحسب، فقد يجد المستطلع لكتابه تجوزاً كبيراً في استعماله المصطلحات الدالة على هذه الظاهرة على وفق رؤية من جانبها اللغوي بوصفه معطى مباشراً لجانبها الاصطلاحي في إرادة منه على ما يبدو لتقريب البعيد عن المدارك فهذا «من عادة أهل العربية، ولهم أشياء كثيرة تحمل على المسامحة ، ولكنّهم يفعلون هذا ؛لأنّ أغراضهم مفهومة»[٣].

ولّما كان استعمال الاصطلاحات يعدّ دليلا على نضج أيّ نظرية وتكاملها؛ لأنّها المفاتيح التي يمكن عبرها إدراك أبعاد النظرية ووصل خطوطها بالكشف عن ظواهرها ، فقد وردت مفاتيح اصطلاحية تدلّ على هذه الظاهرة في نظرية سيبويه النحوية في كتابه مثل:

---

(١) ذهب ابن جني الى القول برأي سيبويه حينما أورد هذا المصطلح في كتابه الخصائص١ /٢٨٨ قائلاً : "لك أنْ تقول : (ضرباً زيداً) لا على أنْ تجعل ضرباً توكيداً للفعل الناصب لـ(زيد) بل على أنْ تُبدله منه فتقيمه مقامه".

(٢) الكتاب٢ /١٤٣ .

(٣) المنصف١ /١٩٨. وذكر ابن قيم في بدائع الفوائد١ /١٢٣ .أنّ "أكثر ألفاظ النحاة محمول على الاستعارة والتشبيه والتسامح اذ مقصودهم التقريب على المتعلمين".

بعض المواضع ومثل ذلك قوله لرجل من بني سلول مُوَلَّد[1]:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني فمضيتُ ثُمّت قلتُ لا يعنيني

واعلم أنّ أسير بمنزلة سرت اذا أردت بـ(أسير) معنى سرت»[2].

إنّ هذا الفهم المعتمد على المنحى الوظيفي يُفسّره السيرافي بقوله: «إنّما يستعمل ذلك إذا كان الفاعل قد عُرِف منه ذلك الفعل خَلقاً وطبعاً، ولا ينكر فيه في المضي والاستقبال، ولا يكون لفعلٍ فعله مرةً من الدهر»[3].

لعلّنا ندرك بهذا أنّ تعددية الاصطلاح عند سيبويه، هي تأكيد تعددية النحو يكفل بيان ذلك ما عكسته نصوصه في أنّ النحو هو معرفةٌ بقواعد ينبغي اتباعها في اللغة السليمة، وهو أيضاً فن الكلام الصحيح حينما يتعلق الأمر بالمتكلمين على وفق قواعد الاستعمال والحياة الاجتماعية، وأنّ الجمع بينهما يمكّن من تحصيل معنى متكامل للنحو ، وهو العلم بكيفية التصرف في الكلام ، فقد أسس سيبويه بحدّة ذهنه وقوة خاطره لمعرفة ما يُوجِب الحكم بعلاقة ما بين أطراف الكلام بما تمدّه تلك الأطراف من جسور معنى على وجه يقتضيه العقل، وإذا كان ذاك كذلك ، فَإنّ المعايير المعتمدة في ظاهرة التبادل ههنا ترتكن إلى المقام بوصفه وضعية تضمّ زمان القول ومكانه وهوية المتخاطبين ، وكلّ ما نحتاج إلى معرفته لفهم الكلام حينما تعبّر بعض العناصر اللغوية عن المعنى نفسه، فتكون المكونات بديلة عن مكونات أُخر، وبدلاً من وجود حدود فاصلة تتحول العلاقة بينها إلى علاقة تضافر وتشابك دلالي.

---

(1) الخصائص ٣/ ٣٣٠ والهمع ١/ ٩ والتصريح ٢/ ١١١ والأشموني ١/ ١٨٠.

(2) الكتاب ٣/ ٢٤.

(3) الكتاب ٣/ ٢٤ (الهامش).

وعلى نحو من الدقة سنحاول تحديد ظاهرة التبادل منوّهين بدءا بتحديد هذا المفهوم بأنّه: (رفع الشيء ووضع غيره مكانه) باعتماد تغيير المكون اللغوي مع بقاء عينه، يؤنسنا بذلك قول صاحب الكليات أنّ التبديل «قد يكون عبارة عن تغيير الشيء مع بقاء عينه يُقال: بدّلت الحلقة خاتماً»(١). أي أنّ المشابهة تُؤهل إحلال الشيء مكان شيء آخر وهذا مجاله الاستعمال لا التقدير.

وفي محاولة لتقديم صورة للفكر السيبويهي الذي اتسم به تحليله كلام العرب عبر تلك الظاهرة، لابدّ من أنْ نُبرز تعريفاً لها من منطلق إدراكنا أبعادها ، وعليه فالتبادل «هو وقوع اللفظ موقعاً ليس له بجهة الأصالة فيقوم مقام الأصل لما هو بصدده من موقع لغوي سواء أكان الموقع على المستوى الدلالي أم الوظيفي أم الإعرابي». ففي ظلّ هيمنة تركيبية ودلالية لا يتغيّر معنى الحديث الذي يُورده المتكلم على الرغم من حصول التبادل، فالإنجاز قد يقبل مالا تُخرّجه الكفاءة ، وما هذا إلّا لكثرة الاستعمال ،يقول أبو بشر: «فقد يشذّ الشيء من كلامهم عن نظائره ويستخفّون الشيء في موضع ولا يستخفّونه في غيره»(٢). وقد عقد في مقدمة أبوابه السبعة باب ما يكون في اللفظ من الأعراض فيه تقرير واضح لنظرية الأصول اللغوية قال فيه: «ويحذفون ويعوضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يُستعمل حتى يصير ساقطاً، وسترى ذلك إنْ شاء الله»(٣). فالرغبة والنيّة عند المتكلم تفضي إلى التحقق والإمكانية في صياغة المعاني فتكون تلك المعاني مكتملة في ذهن المخاطب على الرغم من انتفاء

(١) الكليات ص٣١.

(٢) الكتاب١ /٢١٠.

(٣) الكتاب١ /٢٥.

استعمال الأصل في تلك الصياغة وهي مسألة تقوم على وجود وعي لغوي لمنهجية محددة .

إنّ الخطوة التي نسعى أنْ نخطوها في هذا البحث ترتكز على (المعجم والنحو) في ظلّ الطرح البنيوي القائم على تصنيف المعطيات اللغوية، وفي ظلّ اجراء منهجي لعرض ظاهرة التبادل على وفق تصوّرنا لتصّور سيبويه فإنّنا سنتناولها من جانبين:

الأول: مفاهيم مادية (مستوى معجمي) ويمثله محور الاختيار.

والآخر: مفاهيم علائقية (مستوى نحوي) ويقوم على محور التوزيع ويقع فيه بناء علاقات بين الكلمات فالواقع المرجعي فيه واحد لكنّ التنويع يكون على مستوى صيغة التعبير، وتلك قدرة تعلن عن حكمة العربية التي تُمكّن متكلمها من تركيب الواقع تركيباً متنوعاً على وفق نماذج صورية.

إنّ محوري الاختيار والتوزيع يقومان أساساً على العلاقات النحوية من جهة أنّ اختيار اللفظ من دون غيره إنّما يتأتّى لمناسبة الكلمة للكلمة عند تركيبها ومن هنا تنتفي عن الاختيار كلّ اعتباطية[1]؛ لأنّ الكلام قبل تجلّيه «يمرّ في الفكر بأحوال هي القصد إلى الكلام أو الإرادة له أو العزم عليه أو العلم به أو التفكير في كيفية ترتيبه»[2]. ومن هنا فإنّ ظاهرة التبادل تقوم على وعي بأنّ للعلاقات النحوية بعداً في مداها يعكسه الاختيار بإبدال العناصر في التركيب، وعندئذٍ يتحوّل فعل التأويل إلى فعل اكتشاف يستدعي الأثر، وعلى وفق هذا الفهم فإنّ

---

(١) جمالية العلاقات النحوية في النص الفني: ص١٤٦.

(٢) الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار: ص١٥٦.وينظر الدرس النحوي في الخطاب اللساني المعاصر(بحث).

النحو هو مجموعة من قواعد التركيب التي تأتي تالية للوصف المعجمي / الدلالي. ونبدأ بـ:

المبحث الأول: المفاهيم المادية (المستوى المعجمي).

ترتكز هذه المفاهيم على أنْ تحمل المكونات المتبادلة عناصر تكوينية تكوّن السمات المعجمية[١]. ومن مواردها في الكتاب:

١ـ (علمت) بمعنى (عرفت): خصّ سيبويه بعض الأفعال بشيء من التفسير عبر دلالتها منها (علمت) قائلاً عنه: «**وقد يكون علمتُ بمنزلة عرفتُ**»[٢]. واضعاً لهذه الدلالة ضابطاً مفيداً وذلك إذا كنت «لا تريد إلّا علم الأول فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ فهي ههنا بمنزلة عرفت»[٣].

وقد شرح السيرافي كلامه بقوله: «علمت اذا أردت به معرفة ذات الاسم ولم تكن عارفاً به من قبل كقولك: (علمت زيداً). أي: عرفته ولم أكن أعرفه من قبل وليس بمنزلة قولك: (علمت زيداً قائماً) اذا أخبرت عن معرفتك بقيامه وكنت عارفاً من قبل»[٤]. فالفعل (علم) يمتلك دلالة غير قلبية وهي (عرف) وهي دلالة تُمكّن من إبداله من دون تغيير المعنى وهي خصوصية دلالية أكّدها سيبويه لهذه المفردات الفعلية عبر الاستعمال.

---

(١) وصف جومسكي المعجم أنّه طائفة مفردات اللغة وتمتلك هذه المفردات نوعين من السمات المميزة الأولى (فنولوجية) والثانية من أنواع متعددة (سمات دلالية ونحوية... الخ) وتعود مقبولية الجملة إلى انسجام مفرداتها مع تلك السمات. ينظر جوانب من نظرية النحو: ص١١٠ ونظرية جومسكي: ص١٥٩ومباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة: ص١٣١.

(٢) الكتاب١/ ٤٠ وينظر المفردات للراغب: ص٥٨٠ والدر المصون١/ ٤١٣.

(٣) الكتاب١/ ٤٠ والآيتان البقرة/٦٥والأنفال/ ٦٠.

(٤) شرح كتاب سيبويه للسيرافي٢/ ٣١٧.

٢ـ إبدال معنى المصدر بمعنى اسم المفعول أواسم الفاعل «وذلك قولك: لبن حلب. إنّما تريد محلوب ، وكقولهم: الخَلق. إنّما يريدون المخلوق[١]. ويقولون للدرهم : ضربُ الأمير. إنّما يريدون مضروب الأمير، ويقع على الفاعل وذلك قولك: يومٌ غمّ ورجلٌ نومٌ، إنّما تريد النائم والغام»[٢]. فسيبويه ههنا يفسّر اللغة باللغة، ويستجيز في ضوء هذه الحقيقة أنْ يُخبر عن اسم العين بالمصدر بمعنى اسم الفاعل، وذلك في «قول الخنساء[٣]:

ترتع ما رتعتْ حتى إذا ادّكرتْ   فإنّما هي إقبال وادبار

فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام كقولك: نهارك صائم وليلك قائم»[٤]. وقد عقد باباً سمّاه «باب ما ينتصب من المصادر؛ لأنّه حال وقع فيه الأمر، وذلك قولك: قتلته صبراً، ولقيته فجاءة ومفاجأة وكفاحاً ومكافحة... وليس كلّ مصدر وإنْ كان في القياس مثل ما مضى من هذا الباب يوضع هذا الموضع؛ لأنّ المصدر ههنا في موضع إذا كان حالاً»[٥]. فمذهب سيبويه أنّ المصدر ههنا في موضع حال بإبدال معنى المصدر باسم الفاعل، اي لقيته مفاجئاً ومكافحاً ومعايناً. وتأتي صرامة القوانين ههنا بأنّ ذلك لا يحسن في كلّ مصدر وإنْ جاء على القياس؛ لأنّه شيء وضع في موضع غيره لقيمة تواصلية، إذ يقول: «ألا ترى أنّه لا يحسن أتانا سُرعة ولا أتانا رُجلة، كما أنّه ليس كلّ مصدر يستعمل

---

(١) ذكر في موضع آخر "قد يكون الخَلق المصدر ويكون الخلق المخلوق"ينظرالكتاب٢ / ١٢٠ .

(٢) الكتاب ١ / ٤٣.

(٣) ديوان الخنساء: ص٤٨ ومختارات ابن الشجري١ / ٧١.

(٤) الكتاب١ /٣٣٧.

(٥)الكتاب١ / ٣٧٠.

في باب سقياً وحمداً»[1].

فكما أنّ (سقياً) لا يطّرد فيه القياس فيقال (طعاماً وشراباً) كذلك الحال مع (أتانا سرعة).

٣ـ إبدال معنى اسم الفاعل بمعنى المصدر: ويذكر سيبويه قول «**الفرزدق**:

على حلفةٍ لا اشتم الدهر مُسلماً ولا خارجاً من فيَّ زور كلام[2]

فإنّما أراد: ولا يخرج فيما استقبل، كأنّه قال: ولا يخرج خروجاً»[3]. فالمعنى: لا يخرج زور كلام خروجاً، ولأنّه حُمِل على إبدال معنى المصدر باسم الفاعل نُصب لوقوعه موقع المصدر النائب عن فعله، فالمقولات المكونة للتركيب حملت سعة على صعيد اللفظ لعلاقات رابطة بين تلك المقولات اقتضاها التناسب بين الجمل المتحققة والمقام بما عكسه هذا الترابط من تبادل للمنظومة اللغوية بها يُدرك عقلاً كلّ ذلك تفاعلَ في أطار مبدأ التعاون بين الأفراد.

٤ـ التبادل بين معنى عسى ولعلّ: تأتي (لعلّ) للخوف والرجاء يقول سيبويه: «وإذا قلت :**لعلّ فأنت ترجوه أو تخافه في حال ذهاب**»[4]. إلّا أنّها قد ترد بمعنى (عسى) إذ يقول: «**ولعلّ وعسى طمع واشفاق**»[5]. وقد تمّت صياغة العملية البنائية لهذين المكونين من قبل المتكلم من جهة الدلالة وبإدراك من قبل المخاطب فكانت البنيتان موضحتين المعنى نفسه بإبدال أحدهما محلّ الأخرى وبذكرِ

---

(١) الكتاب١ /٣٧١.

(٢)ديوان الفرزدق : ص٧٦٩ ، والكامل: ص٦٩.

(٣)الكتاب١ /٣٤٦.

(٤) الكتاب٢ /١٤٨.

(٥)الكتاب٤ /٢٣٣.

سيبويه قول «**عمران بن حطان**[1]:

ولي نفسٌ أقول لها إذا ما … تُنازعني لعلّي أو عساني

... جعلوها بمنزلة لعلّ في هذا الموضع»[2].

لعلّنا ندرك عبره هذه الرؤية في أنّ سيبويه وضع في اعتباره للتبادل بين هذين المكونين الدلالة المشتركة تلك الدلالة التي قادت إلى اتصال ضمير النصب بـ (عسى) شأنها في هذا شأن (**لعلّ**) بما يؤكّد التوجه نحو المعنى المدرك، فـ(يا) المتكلم اسم (عسى) وخبرها محذوف فهي فعل كما يرى سيبويه ، وليست حرفاً ودليله على ذلك أنّها لو كانت مجرورة لقال (عساي) فالتبادل بين (لعلّ) و(عسى) قاد إلى رجاحة هذا الرأي؛ لأنّهم جعلوها بمنزلة (لعلّ) في هذا الموضع[3]. والملاحظة التي يجب التنويه إليها أنّنا نُريد أنْ تسلم تصورات سيبويه الخاصة بهذه المواضع من الانحراف إلى التضمين، فالتضمين بيّنه ابن هشام بقوله: «قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه»[4]. وفائدته «أنْ يدلّ بكلمة واحدة على معنى كلمتين يدلّك على ذلك اسماء الشرط والاستفهام»[5] أنّنا ندفع أنْ يكون ذلك في ما قُدّم ذكره؛ لأنّ المكونين يؤدّيان معنى واحداً مقصوداً قصداً وتبعاً فالتبادل ههنا عكس التضمين من جهة أنّ التضمين لفظ يدلّ على معنيين والتبادل لفظين يدلان على معنى واحد.

---

(١) الخصائص٣/٢٥ وشرح المفصل٣/١٨٨.

(٢) الكتاب٢/٣٧٥.

(٣)الكتاب٢/٣٧٥.

(٤) مغني اللبيب ٢/٦٨٥.

(٥) مغني اللبيب٢/٥٣٠.

لقد عوّل سيبويه على المعنى ههنا ،فهو المحك في الحكم على ما يجوز وما لا يجوز، يقول د. نهاد الموسى «ويعوّل النحويون العرب على المعنى معوّلاً كبيراً ويمثّل التفاتهم إلى المعنى عامة والمستوى الدلالي خاصة ملحظاً ثابتاً يفزعون إليه ويصدرون عنه من التفسير النحوي وخاصة إذا تخلّف التفسير عن المستوى النحوي الخالص»[1].

وإخال إنّ هذه العلاقة التبادلية الدلالية وإنْ خرقت الاداء المثالي إلّا أنّها ظلّت في محور الملاءمة؛ لأنّها تفسير اللغة باللغة الأمر الذي جعل سيبويه يتخذها مصدراً من مصادر التأويل؛ لأنّ المدخلات الأولية للمنظومة النحوية كلمات.

---

(١) نظرية النحو العربي: ص ٦٥ وعناصر النظرية النحوية: ص١٧٣.

المبحث الثاني: المفاهيم العلائقية (المستوى النحوي).

يعدّ الاستبدال معياراً جوهرياً يستعين به الدرس اللساني في دراسة اللغة؛ إذ تمنح هذه الظاهرة التراكيب مرونة وحركة ، فاللغة العربية بقدر اهتمامها بالألفاظ فإنّها تجعل الأهمية الكبرى للمعاني، ولهذا نجد سيبويه ركّز على المعنى كثيراً في كتابه وأنحى باللائمة على النحويين حينما قدّم نصاً مهماً أبان فيه عنايتهم بالأمور الشكلية واكتفائهم بإعراب الكلم وبيان مواقعها، ولم يكن همّهم أنْ يفهموها فهماً دلالياً وتفسير تركيبها بملاحظة الظروف والملابسات المقامية المفترضة التي تحيط بتكوين الجمل الأمر الذي اهتم به سيبويه وبانت ريادته فيه إذ يقول:

«فإنّ النحويين ممن يتهاونون بالخُلف إذا عرفوا الإعراب ، وذلك أنّ رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أنْ يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر، فقال: أنا عبدُ الله منطلقاً وهو زيدٌ منطلقاً .كان محالاً؛ لأنّه إنّما أراد أنْ يُخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية ؛ لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر، وإنّما يضمر إذا عَلِم أنّك عرفت مَن يعني ، إلّا أنّ رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسناً»[1].

ففي النص من الأهمية ما يرجى لبيان أنّ العلامة الإعرابية قد لا تمدّنا بذلك العمق في تحليل الظاهرة النحوية ،فكانت جملة (أنا عبدُ الله) غير صحيحة في نص سيبويه في أعلاه، إذ لا فائدة من أنْ تُخبر المخاطب الذي يعرفك بكونك (عبد الله) أمّا لو كنت خلف حائط أوفي موضع يجهله المتكلم لاستُجيز ذلك على وفق

---

(١) الكتاب ٢/ ٨٠ ـ ٨١.

منهجية سيبويه في المحتوى الدلالي للجملة[١].

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى الملقب بـ (ثعلب) أنّ سيبويه «عمل كلام العرب على المعاني»[٢]. ولا يخفى ههنا أثر استاذه الخليل حينما «سُئل عن العلل التي يعتلّ بها في النحو فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟. فقال: إنّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفتْ مواضع كلامها وقام في عقولها علله وإنْ لم ينقل ذلك عنهم، واعتللت أنا بما عندي أنّه علة لما عللته منه، فإنْ أكن أصبت فهو الذي التمست وإنْ تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والاقسام وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما فعل هذا هكذا لعلّة كذا كذا ولسبب كذا كذا سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك فجاز أنْ يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلّا إنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أنْ يكون علة لذلك فإنْ سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعول فليأتِ بها»[٣].

وبهذا يخطّ سيبويه للنحو العربي رؤية جديدة في فهم الجملة تمثلت في طائفة من نصوص كتابه تتمّ دراسة ظاهرة التبادل عبرها على وفق ما يمكن أنْ تحيل

(١) يُقصد بالمحتوى الدلالي للجملة (أنّ الجملة يتمّ فهمها في ضوء إطار من الدلالات الخارجية غير اللغوية وتكون الجملة هي الوسيلة الوحيدة التي تمدّنا بما نحتاجه لفهمها في بيئتها الخارجية أو اللغوية) ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه: ص١٩٥.

(٢) طبقات النحويين واللغويين: ص١١١.

(٣) الايضاح في علل النحو: ص٦٥- ٦٦.

عليه من اعتبارات وظيفية ـ وهي اعتبارات المكان والزمان وطرفي عملية التخاطب المتكلم والمخاطب ـ تمثّلت تلك النصوص[1] في:

أولاً: التبادل الوظيفي

عقد سيبويه باباً قال فيه «هذا باب ما يكون فيه المصدر حيناً لسعة الكلام والاختصار وذلك قولك: متى سير عليه؟ فيقول: مقدم الحاج وخفوق النجم وخلافة فلان وصلاة العصر فإنّما هو زمن مقدم الحاج وحين خفوق النجم ؛ولكنّه على سعة الكلام والاختصار وإنْ قال: كم سير عليه فكذلك»[2].

ويفهم من نصه أنْ تقوم كلمة ما بوظيفتين معاً الأولى هي وظيفتها الأساسية والثانية مُبدَّلة فالذي حصل كان بفعل تبديل مقولة اسمية إلى مقولة ظرفية فقد أدى الحذف إلى أنْ يقوم المصدر مقام ظرف الزمان ومن ثمّ قيامه بوظيفتي الظرف أولاً والفاعلية ثانياً وهو أمر غير اعتيادي استدعى محاولة تفسيرية في ضوء السياق الفعلي الذي قيلت فيه الجملة فيلجأ سيبويه إلى الإحالة إلى سؤال متقدّم خاص بالحين وقد سقط السؤال فقام الحين مقام الظرف في مسلك لغوي اصطلح عليه بـ«سعة الكلام» ليعبر عن مثل هذه الحالة .

وبالطريقة نفسها يُفهمنا سيبويه كيف يقوم المصدر مقام المسند إلى الفعل في قوله: «من ذلك قولك على قول السائل: أيّ سَيرٍ سِيرَ عليه؟. فتقول: سيرَ عليه

---

(١) ننوّه أنّ اختيارنا للنصوص قائم على الانتقاء أما استقراؤها كاملاً في كتاب سيبويه فهو ما طرحناه لأنْ يكون أطروحة دكتوراه يتمّ تناول هذه الظاهرة فيها عبر المستويات اللغوية صوتاً وصرفاً ونحواً ودلالة.

(٢) الكتاب ١ /٢٢٢- ٢٢٣.

سيرٌ شديد وضُرِبَ به ضربٌ ضعيفٌ فاجريته مفعولاً والفعل له»[1].

فالمصدر قام بوظيفة المسند إلى الفعل عبر بناء الفعل على المفعول مع تحمله لمعنى الفاعلية أي الفعل له، وهي الحال في جميع الجمل التي يُبنى فيها الفعل للمفعول، فالمفعول يكون مرفوعاً عند البناء للمجهول إذ يقول سيبويه عن المفعول المرفوع (نائب الفاعل) : «**هذا باب الفاعل الذي لم يتعدّه فعله إلى مفعول والمفعول الذي لم يتعدّ إليه فعل فاعل ولم يتعدّه فعله إلى مفعول آخر والفاعل والمفعول في هذا سواء يرتفع المفعول كما يرتفع الفاعل؛ لأنّك لم تشغل الفعل بغيره وفرّغته له كما فعلت ذلك بالفاعل ... كقولك: ضُرِب زيدٌ ويُضرب عمرو**»[2]. ومن ثمّة فقد كشف سيبويه عن المحتوى الدلالي للجملة في مجيء المفعول ههنا مصدراً عبر إمكانية دلالية هي وقوعها جواباً لسؤال متقدّم[3].

ثانياً: التبادل الشكلي

تفطن سيبويه إلى كيفية التركيب من جهة المعنى بتحكّم المتكلم، فثمّة مؤثرات مقامية للجملة تؤول إلى أنْ تفقد العلامة الإعرابية قيمتها في مثل (هذا جحرُ ضبٍّ خربٍ) فالعلامة الإعرابية لـ(خرب) هي الضمة، إلّا أنّها أبدِلَتْ بالكسرة، وتجاوز تخوم الإعراب المعياري في إطار المظاهر الاستعمالية يعلّله ههنا سيبويه

(١) الكتاب ١/ ٢٢٩.

(٢) الكتاب ١/ ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) أطلق د. حسن عبد الغني الأسدي على هذه الظاهرة (الازدواج الوظيفي) مؤكّداً ملاحظة الأثر الوظيفي الذي يقوم به المتكلم والمخاطب فالمتكلم يتخذ وظيفة المجيب ويكون للمخاطب وظيفة السائل ويرى أنّ المحتوى الدلالي يمكن أن يُوجّه الوظائف الخطابية على نحو من الدقة .ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه: ص٢٠٣.

بقوله إنّ الوجه فيه «**الرفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس؛ لأنّ الخرب نعت الجحر والجحر رفع؛ ولكنّ بعض العرب يجرّه وليس بنعت للضب؛ ولكنّه نعت للذي أضيف إلى الضبّ فجرّوه؛ لأنّه نكرة كالضب، ولأنّه في موضع يقع فيه نعت الضب، ولأنّه صار هو والضبّ بمنزلة اسم واحد**»(١).

فالقصدية تمسك بزمام الاختيار إذ تقرّر أنّه «**ليس ينقض اجراؤه عليك المعنى**»(٢).

فمفهوم الملاءمة في الحركات نفسها حدّد سياق التأويل وكيف يتكوّن التأويل في هذا السياق ، فالعمل ههنا ـ عمل العناصر اللغوية بعضها ببعض ـ لا على وجه الحقيقة بل على وجه العلاقات المطردة الثابتة أعان على تفسير هذه الظاهرة في إطار التبادل الشكلي في الحركات الإعرابية ما دام صاحب اللغة قادراً على إحداث التوازن بين الموقع الذي يشغله العنصر اللغوي والوظيفة التركيبية والدلالية ، وهو رابط لزومي عند سيبويه يقود إلى علاقة مُنتجة(٣).

---

(١) الكتاب ١ /٤٣٦.

(٢) الكتاب١ /٦٧.

(٣) نوّهنا سلفاً أنّ اختيارنا لنصوص الكتاب انتقائية ونودّ الإشارة ههنا إلى موارد أخرى تخضع للتبادل الشكلي خشية الإطالة في تفصيلها نذكر منها:

أ- الرفع في خبر المبتدأ يُبدّل إلى نصب في خبر كان وكاد وأخواتها والمفعول الثاني لأفعال القلوب وتبقى النسبة ثابتة بين المبتدأ والخبر فلا يتغير معنى الخبرية فيه.

ب- رفع المبتدأ يبدّل إلى نصب في اسم (إنّ) وأخواتها ولا النافية للجنس والمفعول الأول لأفعال القلوب.

ج- الخبر المنصوب مع (ليس)و(كان) المنفية وما العاملة عمل ليس يبدّل إلى خبر مجرور. ينظر الكتاب١ /٥٧- ٥٩- ٦٠- ٦١.

ثالثاً: التبادل المضارعي[1].

استعان سيبويه في بناء نصوصه بوسائل وآليات انتاجية ،عملت على توليد المعرفة، منها آلية (الاستدلال) في محاولة اثبات حقائق لغوية لمتلقيه ضمن إطار قالب منهجي يخضع لبناء محكم، بغية فهم واستيعاب مضامين نصوصه بإقامة الدليل الذي يعتمد على العملية الاستدلالية التي تتصف بالانبنائية، حينما يؤالف سيبويه بين نمط الكلام وجوهره. وهو بهذا يجعلنا أمام شكل خاص لبنيات نصوصه حينما يقدّم لنا مختلف المعلومات التي تحدّد العلاقات الاستدلالية بين تراكيبه «كعلاقة الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والقياس وغيرها»[2].

وهو ما يشي إلى القول بأنّ نصوصه جاءت مُدلِّلة ومعلِّلة ومنظمة تحقق أغراضها ومؤثرة في متلقيها اقناعاً باعتماد أدوات وضوابط عقلية وأخرى نقلية من أجل إقامة الحجة لإثبات قضايا لغوية وظاهرة التبادل وجب فيها أنْ يكون الاستدلال أحد الانساق التي اعتمدها خطاب سيبويه الحجاجي حينما ينجز عبرها تسلسلات استنتاجية بعضها بمثابة الحجج وبعضها الآخر بمثابة النتائج، فقد ربط سيبويه بين العمل والمعنى في إبداله اسم الفاعل بالفعل حملاً عليه إذ يقول: «**هذا باب من اسم الفاعل الذي جرى مجرى الفعل المضارع في المفعول في المعنى فإذا أردت فيه من المعنى ما أردت في يفعل كان نكرة منوناً وذلك: هذا ضاربٌ زيداً غداً فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيداً غداً**»[3]. فاسم الفاعل النكرة المنون يتساوى مع الفعل المضارع في المعنى والعمل وتتضح آلية

---

(١) اعني بها المضارعة في المعنى والعمل.

(٢) آليات الاستدلال الحجاجي: ص٢.

(٣) الكتاب ١/ ١٦٤.

الاستدلال ههنا عبر المخطط الآتي في مثال سيبويه : [هذا ضاربٌ زيداً غداً]

- إذا حدّثت عن فعل في حين وقوعه غير منقطع كان كذلك. [شرط واستلزام]

- هذا ضاربٌ عبد الله الساعة فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيداً. [تفسير]

- هذا يجري مجرى الفعل المضارع في العمل والمعنى منوناً. [استنتاج]

ويبيّن في موضع آخر اتفاق الصيغتين في أداء المعنى الوظيفي والدلالي بقوله: «وإنّما ضارعت اسماء الفاعلين أنّك تقول: إنّ عبدَالله ليفعل فيوافق قولك: لفاعل. حتى كأنّك قلت: إنّ زيداً لفاعل فيما تريد من المعنى»[1].

- هذا ضاربٌ عبدَالله الساعة - إنّ زيداً لفاعل

- هذا يضرب عبدَالله الساعة - إنّ زيداً ليفعل

إنّ اعتماد سيبويه تقنيات استدلالية إنّما هدفه الإقناع لإحداث تغيرات في الأفكار أو توجيهها أو لتحقيق أغراض تداولية أخرى ويُبنى الاقناع عادة على اقتراحات سابقة بشأن عناصر السياق ولاسيما المخاطب والخطابات السابقة والخطابات المتوقعة من أجل إدراك المقاصد الحقيقية فبعض القضايا النحوية قد لا يتمّ التعرّف إليها بصورة مباشرة تكمن وظيفة الاستدلال عندها باثبات وجود هذه القضايا عبر ربطها ببعض القضايا الأخرى التي سبق ثبوتها باستعمال اسلوب مرن يُدرِك المتلقي من خلاله أنّه أمام خطاب طبيعي وقد وعى سيبويه هذه الكيفية في عرض قضاياه النحوية والاستدلال عليها .

وقد سلك سيبويه مسلكاً استدلالياً آخر عكس لنا عبره اثبات ظاهرة التبادل في كلام العرب وهو (الاعتراض) فقد ألحق الصفة المشبهة بباب اسم الفاعل

---

(١) الكتاب ١ / ١٤.

قائلاً: «**هذا باب الصفة المشبهة فيما عملت فيه ولم تقوَ أنْ تعمل عمل الفاعل**»[1].

ويعترض على استبدالها بالفعل «**لأنّها ليست في معنى الفعل المضارع**»[2].

واعتراضه يستند فيه إلى الأدلة بقوله: «**والإضافة فيه أحسن وأكثر؛ لأنّه ليس كما جرى مجرى الفعل ولا في معناه فكان أحسن عندهم أنْ يتباعد منه في اللفظ كما أنّه ليس مثله في المعنى وفي قوّته في الأشياء**»[3].

إنّ استبدال اسم الفاعل بالفعل إنّما هو لتقارب في المعنى والعمل فإنْ اختفى هذا التقارب اختفت كذلك صورة وجود البديل فالإضافة في الصفة المشبهة أحسن وأكثر وهي من خصائص الاسماء فهي أقرب إلى الاسمية منها إلى الفعلية فابتعدت عن الفعل في المعنى والعمل فالمعنى ههنا يكون مسؤولاً عن تقديم النموذج المعين للمثال المحتمل كما أشرنا إلى ذلك مسبقاً يوضّح هذا الأمر السيرافي بقوله: «أنّ قولك: (حسن الوجه). لم يجرِ مجرى حسن كما جرى ضارب مجرى ضرب فكان الأحسن عندهم في (حسن) الإضافة لبعد الإضافة من الفعل في اللفظ كما تباعد حسن الوجه من الفعل ومما جرى مجراه في المعنى»[4].

واعتراضه على استبدال الصفة المشبهة بالفعل يعلق عليه بقوله: «**ومما لا يكون في الاستفهام إلّا رفعاً قولك: أعبُد الله أنت أكرم عليه أم زيدٌ ، وأعبدُ الله أنت أصدقُ أم بشرٌ. كأنّك قلت: أعبدُ الله أنت أخوه أم بشرٌ؛ لأنّ أفعل ليس**

---

(١) الكتاب ١/ ١٩٤.

(٢) الكتاب ١/ ١٩٤.

(٣) الكتاب ١/ ١٩٤.

(٤) الكتاب١/١٩٤(الهامش).

بفعل ولا اسم يجري مجرى الفعل وإنّما هو بمنزلة حسن وشديد ونحو ذلك»[1].

ولعلّ تنويهه هذا يكشف لنا سرّ إبدال الفعل باسم الفاعل وهو ما لا يقع مع الصفة المشبهة وما حُمِل عليها وهذه الآلية التي اعتمدها سيبويه هي آلية استدلالية في مقابلةٍ بين هذه الأبنية فكانت نهجاً متميّزاً يُفسّر بها الأمثلة المتفقة في العمق من حيث إنّها تؤدّي معنى واحداً ـ كما في قوله: «**هذا باب صار الفاعل فيه بمنزلة الذي فعل في المعنى وما يعمل فيه ،وذلك قولك: هذا الضاربُ زيداً فصار في معنى هذا الذي ضرب زيداً وعمل عمله؛ لأنّ الألف واللام منعتا الإضافة وصارتا بمنزلة التنوين»**[2] ـ فتصلح بديلة أو لا تؤدّيه كما هو الحال مع الصفة المشبهة، فلا تقع بديلة عن الفعل.

فالبعد التأويلي عند أبي بشر إنّما جاء مرتبطاً بالبعد التوليدي فإنْ تولّد البديل الموافق في المعنى والعمل أخذ به وإلّا فهو معترض على مجيء غير المُولَّد لافتقاره شروط الملاءمة .وقد عقد باباً للمصادر جرت مجرى الفعل المضارع في عمله ومعناه «وذلك قولك: عجبت من ضربِ زيداً. فمعناه: أنّه يضربُ زيداً. وتقول: عجبت من ضربِ زيداً بكرٌ ومن ضربِ زيدٌ عمراً. إذا كان هو الفاعل، كأنّه قال: عجبت من أنّه يضرب زيدٌ عمراً ويضرب عمراً زيدٌ»[3]. فالمصدر قد

---

(١) الكتاب١/١٣٢.

(٢) الكتاب١/١٨١.

(٣) الكتاب١/١٨٩. جدير بالتنويه ههنا أنّ هذه الإمكانية التبادلية بين المصدر والفعل جعلت سيبويه يستعمل الفعل مراداً به المصدر وذلك في قوله: (وأنْ تفعل بمنزلة الفعل) الكتاب٣/٦. يُريد أنّ (أنْ) والفعل (تفعل) يؤولان بمصدر فهما بمنزلة الفعل أي المصدر يؤنس بذلك قوله: (ائتني بعدما تفرغ فـ(ما) وتفرغ بمنزلة الفراغ) الكتاب٣/١١. وفي هذا ما يُعضّد مجيء المصدر بديلاً عن الفعل لتوافق في المعنى والعمل.

يُستبدل بالفعل في الجملة لما تحتمله بنيته الدلالية التي حلّلها سيبويه إلى (أنّه يضرب)، فالمعنى يجمع بين العنصر اللغوي والوظيفة النحوية التي يشغلها ، فاحساس سيبويه الدقيق قاده إلى مقارنة المصدر باسم الفاعل قائلاً: «وإنّما خالف هذا الاسم الذي جرى مجرى الفعل المضارع في أنّ فيه فاعلاً ومفعولاً ؛ لأنّك إذا قلت: هذا ضاربٌ. فقد جئتَ بالفاعل وذكرته، وإذا قلت: عجبت من ضرب، فإنّك لم تذكر الفاعل، فالمصدر ليس بالفاعل، وإنْ كان فيه دليل على الفاعل، فلذلك احتجت فيه إلى فاعل ومفعول، ولم تحتج حين قلت: هذا ضاربٌ زيداً. إلى فاعل ظاهر؛ لأنّ المضمر في ضارب هو الفاعل»[1].

إنّ مدى العمق اللغوي السيبويهي في تحليل هذه المكونات يُبرز لنا كيف تشكّلت بنى نحوية مقبولة بالمحافظة على النظام النحوي للغة حيث لم يحدث تصادم بين العنصر اللغوي العامل والوظيفة التي يؤدّيها في إطار علاقات مع العناصر اللغوية الأخرى ، ولا يخفى وضوح المعنى الذي يمكن أنْ يُعبّر عنه من خلال تراكيب تتكون من مفردات مختلفة، ففي قوله: «**وإنْ كان فيه دليلٌ على الفاعل**» إشارة إلى ما تحمله بنية المصدر الدلالية للفاعل، أمّا البنية الدلالية لاسم الفاعل فهي مشتملة على الضمير. فوقوع التبادل ههنا لا يخلّ بالنص، بل يأتي معه النص مترابطاً ومنسجماً ؛ لأنّه ليس تجميعاً فوضوياً لكلمات في جمل بل يمكن القول بثنائية (الاتساق والانسجام) بين البدل والمبدل منه[2]. فالاتساق من منظور قراءتنا لقراءة سيبويه متعلق بالترابط في العلاقات النحوية الموجودة في الجملة، أو بمعنى آخر أنّه مرتبط بالسياق الداخلي الذي يتجسّد من خلال مفهوم

---

(١) الكتاب١ / ١٨٩ .

(٢)لا نقصد بمفهوم البدل ههنا المفهوم النحوي بوصفه تابعاً بل نعني به احلال شيء مكان آخر .

النظير. أمّا الانسجام فهو مرتبط بالملاءمة فهو ليس ميزة لسانية للملفوظات إلّا أنّه نتيجة نشاط تأويلي .

إنّ البنية المفهومية لظاهرة التبادل تجعلنا نعرض نصوصاً أخرى لسيبويه في إطار نظرة كلية للتبادل المضارعي، إذْ يمتلك الفعل (تقول) سمات مشتركة تجعله يسلك في الجملة مسلكاً تركيبياً شبيهاً بالفعل (تظن)وذلك «**قولك: متى تقول زيداً منطلقاً. وأ كلّ يوم تقول عمراً منطلقاً... وزعم أبو الخطاب وسألته عنه غير مرة، أنّ ناساً من العرب يوثق بعربيتهم وهم بنو سليم يجعلون باب (قلت) أجمع مثل ظننتُ**»[1]. واستشهد بقول الكميت:

أجهّالاً تقول بني لؤي   لعمرُ أبيك أم مُتجاهلينا[2]

وقول عمر بن أبي ربيعة:

أمّا الرحيلُ فدون بعدِ غدٍ   فمتى تقول الدار تجمعنا[3]

فبنية (قلت) يُظهرها سيبويه أنّها «وقعت في كلام العرب على أنْ يُحكى بها ، وإنّما تحكي بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً نحو قلتُ: زيدٌ منطلقٌ؛ لأنّه يحسن أنْ تقول: زيدٌ منطلقٌ ولا تُدخل قلت»[4]. إلّا أنّه يحدّد الخاصية التي أهلّتها لهذه المشابهة ـ بما يُمكّن من تبادلها مع الفعل تظن ـ وذلك إذا كان القول بعد الاستفهام للمخاطب نحو: «أتقولُ زيداً منطلقاً». وهو فهمٌ معتمِدٌ على ثنائية نحوية ودلالية، من جهة اكتمال عناصر التركيب وتحقق المعنى المعجمي على وفق

---

(١) الكتاب١ /١٢٣- ١٢٤ .

(٢) الخزانة٤ /٢٣والعيني٢ /٤٢٩ .

(٣) ديوان عمر: ص٣٩٤.

(٤) الكتاب١ /١٢٢ .

قيود الاختيار، وبما يُفضي إلى توافق العلاقة بين العناصر والمعاني، فنشأ تركيب قَبِلَهُ أبناء اللغة؛ لأنّه مسموحٌ به في النظام اللغوي العرفي .

وكأنّ سيبويه يُجمل لنا خضوع هذه البنية لوظائف نحوية تمدّ المنطوق بالمعنى لما بينها من علاقات أساسية هذا من جهة ومن جهة أخرى خضوع مفرداتها التي تشغل تلك الوظائف النحوية لعلاقات دلالية متفاعلة نتيجة سياق خاص ترد فيه تلك البنية وهو تصوّرٌ ليس افتراضياً بل مبنياً على إبدال ـ ناسٍ من العرب يوثق بعربيتهم وهم بنو سليم ـ (ظننت) بـ(قلت) وتلك مرونة استعمالية خلّاقة في تجاوز استعمال نموذج أصل شائع الدلالة إلى غيره بما يُنبيء عن حكمة العربية[1].

---

(١) وتبدو هذه الظاهرة واضحة المعالم في موارد أخرى منها على سبيل المثال لا الحصر في ما أجري مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز مثل(ما) ينظر الكتاب ١/٥٧- ٥٩- ٦٠- ٦١.

نتائج البحث

تمخض البحث عن نتائج أجملها بـ:

١ـ تنبىء هذه الظاهرة عن وجود قدر من الاشتراك بين المكونين المتبادلين توفّرها حاجة المتكلم الاتصالية.

٢ـ ترتّب المفاهيم في هذه الظاهرة ترتيباً هرمياً قاعدته المفردات في مستواها المعجمي وقمّته المستوى الإنجازي مروراً بالمستوى النحوي وهذه الهيكلية الهندسية عكست مجال المعنى في صياغة التراكيب أكثر من انعكاسها في المفردات وهو أمر غاية في الأهمية ؛ لأنّها ارتبطت بموقف المتحدّث.

٣ـ في ظلّ ظاهرة التبادل يمكن القول إنّ المكون الدلالي مكون شمولي بوصفه جزءاً من التركيب والبنية المعرفية.

٤ـ إنّ هناك قيوداً اجتماعية تُفرض على الكلام عن طريق تحديد مجموعة من المعايير يتمّ الالتزام بها، فضلاً عن القيود المفروضة على الوحدات اللغوية المعروفة عند أبناء اللغة الواحدة وهي مسألة بديهية ؛ لأنّ الكلام يحدث في سياق اجتماعي فلا غنى ههنا عن المنظور الاجتماعي.

ثبت المظان

- القرآن الكريم.

- الاستبدال ودوره في التماسك النصي - مقال الكتروني على منتديات تخاطب - ابراهيم محمد عبد الله مفتاح.

- الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي - فؤاد بو علي - عالم الكتب - أربد -الأردن - ط١-٢٠١١م.

- الاقتراح في علم أصول النحو - السيوطي(-٩١١هـ) - ضبط وتصحيح: أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم - جروس - برس البيضاء - ط١-١٩٨٨م.

- أمالي ابن الشجري - هبة الله بن علي بن محمد حمزة الحسيني العلوي - تحقيق: د.محمود محمد الطناحي - مكتبة الخانجي - القاهرة.

- الامتاع والمؤانسة - أبو حيان التوحيدي - مكتبة مشكاة الاسلامية.

- آليات الاستدلال الحجاجي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء - حازم القرطاجني - خديجة كلاتمة - مجلة المخبر - العدد(٨) - جامعة محمد خيضر بسكرة -٢٠١٢م.

- الايضاح في علل النحو - أبو القاسم الزجاجي (-٣٣٧هـ) - تحقيق: د.مازن المبارك - دار النفائس - مؤسسة مطابع معتوق - بيروت - ط٢ - ١٣٩٣هـ -١٩٧٣م.

- بدائع الفوائد - ابن القيم - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان (د.ت).

- التصريح بمضمون التوضيح - الشيخ خالد الأزهري - الأزهرية - ١٣٤٤هـ.

- الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار - د.سلوى النجار - مطبعة التسفير الفني -

صفاقس ـ ٢٠٠٤م.
ـ جماليات العلاقات النحو في النص الفنيـد. سلوى النجار ـ التنوير للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.
ـ الحجاج بمفهوم المنزلة عند سيبويه (مقاربة تشييدية بين الغرض العلمي والتعليمي) ـ د.رجاء الحسناوي ـ مجلة الباحث ـ العدد (٩) ـ٢٠١٣م.
ـ خزانة الأدب البغدادي ـ بولاق ـ ١٢٩٩م.
ـ الخصائص ـ أبو الفتح عثمان بن جني ـ تحقيق: محمد علي النجار ـ دار الهدى للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.
ـ دراسة لغوية لصور التماسك النصي في لغتي الجاحظ والزيات ـ صلاح قطب ـ دار العلوم ـ ١٩٩٦م.
ـ الدر المصون ـ السمين الحلبي ـ تحقيق: أحمد محمد الخراط ـ دمشق ـ ط١ـ ١٩٨٦م.
ـ الدرس النحوي في الخطاب اللساني المعاصر ـ فؤاد بو علي ـ مقال الكتروني على موقع ملتقى الأدباء والمبدعين العرب.
ـ ديوان الخنساء ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٣هـ.
ـ ديوان العجاج ـ تحقيق: عزة محمد حسن ـ دار الشرق ـ بيروت١٩٧١م.
ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ تحقيق: محمد محيي الدين ـ مطبعة السعادة ـ ١٣٧١هـ.
ـ ديوان الفرزدق ـ نشر الصاوي ـ ١٣٥٤هـ.
ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ـ

١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
- شرح شواهد شروح الألفية - العيني - بهامش الخزانة - بولاق - ١٢٩٩م.
- شرح شواهد المغني - البغدادي - تحقيق: عبد العزيز رباح - دمشق - ١٣٩٣م.
- شرح المفصل - ابن يعيش (-٦٤٣هـ) - عالم الكتب - بيروت -(د.ت).
- طبقات النحويين واللغويين - أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (-٣٧٩هـ) - تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف - مصر - (د.ت).
- عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه - د. سعيد حسن بحيري - مكتبة الانجلو المصرية - ط١ - ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- الكامل - المبرّد (-٢٨٥هـ) - تحقيق: وليم رايت - ليبسك وكمبردج - ١٨٩٢م.
- كتاب سيبويه - أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ) - تحقيق: عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي القاهرة - ط٣-١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- كتاب العين مرتباً على حروف المعجم - تصنيف الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ) تحقيق: عبد الحميد هنداوي - منشورات دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - ط١ - ٢٠٠٣م.
- مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة - د.ميشال زكريا - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - ط١-١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- مختارات ابن الشجري - هبة الله ابن الشجري (-٥٤٢هـ) - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - (د.ت).
- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب - ابن هشام الأنصاري (-٧٦١هـ) -

تحقيق: د.مازن المبارك ومحمد علي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٦ـ١٩٨٥م.
ـ مفردات ألفاظ القرآن ـ الراغب الاصفهاني (ـ٥٠٢هـ) ـ تحقيق: صفوان عدنان داودي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ـ١٩٩٦م.
ـ مفهوم الجملة عند سيبويه ـ د.حسن عبد الغني الأسدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ـ٢٠٠٧م.
ـ المنصف ـ ابن جني ـ تحقيق: ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده ـ مصر ـ ط١ـ١٩٤٥م.
ـ النحو الوظيفيي وبناء الحاسوب ـ عزالدين البوشيخي ـ مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ العدد (١١) ـ مكناس ـ ١٩٩٥م.
ـ النص والخطاب والاجراء ـ دي بو جراند ـ ترجمة تمام حسان ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٨٨م.
ـ نظرية جومسكي اللغوية ـ جون لوينز ـ تحقيق: د.حلمي خليل ـ دار المعرفة الجامعية ـ ط١ـ١٩٨٥م.
ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ـ جلال الدين السيوطي (ـ٩١١هـ) ـ تحقيق: عبد السلام محمد هارون وعبد العال سالم مكرم ـ دار البحوث العلمية ـ الكويت ـ ١٣٩٤هـ ـ١٩٧٥م.

البناء الموازي للعوامل في مدونة سيبويه
(شجاعة العربية في التركيب الوظيفي)

ملخص البحث

من المهام المنهجية إثارة اسئلة تحاول تقديم معلومات عبر الأجوبة والسؤال الذي يطرح نفسه ههنا ـ بوصفه ممراً منهجياً يفضي إلى رؤية واضحة ـ هل هناك عامل معنوي؟.

ربما يجد الناظر فجوة عميقة يصعب معها الجمع بين النظرية والتطبيق إذا ما نُظِر إلى أنّ مفهوم العامل المعنوي في رسم التصّور والانطباع المتقصّى ههنا ليس (الإبتداء والفعل المضارع والصفة على رأي الأخفش). بل آثرت أنْ أتقصى تفاعل العناصر النحوية بعضها مع بعض مكوناً وحدة لسانية لا يمكن فصل بعضها عن بعض من وجهة نظر علائقية، ويرتكح توجّه مشروعية هذه الورقة البحثية إلى أنّ المدلول اللغوي لمادة (عمل) يشير إلى معنى الرصّ والإتباع، إذ ورد في العين «واعملت إليك المطي اتبعتها وفلان يعمل رأيه ورمحه وكلامه»(١). ومما هو شائع أنّ البنائين هم أولئك الذين يعملون من الطين لبنات لتشييد البناء ويذكرهم الخليل بقوله: «والعَملة الذين يعملون بأيديهم ضروباً من العمل حفراً وطيناً»(٢).

فنحن أمام رصّ وترتيب وإتباع يتبناه عامل فاعل لهما. ما نفسّر به إنّ مفهوم العامل المعنوي ههنا هو العلاقات (الفاعلية العلائقية) المحكومة بالقصد

---

(١) العين ٢/١٥٤.

(٢) العين ٢/١٥٤.

والوعي والإرادة فتكون بهذه السلطة موازية للعوامل اللفظية في استجلاب المعمول. وارتكحت إلى قول الراغب الأصفهاني (ـ٥٠٢) في تمييزه العمل من الفعل حين رأى أنّ العمل صادر عن قصد ووعي؛ لذلك لا يُنسب إلى الحيوان إلّا في القليل[1]. وهو أمر لا يُستعظم في إنّ المعنى هو المُوجِد للعلامة الإعرابية ، فالعامل في نقائه الفطري هو الفهم الصحيح لعلائق التركيب وقوة تأثير الكلمات بعضها على بعض نقدم لها متطوعاً هو نص سيبويه الذي جاء في مصاديق على ذلك:

اولها: الركن التكميلي المنصوب بعد اسم الفاعل.

ثانيها :الركن التكميلي المنصوب بعد خبر الجملة الاسمية.

ثالثها: الركن التكميلي المنصوب بعد ألفاظ العقود.

ويسبق ذلك مهاد لبيان مشروعية البحث ثم تقفو ذلك نتائج استُكنهت من النصوص.

مما تقدم نحاول أنْ نضع وجهاً من الإجابة في هذه الدراسة أنّه ليس من قبيل الاعتباط الإتيان بمنصوبات بعد تمام الكلام بل لما تحمله من شحنات دلالية استقصاها سيبويه في تعقل ووعي وإجادة ولم يغفل عنها يمكن تلمس ذلك بقراءة متأنية لنظريته النحوية التفسيرية التي تجاوزت في قدرتها استيعاب النظام.

---

(١) ينظر الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٢٢٠.

مهاد البحث

يرى المتأمل في فكر سيبويه أنّ صلة الدلالة ببنية الجملة ناتجة عن وسيط معرفي لغوي هو الحدث وهو في ظلّ هذا المفهوم يكتسب درجة المركب المعرفي اللغوي الذي تستند عليه جملة الحقائق اللغوية النحوية. وننطلق من أساس مفاده أنّ النواة الرئيسة في تكوين الكلام هي البنية العميقة نفسها بوصفها «الأساس الذهني لمعنى معين يوجد في ذهن المتكلم ويرتبط بتركيب جملي أصولي ويكون هذا التركيب رفداً وتجسيداً للمعنى وهي النواة التي لابدّ منها لفهم الجملة ولتحديد معناها الدلالي»(١).

ونظراً لما تؤدِّيه المكونات النحوية (الفعل، الظرف ، الاسم، الصفة) من أدوار محورية ـ هي مواقع ذات دلالة مركزية في الجملة ـ سيتمّ في ضوء ذلك استدعاء الفضلة ـ التي تلي بعض هذه المكونات ـ بوصفها عنصراً إجبارياً يكمل المعنى لعدم الكفاية الدلالية .

إنّنا لا نبالغ في تقدير أهمية هذه الفكرة وهي وقوع حالات النصب التي لا يمكن أنْ تُنسب إلى مؤثر فعلي(٢) وحتى يُفهم أكثر منطق الاستدلال هذا فإنّنا نستعين بنصوص سيبويهية نُثبت عبرها أنّ «المعنى في مذهبه هو وحي الشرط والقاعدة وهو الذي يحكم الإعراب ويهيمن عليه»(٣) فالمعنى لايتيه عند سيبويه وسط ركام العامل اللفظي، بل أنّه يُعطي الأهمية للوظيفة التبليغية لعناصر البنية

---

(١) قضايا الأصول التراثية ص٨٣.

(٢) أعني به الفعل بوصف العمل في الأصل للأفعال.

(٣) المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل ٣٠٨/١، وينظر اللسانيات الوظيفية ص١٠٤ وعلم الدلالة بين النظرية والتطبيق ص٩٨.

اللغوية، ويتجلى ذلك المعنى في المواضع التي ستتم معالجتها في (الحدث) وهو صدور أمر عن ذات بظهور الانتساب إليه فعلاً أو نسبة[١]. وعليه سيكون مفهوم البناء أوسع من مفهوم الإسناد ـ باستنباط ذلك من نصوص أبي بشر ـ في تجاوز نموذجي (المبتدأ والخبر) و(الفعل والفاعل) إلى ما يرد بعد استغناء الكلام. فالإسناد في الاحتياج والطلب يسير من اليمين إلى اليسار أمّا البناء فيسير من اليسار إلى اليمين «فعملية البناء عملية تشمل اللغة بكاملها فالطالب يحتاج إلى المطلوب والمطلوب يُبنى على الطالب؛ لأنّ بينهما علاقة معنوية تقوم على الاحتياج ولا يستغني أحدهما عن الآخر» [٢] وبمعنى آخر أنّ التوصيف التفصيلي ههنا سيكون لرؤية سيبويه إلى الوظيفة اللغوية على أنّها وحدة ثنائية تحتوي عنصراً فاعلاً «العامل وهو المتكلم نفسه أو عنصر معين في ما يلفظه وعنصراً سالباً المعمول فيه من قبل العنصر الفاعل في الوحدة الثانية» [٣]. فإذا ما ثبتت صحة هذه الرؤية تعيّن أنْ تكون (الفضلة) ـ كما يسمّيها النحاة ـ دليلاً مادياً رابطاً لعناصر الجملة وإذا دققنا أكثر نقول إنّها مجال الوظيفة النحوية لضمان أسس التكوين الدلالي والتركيبي ، وهو أساس وظيفي يقوم على الانعكاس بين متكلم ومخاطب بوصف الوظيفة النحوية ههنا «فكرة ما عن البنية في عقل

---

(١) يذهب علم اللغة الحديث إلى أنّ صيغ الأفعال والمشتقات هي دوالّ نسبة يقول فندريس بعد أنْ فرّق بين الجملتين الفعلية والاسمية بأنّ الفعلية هي (أنْ تأمر بحدث أو أنْ تقرر حدثاً أو أنْ تتخيل حدثاً والثانية يعبر بها عن نسبة صفة إلى شيء) ينظر اللغة ص٣٢.

(٢) بناء الجملة العربية ونظرية النظم (مقال على الانترنت) وينظر الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة ص٥٤ والوظيفية في كتاب سيبويه ص١٣٨.

(٣) نحوي عربي من القرن الثامن ص٩ ، وينظر جملة المفعول عند سيبويه ص٢٩.

المتكلم توجّهه في صوغ جمله وتراكيبه»[1].

وبهذا الطرح السيبويهي ندرك أنّ اتصال هذه المكونات المكملة بالنواة الإسنادية شرط لازم نستجيز أنْ نطلق عليه اسم متممات الإسناد أو مكملات اجبارية. ما نؤكِّد به أنّ سيبويه ماز بين الصورة الذهنية ومقدار ما تتمتع به هذه الصورة من تمثلات داخل نظام الجملة عن طريق نقلها متوافقة مع الأفكار التي يُراد تمثيلها ما يُوجب إلى استكناه حقيقة أنّ الاسم المنصوب عمدة في مفهوم الحدث –لا فضلة- لأنّه الغاية والقصد فالسابق يطلب اللاحق واللاحق ينبني على السابق وتتأكّد هذه الحقيقة في باب من أبواب (إنّ) في قول سيبويه: **«وتقول لولا أنّه منطلقٌ لفعلت فأنّ مبنية على لولا كما تبنى عليها الاسماء»**[2] وننتزع تعليقاً للسيرافي يتعقب فيه هذه التجليات الدقيقة لمعنى البناء قائلاً: «يريد معقودة بـ (لولا) في المعنى الذي تقتضيه ولولا مقدمة عليه وليست عاملة فيه ؛ لأنّ الاسم بعد لولا يرتفع بالإبتداء لا بـ (لولا) ولزومها للاسم بعدها بالمعنى الذي وضعت عليه كلزوم العامل للمعمول به فشُبّهتْ به ففتحت (أنّ) ولم تكسر؛ لأنّ (إنّ) المكسورة إنّما تدخل على مبتدأ مجرّد ولم يغيّر معناه بحرف قبله»[3].

إنّ استتباع قول السيرافي لنص سيبويه فيه تبيان التقاطع بين الأفق المرجعي للبناء والأفق الدلالي ، فقد استعمل سيبويه لفظ البناء في الشيء الذي ليس بعامل

---

(١) الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى ص٦١.ر بناء الجملة ص٣٥، والمنهج الوصفي في كتاب سيبويه ص٢٣١.

(٢) الكتاب ٣/ ١٢٠.

(٣) الكتاب٣/ ١٢٠ (الهامش رقم ٢).

فيما يبنى عليه ويغدو رصف الدوال في قوله: «**أنْ مبنية على لولا**» صورة عاكسة لهذا التصور، فالبناء من جهة الاحتياج أوجد تعلقاً للألفاظ بعضها ببعض فأخذ بعضها بحجز بعض على الصعيدين البنيوي والمعنوي، فالنظام سابق في وجوده على متعيناته الخارجية؛ لذا فقد تعامل سيبويه مع الوظيفة الدلالية للجملة تعاملاً على أنّها نظام يُفسِّر السمة الدلالية للجملة وإنّ هذه الأخيرة أي السمة الدلالية قائمة على الاختلاف الذي تظهر به عن باقي السمات الملائمة لحالة التواصل المقرونة ذاتياً بالجملة.

ويمكن تقريب الفكرة بالقول إنّ نظام العلاقات هو السبب الرئيس في الحصول على معنى ؛ لكنّه لا يعتبر نظاماً مثالياً تنبثق عنه القيم فقد يكون الفاعل في الإسناد مراداً منه المشاركة فيلجأ إليه المتكلم، يقول أبو بشر: «اعلم أنّك إذا قلت: فاعلته فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته . ومثل ذلك ضاربته وفارقته وكارمته وعازرني وعازرته وخاصمني وخاصمته»[1] فالمشاركة واقعة من الفاعل والمفعول ، فكلاهما فاعل في المعنى إلّا أنّ الصناعة تقتضي الفاعلية لأحدهما فالمعنى ولّد بنية؛ لأنّه في موضع آخر يقول: «**وقد تجيء فاعلت لا تريد بها عمل اثنين ولكنّهم بنوا عليه الفعل كما بنوه على أفعلت وذلك قولهم: ناولته وعاقبته وعافاه الله وسافرت وظاهرت عليه وناعمته. بنوه على فاعلت كما بنوه على أفعلت**»[2] يريد أنّ فعل وفاعل لمعنى كما أنّ فعل وأفعل يأتي بمعنى واحد ما يلحظ عبره أنّ المعنى يولِّد البنية التي تقوم بدور وظيفي نحوي .

---

(١) الكتاب ٤/ ٦٨.

(٢) الكتاب ٤/ ٦٨.

يُستنبط مما تقدّم أنّ فكرة الترتيب بين أجزاء الجملة الواحدة لها علاقة بمفاهيم دلالية يمكن التأسيس لها عند سيبويه بجملة من العلاقات السياقية المعنوية التي تحكم بنية الجملة منها الإسناد والتخصيص. من حيث إنّ الإسناد علاقة أساسية يتم على وفق النظر السيبويهي تخصيصها أو تقييدها بعلاقات التخصيص.

وبغية الإفادة من الإمكانات التعبيرية بما يتناسب والموقف الخارجي ـ بما تحتويه من متكلم ومخاطب ومؤثرات اجتماعية ـ تكون النسبة تالية لطرفي الإسناد.

مصاديق التركيب الوظيفي:

أولاً: الركن التكميلي المنصوب بعد اسم الفاعل.

قد تتحوّر طائفة من الاسماء في احشائها التصميمية الصرفية فتكون في تشكيلة تتيح لها تقنية عمل الفعل في أنْ تسلك السلوك العاملي في جلبها معمولاً مرتبطاً بها وهو ما عُرِف في نصوص الكتاب بوصف سيبويه له بالإجراء مجرى الفعل بقوله: «**هذا باب ما جَرَى في الاستفهام من أَسماءِ الفاعلينَ والمفعولينَ مَجرَى الفعل كما يَجرى في غيره مَجرى الفعل. وذلك قولك: أزيداً أنت ضاربُه؟. وأزيدا أنت ضاربٌ له؟. وأعمراً أنت مُكرِمٌ أخاه؟. وأزيدا أنت نازلٌ عليه؟. كأنّك قلت: أنت ضاربٌ . وأنت مُكْرِمٌ وأنت نازل .كما كان ذلك في الفعل؛ لأنّه يَجرى مَجراه ويَعْمَلُ في المعرفة كلِّها والنكرةِ مقدَّما ومؤخَّرا ومظْهَرا ومضْمرا**»[1].

وأحياناً يصفه بالتشبيه على مانحو ما أورده في «**هذا باب الصفة المشبَّهة بالفاعل فيما عَمِلتْ فيه، ولم تَقْوَ أنْ تَعمل عَمَلَ الفاعل؛ لأنّها ليست في معنى الفِعل المضارِع ، فإنّما شُبِّهَتْ بالفاعل فيما عَملتْ فيه**»[2].

ويتعمّق أبو بشر في توصيف وتقعيد هذه التحويلات البنيوية في أنّ «**فاعل مثل يفعل**»[3] ويتوسّع في الكشف عن استجازة أنْ يؤتى بهذه الأسماء عاملة في الوقت الذي تنتظم فيه أصلاً أن تكون معمولة، بما ينكشف عبره أنّ العمل النحوي عند سيبويه «سمة قبلية في الصنف بمعنى أنّه جزء من معلوماتنا اللغوية

---

(١) الكتاب ١٠٨/١ ، وينظر ٣٣/١و١٠٨/١و١٦٤/١و١٨٩/١.

(٢) الكتاب ١٩٤/١.

(٣) الكتاب ١٠٩/١.

عن الصنف فكما نعلم أنّ هذا الصنف مذكّر أو مؤنث وأنّه نكرة أو معرفة وأنّه اسم أو فعل أو حرف نعلم كذلك أنّه يكون في التركيب عاملاً أو معمولاً»[1].

ولا يفوت سيبويه إيضاح هذا الجانب التماثلي بين طاقة الفعل وطاقة الوصف والمقاربة بينهما؛ إذ تُلمح ملامح الفعلية في اسم الفاعل من دلالته بصيغته على الحدث ما سوّغ له استدعاء المعمول في الممارسة النطقية يتضح ذلك في باب اسم الفاعل «**الذى جَرَى مَجرى الفِعل المضارعِ في المفعول في المعنى فإذا أردت فيه من المعنى ما أردت في يَفعَلُ كان نكرةً منوّنا .وذلك قولك: هذا ضارِبٌ زيداً غداً . فمعناه وعملُه مثلُ هذا يَضْرِبُ زيداً غداً .فإذا حدّثت عنِ فعلٍ في حينٍ وقوعِه غيرِ منقطعٍ كان كذلك. وتقول: هذا ضاربٌ عبدَ الله الساعةَ. فمعناه وعملُه مثلُ هذا يَضرب زيداً الساعةَ . وكان زيدٌ ضارباً أباك .فإنّما تُحدَّث أيضاً عن اتَّصال فعلٍ في حال وقوعه. وكان مُوَافقاً زيداً فمعناه وعملُه كقولك: كان يَضرب أباك ويوافِقُ زيدا . فهذا جرى مجرى الفعِل المضارعِ في العمل والمعنى منوَّنا**»[2] إذ يُحدِّد أبو بشر هذه التحويرات التصريفية الداخلية لصنف اسم الفاعل والتي كانت وسيلة في استدعائه معمولاً أنّك «**أردت فيه من المعنى ما أردت في**

---

(١) نظرية النحو العربي ص٢١- ٢٢.

(٢) الكتاب ١/١٦٤.ممايلفت النظر أنّ هذه المقاربة كسعت المصطلح كذلك باستعمال سيبويه مصطلح (الفعل) تعبيراً عن (اسم الفاعل) في قوله: (فإذا أخْبَرَ أنّ الفعل قد وقع وانقطع فهو بغير تنوين ألبَتَّةَ؛ لأنَّه إنما أُجرِيَ مُجرى الفِعل المضارِع له كما أَشبَهه الفعلُ المضارعُ في الإعراب فكلٌّ واحد منهما داخل على صاحبه فلما أراد سِوى ذلك المعنى جرى مجرى الأسماء التي من غير ذلك الفعل لأنَّه إنما شُبِّهَ بما ضارعه من الفعل كما شبه به في الإعراب .وذلك قولك: هذا ضاربُ عبدِ الله وأخيه) الكتاب ١/١٧١.

يَفعَلُ»[1] ويتكرر المعنى في نصّه هذا ست مرات ما يُستثبت عبره بتيقّن أنّ عمل اسم الفاعل ههنا مرهون بالإرادة في ظلّ هذا البناء الصرفي العاملي لا المعمولي ويعرب عن ذلك قوله : (أردت فيه)، بل أنّ استثمار هذه الطاقة الاستدعائية في جلب المعمول وفرض وجوده اتماماً للمعنى توجِب له الذكر مقدَّماً أو مؤخراً وعلى وفق مداولته في هياكل تركيبية إذ يقول في : **«أمّا زيداً فأنا ضاربٌ. كأنّك لم تذكر أمّا ،وكأنّك لم تذكر ما، وكأنّك قلت زيداً أنا ضاربٌ»**[2].

فهو ههنا مع تأديته وظيفة خاصة على مستوى التركيب النحوي فإنّه على مستوى الخطاب يؤدي وظيفة أخرى كمنت في إيصال المعنى المقصود بما تقع فيه الفائدة وتؤيّد سيبويه ـ بإقراره فاعلية اسم الفاعل في معموله ـ أدلة تنسج هذه الرؤية المعنوية في عملية استدعاء المكون المنصوب في ظلّ رفد المقاربة بين الفعل والوصف منها إعلام سيبويه إيّانا أنّ دنو اسم الفاعل من الفعل يكون عبر دخول (ال) عليه ،والتي لا يقصد بها التعريف بل هي تقليص قوي للاسم الموصول (الذي). التماس ذلك من جهده المقالي في **«هذا بابٌ صار الفاعِلُ فيه بمنزلة الّذي فَعَلَ في المعنى وما يَعْمَلُ فيه. وذلك قولك :هذا الضاربُ زيداً . فصار في معنى هذا الّذي ضرَبَ زيداً وعَمِلَ عَمَله ؛لأنّ الألفَ واللام مَنَعَتا**

---

(١) الكتاب ١/١٦٤ .يردّ الرضي ـ وهو الذي قارب فكره الفكر السيبويهي ـ على بعض النحاة الذين ذهبوا إلى أنّ الخبر محذوف سد مسد الفاعل في نحو قولهم: (أقائم أبوه زيد) قائلاً: (والنحاة تكفلوا إدخال هذا أيضاً حدّ المبتدأ الأول فقالوا: إنّ خبره محذوف لسد فاعله مسد الخبر وليس بشيء بل لم يكن لهذا المبتدأ أصلاً من خبر حتى يحذف ويسد غيره مسده ولو تكلفت له تقدير خبر لم يتأت إذ هو في المعنى كالفعل والفعل لا خبر له) ينظر شرح الكافية ١/٢٢٥.

(٢) الكتاب ١/٧١- ٧٢.

الإِضافة وصارتا بمنزلة التنوين وكذلك هذا الضاربُ الرّجلَ وهو وجهُ الكلام»[1].

وتتضمن المقاربة بين الوصف والفعل توليد تماثل آخر أسهم في توسّع المجالات اللاحقية نصباً بعزو صفة أخرى من صفات الفعل وهي التنكير إذ يقول : «**فلا يكون ضاربٌ بمنزلة يَفْعَل وتفعل إلاّ نكرَةً**»[2] وتسلك النون المسلك نفسه للتنوين ويشير أبو بشر في غير موضع من كتابه إلى هذا بقوله: «**فلا يكون ضاربٌ بمنزلة يَفْعَل وتفعل إلاّ نكرَةً. ومثل ذلك قوله عزّ وجل:** ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[3]»[4].

فالسلطة ههنا ليست سلطة أحادية بل هي سلطة تركيبية دلالية تستوعب تعلّق الألفاظ بعضها ببعض بحسب العلاقة المعنوية القائمة على أساس الرتبة واللغة وهي رؤية تشكلت جزئيات تكوينها في هذه النصوص.

ثانياً: الركن التكميلي المنصوب بعد خبر الجملة الاسمية.

صرّح أبو بشر بقوة جاذبية العنصرين المتجانسين (اسم + اسم) داخل إطار الإسناد في باب المسند والمسند إليه «وهما ما لا يَغْنَى واحدٌ منهما عن الآخر ولا يَجد المتكلّمُ منه بدأً. فمن ذلك الاسمُ المبتدأُ والمبنيُّ عليه. وهو قولك: عبدُ الله أخوك وهذا أخوك»[5] إذ يكمن في مدلول الجملة الخبرية الإحالة على واقع

---

(١) الكتاب ١/١٨١- ١٨٢.

(٢) الكتاب ١/١٣١.

(٣) من سورة النساء/الآية١٦٢.

(٤) الكتاب ١/١٨٣. وينظر ١/١٨٤ و١/١٨٧.

(٥) الكتاب ١/٢٣.

متعلق بعلم المخاطب؛ لأنّها تحكي عن واقع خارجي حيث تتضمن حكماً باتحاد المبتدأ والخبر في الخارج واتصافه به[1]؛ ولأنّ الوظيفة الاسلوبية للخبر خطابية تقتضي وجود متكلم ومخاطب يتلقاه ؛ لذا يأتي الخبر مراعياً لحال المخاطب بغية التأثير فيه وإيصال الحقائق بأدق صورة. إلّا أنّ إجراء مبدأ الاختيار عند أبي بشر للخبر أنبأ عن معرفة عميقة بأسرار اللغة واساليب العرب، إذ يقول: «هذا باب ما يرتفع فيه الخبر؛ لأنّه مبني على مبتدأ أو ينتصب فيه الخبر؛ لأنّه حال لمعروف مبني على مبتدأ. فأما الرفع فقولك: هذا الرجل منطلق. فالرجل صفة لهذا وهما بمنزلة اسم واحد كأنّك قلت: هذا منطلق ... وأما النصب فقولك : هذا الرجل منطلقا جعلت الرجل مبنيا على هذا وجعلت الخبر حالا له قد صار فيها»[2].

إذ يُرصد معنى الإخبار في الحال فالحال أشبهت الخبر في كونها محكوماً بها في المعنى على صاحبها، إلّا أنّ الحكم في الخبر قصدي وفي الحال تبعي وعلى أساس محلّ الفائدة في الجملة أطلق سيبويه على الحال أنّه خبر؛ لأنّه قدّم معنى مقصوداً بالبيان[3] يتجلى ذلك أكثر في نصه «**فأما المبني على الأسماء المبهمة فقولك: هذا عبد الله منطلقا .وهؤلاء قومك منطلقين. وذلك عبد الله ذاهبا. وهذا عبد الله معروفاً . فهذا اسم مبتدأ يبنى عليه ما بعده وهو عبد الله. ولم يكن ليكون هذا كلاما حتى يبنى عليه أو يبنى على ما قبله. فالمبتدأ مسند والمبني عليه مسند إليه فقد عمل هذا فيما بعده كما يعمل الجار والفعل فيما بعده . والمعنى أنّك تريد أنْ تنبّهه له منطلقا لا تريد أنْ تعرّفه عبد الله ؛ لأنّك ظننت أنّه يجهله فكأنّك قلت :**

---

(١) ينظر شرح الكافية١ /٨٨- ٨٩. والبحث النحوي عند الأصوليين ص٢٥.

(٢) الكتاب ٢/٨٧.

(٣) ينظر الوظيفية في كتاب سيبويه ص٤٠.

انظر إليه منطلقا. فمنطلق حال قد صار فيها عبد الله وحال بين منطلق وهذا»[1].
فثمة قوة استدعائية لعنصر الحال (الخبر) أثبته سيبويه من حيث إنّ «تشكيل النظم في تجليات الأداء يظلّ مرتهناً بالإنسجام بين قواعده الأفقية والنسقية من جهة وخصائص البنية والدلالة من جهة أخرى»[2].

وبمعنى آخر تنبّه سيبويه إلى أنّ المتلقي يرتضي أنْ يستوعب الإطار الدلالي الإخباري في أنماطه الخطابية علاقة التخصيص بالحال في دلالة الهيأة فيكون بذلك مكملاً لعلاقة الإسناد فيكون المستوى الدلالي مسؤولاً عن وضع المفردات داخل الخطاب وكيفية ترتيبها وذكرها .

إنّ هذا النمط من الخطاب الألسني يتسم بقصدية المتكلم المتضمنة طاقة تأثيرية التي يرى سيبويه أنّ التهاون فيها والارتكان إلى البناء التركيبي من دون استحضار البعد السياقي والمقامي يفقده القيمة التخاطبية حيث يقول: «**فإنّ النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب .وذلك أنّ رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أنْ يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقا .وهو زيد منطلقا .كان محالا ؛لأنّه إنّما أراد أنْ يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية ؛ لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر . وإنّما يضمر إذا علم أنّك قد عرفت من يعنى إلّا أنّ رجلا لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله منطلقا في حاجتك كان حسنا»**[3].

---

(١) الكتاب ٢/ ٧٨.

(٢) العربية نحو توصيف جديد ص١٣٠ وينظر البحث الدلالي عند سيبويه ص٢٠٨ ونظرية البنائية ص٣٥.

(٣) الكتاب ٢/ ٨٠- ٨١.

فنحن بصدد هيأة وظيفية يمكن أنْ نستشفها من كلام سيبويه المذكور آنفاً تتجاوز الحدود التي يقرّها الإسناد تتمثل في «أنّ علاقة الإسناد تسلك بأطرافها مسلك المعلومة المتعارف عليها فهي تنبّه أو توجّه أو تستدعي المخاطب نحو محور الكلام وتأتي علاقة وهي الثانية في تركيب الجملة لتكون هي العلاقة الأبرز التي تتأسس عليها هذه النظرة الوظيفية فيكون الحال حامل المعلومة الأهم»[1]. وبهذا يصبح (الحال) عنصراً من عناصر الإثبات للخبر يقتضيه النظم للتعبير عن الدلالة المقصودة.

ومن المثير للاهتمام أنّ سيبويه يقدّم تفسيراً إنْ لم تضطلع الحال بهذا التخصيص والإثبات فيصف سيرورتها في النمط بالخبث إذ يقول في: «**هذا أخوك عبد الله .إذا كان عبد الله اسمه الذي يعرف به . وهذا كلام خبيث يوضع في غير موضعه . إنما تكون المعرفة مبنيا عليها أو مبنية على اسم أو غير اسم ,وتكون صفة لمعروف لتبينه وتؤكده أو تقطعه من غيره . فإذا أردت الخبر الذي يكون حالا وقع فيه الأمر فلا تضع في موضعه الاسم الذي جعل ليوضح المعرفة أو تبين به فالنكرة تكون حالا وليست تكون شيئا بعينه قد عرفه المخاطب قبل ذلك**»[2] أو يصفها بالقبح كما في قوله: «**ويقبح أنْ تقول: كم غلمانا لك ؛لأنّه قبيح أنْ تقول: عبد الله قائما فيها كما قبح أنْ تقول: قائما فيها زيد**»[3].

فتبعية الحال ههنا تبعية دلالية بوصف الحال تبييناً وتخصيصاً إذ أختُزِل المركب الدلالي فيها بارتكاز على الجانب التركيبي ويوثّق ذلك في قوله إنّ قولهم

---

(١) الوظيفية في كتاب سيبويه ص٤١.

(٢) الكتاب ٢/١١٤.

(٣) الكتاب ٢/١٥٩.

(أنت الرجل علماً). «**أَنَّ العِلْم إذا قلتَ :أنت الرَّجُلُ عِلْماً .عَمِلَ فيه ما قبله وكما عَمِلَ في الدرهمِ عشرون إذا قلت :عشرون درهما**»[1].

إنّ التوغل في توجيه نص سيبويه في أعلاه يُبرز لنا رؤية عقدية تنطلق من تصوره للاسم والصفة من ترتيب يُراعي فيه أولوية الاسماء ثمّ بعدها الصفات ، وليست هذه مجرد تصورات فارغة ،بل أنّ هذا الالتزام في الترتيب في حقيقة أمره يتجاوب بعمق مع التصور الديني العقدي لأسماء الله وصفاته ، فالأسماء دالة على الذات والصفات دالة على أحوال الذات[2] فالاسم عند سيبويه «**ابداً له من القوة ما ليس لغيره**»[3] ويقول: « **لأنّك تبتدئ بالاسم ثمّ تصفه** »[4].

ولابدّ من عدم الاكتفاء بتلك النصوص من دون الإشارة إلى أنّ الصفة لا نعني بها مدلولها النحوي بل تُقَرّ حقيقة يُحصَّل بها حاصل أنّ الصفة ههنا هي تلك النسبة التي يرتفع بها الغموض ببيان حال ما؛ لأنّ «الشيء الواحد قد تكون له أوصاف كثيرة كلها ذاتية؛ لكنّه إنّما هو ما هو لا بواحد منها بل بجملتها»[5] فالخروج بتخصيص جانب واحد لا جملة هيئات وصفات يُفضي إلى الحال، فهناك وجود لغوي فيه وهناك وجود انطلوجي لصاحبه يقتضي المجال التداولي استدعاؤه فتكون الحال علاقة لازمة مخصِّصة ومميِّزة لصاحبها .

إنّ علاقة التداعي المترابط والمتجلي للوحدة النظمية (الحال) تنضوي ضمن

---

(١) الكتاب ١/ ٤٠٤.

(٢) ينظر التأويل في كتاب سيبويه ص٩٨. والأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ص١٦٦.

(٣) الكتاب ٤/ ٢١٨.

(٤) الكتاب ٢/ ٢٩.وينظر ٢/ ٧٧- ٧٨.

(٥) النجاة ص١١.

مبدأ الاستجلاء المرتكز على الإخبار عن حال شخص معلوم وهنا تكون مركزية الإفادة في نسبة مضمون الحال إلى صاحبه وهذه المركزية مولّدة من بؤرة هي صاحب الحال يقول سيبويه: «**لأنّك لا تثني إلّا على من أثبته وعلمته، ولا يجوز أنْ تخلط من تعلم ومن لا تعلم فتجعلهما بمنزلة واحدة**»[1].

يُستنبط مما سلف أنّ مفهوم الحركة التبليغية تتجلى في اسهام مكونات الجملة تقديم التواصل حيث تأخذ المكونات الحاملة للمعلومات الجديدة أعلى الحركات التبليغية بمعنى آخر أنّ المكونات الواردة في أول الجملة ذات حركة تبليغية أضعف من الحركة التبليغية التي تحظى بها المكونات الأخيرة[2].

ويكشف أبو بشر عن هذا النسق الهرمي الداخلي للنظام اللغوي المنجز في الخطاب المتداول أنّه يستحسِن تتابع العناصر وتآلف علاقاتها بربط الإمتداد الخطي بالتواصل الدلالي قائلاً: «**حسن أنْ يبنى على المبتدأ ويكون حالا . فالحال قولك: هذه جبتك خزا** . والمبنى على المبتدأ **قولك: جبتك خز. ولا يكون صفة فيشبه الأسماء التي أخذت من الفعل؛ ولكنّهم جعلوه يلي ما ينصب ويرفع وما يجر ، فأجره كما أجروه فإنّما فعلوا به ما يفعل بالأسماء والحال مفعول فيها**»[3] فالحال ههنا لا تخضع للرفع اللزومي بوصفها خبراً، بل بقيت محتفظة بالأثر الإعرابي الخاص بمجالها «**لأنّه حال لمعروف مبني على مبتدأ**»[4].

---

(١) الكتاب٢/٦٠.

(٢) ينظر نحو نظرية وظيفية ص٦٨ .واللغة والدلالة ص٥٨.

(٣) الكتاب ١١٨/٢.

(٤) الكتاب٢/٨٦.

فاللغة «بهذا الاعتبار تصبح نظاماً لا يعرف إلّا نسقه الخاص»[1] ذلك النسق الذي يقوم فيه الاسم[2] بوصفه دالة نسبة بوظيفة هي إحداث معنى نسبي رابط باعتبار النحو نظام تأليف.

ثالثاً: الركن التكميلي المنصوب بعد ألفاظ العقود (التمييز في عشرين درهماً)[3]

أشار سيبويه إلى الدور الوظيفي النحوي للتنوين في قوله: «هذا ضارِبٌ زيداً غداً. إفمعناه وعملُه مثلُ هذا يَضْرِبُ زيداً غداً. فإذا حدّثت عنِ فعلٍ في حينِ وقوعِه غيرِ منقطعٍ كان كذلك»[4]. وقد لا تعمى النظرة العجلى إلى أنّ (عشرين) مختص بنصب نوع واحد من التمييز هو تمييز المفرد وحمل النحاة إعمالها النصب في المكوّن بعدها على اسم الفاعل لتشابه لفظي ومعنوي فذهبوا إلى أنّ قولك: «عندي عشرون رجلاً مشبّه عندهم بقولك: ضاربون رجلاً ووجه الشبه بينهما أنّ قولك: عشرون .جمع، وإنْ شئت قلت: عدد، وإنْ شئت قلت: كثرة. كما أنّ قولك: ضاربون. كذلك وهو ممنوع بالنون عن الإضافة إلى ما بعده وأنّ المنصوب مبيّن للأول وهو عشرون كما أنّ مفعول ضاربين مبيّن لزيادته في الفائدة وعشرون بما فيه من إبهام يشبه الفعل لما فيه من تنكير»[5].

---

(١) نظرية البنائية ص٣٥.

(٢) أعني به (الرجل) في قول سيبويه (أنت الرجل علماً) والخبر في الجملة الاسمية.

(٣) ننوّه إلى أنّ حديثنا عن (عشرين) وعمله فيما بعده بوصفه رمزاً لألفاظ العقود جميعاً.

(٤) الكتاب ١/ ١٦٤.

(٥) المرتجل في شرح الجمل ص٨٦، وذكر المبرد ذلك أيضاً في ٣/٣٣ وأصول النحو العربي ص١٦٦.

إنّ المتأمل في تصورات الدارسين للوظيفة النحوية الدلالية في التنوين والنون[1] يجد أنّهم قد فسّروا العلاقة التعاقبية بينهما وبين المنصوب في إطار الإعمال، إلّا أنّ سيبويه نظر إليها كنظام ثنائي مركب أو مؤلف من جزأين تواشجا بإضمار (من) بينهما إذ يُؤسس بالتفاتة ذكية تحوّل العاملية من وجودها الأصلي في الفعل إلى أنْ تكون ههنا في الاسم المبهم الجامد (عشرون) فتُوجِد النصب في (درهم) رغم أنّ الأصل فيه أنْ يكون مجروراً بـ (من) فلمّا حُذِفت تخفيفاً استُعيض عنها بالفتحة على الكلمة التي كان حقها الجرّ مورِداً في نطاق معالجته هذه أمثلة واقعية تداولية للغة المدروسة ، إذ يقول : «**وذلك أنّك أردت أنْ تقول: لي مثله من العبيد . ولي مِلؤه من العسل . وما في السماء موضع كف من السحاب. فحذف ذلك تخفيفاً كما حذفه من عشرين حين قال : عشرون درهما وصارت الأسماء المضاف إليها المجرورة بمنزلة التنوين، ولم يكن ما بعدها من صفتها ولا محمولا على ما حملت عليه فانتصب بملء كف ومثله كما انتصب الدرهم بالعشرين؛ لأنّ مثل بمنزلة عشرين والمجرور بمنزلة التنوين**»[2].

وقوله: «قولهم :عِشْرُونَ درهماً .إنّما أرادوا عِشرينَ من الدَّراهم فاختَصروا واستَخفّوا»[3].

وهو بهذا التناول لنماذج وعينات تركيبية جارية على ألسنة العرب في

(١) تجدر الإشارة إلى أنّ سيبويه يعامل التنوين والنون معاملة واحدة وذلك في قوله: (واعلم أنّ كم في الخبر بمنزلة اسم يتصرف في الكلام غير منون يجر ما بعده إذا أسقط التنوين وذلك الاسم نحو مائتي درهم فانجر الدرهم؛ لأنّ التنوين ذهب ودخل فيما قبله، والمعنى معنى رب. وذلك قولك: كم غلام لك قد ذهب) ينظر الكتاب ١٦١/٢.

(٢) الكتاب ١٧٢.١/٢ وينظر ١١٧/١.

(٣) الكتاب ٢٠٣/١.

تعاملاتهم الاجتماعية لا يحاول تعليل مسوّغ الإعمال بقدر ما يُدرج دواعي التركيب حينما ربط النصب بالحذف رغبة في التخفيف[1]. وهذه العينات التركيبية «تمسّ جوهر الطبيعة الإنسانية القابعة في أعماق الخطاب اللساني»[2].

وفي ظلّ هذه الرؤية السيبويهية يتجاوز سيبويه البناء النظري إلى واقع اللغة ورغبة التعبير التي توجّه متكلّمها نحو الخفة وهو أمر خالفه فيه النحاة بعده إذ ظلّ في أنفسهم رغبة إلحاق الاسم المبهم بالفعل، فعدلوا عن تخريج سيبويه التفسيري للوحدات اللغوية بأنّها محدَّدة بنوع معيّن من الارتباط النحوي إلى تخريجات أخرى من دون الالتفات إلى مبدأ أنّ صفة الارتباط النحوي تتعلق بصفة الوحدات اللغوية المكونة لهذا المركب. فهذا السيرافي يُقدِّر في (عندي رطلٌ زيتاً) وفي (لي عشرون درهماً) بـ (ما يُقادر العشرين من الدراهم)[3] ونردف تخريج ابن الوراق القائل بـ «أنّك إذا قلت : عندي عشرون درهماً فالنون منعت الدرهم من الجر كما منع الفاعل من الرفع يعني من رفع المفعول فصارت النون كالفاعل وصار التمييز كالمفعول»[4] فابن الوراق يُشبّه النون بالفاعل والتمييز بالمفعول .

لقد بذل سيبويه جهداً في إشارته إلى أنّ (عشرين) تمارس تأثيراً نحوياً وإنْ لم تعتمد بأيّ حال على فعل محذوف أو معنى فعلي إذ يقول : «**هذا باب الحروف**

---

(١) يتضح أثر المتكلم في توليف هذا المدى من اختيار سيبويه لعبارة (أردت) الموحية بإرادة المتكلم ذلك.

(٢) نظرية تحليل الخطاب ص١.

(٣) ينظر تعليق السيرافي في هامش الكتاب ١١٧/٢ ، وعلل النحو ص٤٩٩- ٥٠٠ ، ونظرية العامل ص٢٣٠ وص٢٣١وص٢٣٤.

(٤) علل النحو ٣٩٢/١.

الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده .وهي من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التي بمنزلة الفعل»[1].

فمما يجذب الانتباه أنّ التنوين والنون عنده متسمان بالسمة العاملية ويبدو ذلك واضحاً في قوله: «**كأَنَّ هذا الكلامَ شيء منَّونٌ يَعمل فيما ليس من اسمه ولا هو هو**»[2].

وقوله : «أمّا كم في الاستفهام إذا أعلمت فيما بعدها فهي بمنزلة اسم يتصرف في الكلام منون قد عمل فيما بعده؛ لأنّه ليس من صفته ولا محمولا على ما حمل عليه»[3]. فهو وإنْ عدَّه عنصراً جوهرياً في البنية النحوية العربية. إلّا أنّه أيضاً دليلٌ مهم «على بضعة مبادئ نحوية قد تتعلق بوظيفة التنوين تأثير جزء من كلام على آخر والعلاقة بين التطابق والانسجام»[4].

فالنصب متأت من وجود صلة أو سبب بأنْ يكون المنصوب عائداً على الاسم المتقدِّم فعلاقة التجانس والترابط والتماسك بين (عشرين ودرهم) تجعل أحدهما معقوداً بالآخر فيرتبطان بعلاقة عضوية يؤدّي الفصل بينهما ضمن الخطاب المستعمل إلى القبح عند أبي بشر إذ يقول: «**وزعم أن كم درهما لك أقوى من كم لك درهما ،وإن كانت عربية جيدة ،وذلك أن قولك العشرون لك درهما فيها قبح**»[5] ويبدو من النص أنّ سيبويه أراد بهذا الطرح أنْ يقف على أهمية الترابط

---

(١) الكتاب ٢/ ١٣١.

(٢) الكتاب ١/ ٤٧١.

(٣) الكتاب ٢/ ١٥٧.و١/ ٩٦.

(٤) عشرون درهماً في كتاب سيبويه ص١٢١ وينظر ظاهرة التنوين في العربية ص٦٢.

(٥) الكتاب ٢/ ١٥٨.

بين (عشرين ودرهم). مما يؤدي إلى استنباط نظام ذهني سليم كفيل بخلق خطاب لساني صحيح في جانبيه التركيبي والدلالي ؛إذ يُستدلّ على ذلك من قوله: «**و يا عشرين رجلا كقولك :يا ضاربا رجلا**»[1].

إذ يفسّر عمل التنوين والنون على أنّه علامة على عدم الاكتمال فالكلام لا يكون مستغنياً إلّا بما بعدها ،فالعنصر الموسوم بسمة النون ـ المماثِلة للتنوين ـ يُقيم آصرة دلالية مع الركن التكميلي بحيث تستمر سيرورة التمام لتنتهي في هذا الركن التكميلي، وتوصل إلى ذلك من خلال استقرائه للحدث اللغوي المتداول.

---

(١) الكتاب ٢/ ٢٠٣.

نتائج البحث

يمكن الخروج من نحو سيبويه التفسيري في سلطة المعمول المفسِّرة بنتائج هي:

١ـ بذل سيبويه جهداً لا يقدّره الّا مَن تعرض بالنظرة الفاحصة لكتابه ،حينما لحظ القيمة المعنوية لباقي مكملات الجملة من حيث إنّ تفسير المعنى الدلالي للجمل ارتبط عنده بمجموعة العلاقات الرابطة بين أجزاء الجمل والمؤلِّفة بينها.

٢ـ يكشف تحليله للنصوص عن فهم عميق وبعيد في عدم تقييده معاني النحو بالوظائف النحوية حينما استوحى من المقتضيات الاجتماعية أنّ المعنى النحوي الدلالي الصحيح هو ذلك الذي يتوافق فيه ـ في اختيار المفردات ـ الجانب الوظيفي والجانب التركيبي باستغلال المتكلم أنواع الاحتمالات التركيبية المرتبطة بمراده، فلا يكتفي بأنْ يكون النظم مجرد ضم، بل هو نظم قائم على التعليق ومراعاة حال المتلقي. فاللغة تتحرك في فضاء الأفكار وعالم الإدراك.

٣ـ إنّ تواتر الدوال أفقياً يفضي إلى أنّه ليس هناك عمدة وفضلة ،وإنّما ترتيب الدوال وتعاقبها داخل السياق هو الذي يضفي عليها أهميتها باستعمال الدال فيما هو أصلح لتأديته على نحو تحكّم الحال في المؤشّر الدلالي فكان عند سيبويه بؤرة الخبر في تمثيله مما يكسب الخطاب قيمته لسانياً ووظيفياً.

٤ـ يستقطب التغيير في المستوى العقلي الباطني تغييراً في التشكيل الخارجي للصياغة النحوية بمعنى أنّ تشكّل الأفكار وتسلسلها يهيمنان على النظام اللغوي بما يقود إلى سيادة اللغة ما نلفت النظر عبره إلى مواضع أخرى تسير على خط متواز ومتناسق مع ما بُحِث منها (لدن غدوةً) و(فيها زيدٌ قائماً) و(هذا عبد الله منطلقاً). الأمر الذي يستلزم تتبع مسير هذا الترتيب في مدونة سيبويه فما بُحِث كان انتقاءً يُمكن أنْ يُعزّز.

ثبت المظان

ـ أساس البلاغة أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ـ تحقيق :عبد الرحيم محمود ـ عرّف به الاستاذ أمين الخولي ـ طبعة دار الكتب المصرية ـ ١٣٤١هـ.

ـ الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ـ أدريس مقبول ـ عالم الكتب الحديث ـ عمان ـ ط١ ـ ٢٠٠٦ م.

ـ الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية – د. خالد ميلاد – جامعة منوبة – تونس – ط١ – ٢٠٠١م.

ـ البحث النحوي عند الأصوليين – د. مصطفى جمال الدين – منشورات وزارة الثقافة والإعلام – دار الرشيد للنشر ـ١٩٨٠م.

ـ بناء الجملة العربية ونظرية النظم – مقال على الانترنت – عزام محمد ذيب الشريدة.

ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة – الراغب الأصفهاني – مراجعة طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ١٩٧٣م.

ـ شرح الكافية في النحو – رضي الدين الاسترابادي – دار الكتب العلمية – بيروت – (د. ت).

ـ شرح كتاب سيبويه – أبو سعيد السيرافي – تحقيق : رمضان عبد التواب ومحمود فهمي حجازي ومحمد هاشم عبد الدايم – مركز تحقيق التراث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٨٦م.

ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية – اسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق:

أحمد عبد الغفور عطار – ط٢ – ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

- العربية نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية – د. نهاد الموسى – دار الفارس للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – ٢٠٠٠م.

- علل النحو – أبو الحسن محمد بن عبد الله الوراق – تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش - دار النشر – مكتبة الرشد - الرياض – السعودية – ط١- ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩م.

- علم الدلالة بين النظرية والتطبيق - أحمد نعيم الكراعين – المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع.

- قضايا الأصول التراثية في اللسانيات المعاصرة عرض وتحليل (بحث) – د. عاصم شحادة علي – مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – العدد/ ٧٩.

- كتاب سيبويه – أبو بشر عمرو بن عثمان – تحقيق: عبد السلام هارون – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط٢ – ١٩٧٧م.

- كينونة الفعل – (مقال على الانترنت) – د. عبد الوهاب حسن حمد .

- لسان العرب – أبو الفضل جمال الدين بن منظور – الدار المصرية للتأليف والترجمة – (د.ت) .

- اللسانيات الوظيفية – عبد القادر المهيري – المعهد القومي لعلوم التربية – تونس – ط٢ – ١٩٩٠م.

- اللغة - ج. فندريس – ترجمة عبد الدواخلي والقصاص – مطبعة دار البيان - القاهرة –(د. ت) .

- اللغة والدلالة – عدنان بن ذريل – اتحاد الكتاب العرب – دمشق -١٩٨١م.

ـ معجم مقاييس اللغة – أحمد بن فارس – تحقيق: عبد السلام هارون – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – مصر – ١٩٧٩

ـ المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل ـ عبد العزيز عبدة ـ منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان – طرابلس – ط١ – ١٣٩١هـ ـ ١٩٨٢م.

ـ المفهوم التكويني لنظرية العامل النحوي في كتاب سيبويه – د. غالب المطلبي ود. حسن الأسدي – المورد – مج/٢٧ـ العدد /٣ – ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

ـ نحو نظرية وظيفية للنحو العربي – أطروحة دكتوراه – يحيى بعيطيش ـ جامعة منتوري – قسنطينة – ٢٠٠٥ـ٢٠٠٦م.

ـ نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد (دراسة عن منهج سيبويه في النحو) – مايكل جي كارتر – ترجمة : عبد المنعم آل ناصر – المورد – دار الشؤون الثقافية العامة – المجلد / ٢ – العدد / ١ – ١٤٢١هـ ـ ١٩٩٢م.

ـ نظرية البنائية في النقد الأدبي – د. صلاح فضل – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ـ العراق – ط٣ – ١٩٨٧م.

ـ نظرية تحليل الخطاب النشأة والتطور والبناء (بحث) – د. مازن الوعر – مجلة الموقف الأدبي – العدد/ ٣٧ – دمشق ـ ٢٠٠٢م.

ـ نظرية العامل في النحو العربي ودراسة التركيب – (بحث) – د. عبد الحميد مصطفى السيد – مجلة جامعة دمشق – المجلد / ١٨ – العدد(٣+٤)ـ ٢٠٠٢م.

ـ الوظيفية في كتاب سيبويه – أطروحة دكتوراه – رجاء عجيل إبراهيم – العراق ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

اللغةُ صيرورةٌ اجتماعيةٌ ونفْسٌ عربيةٌ
(إضاءة سيبويه في مدونته)

ديباجة

ـ قال أبو منصور الثعالبي النيسابوري رحمه الله ـ:

«مَنْ أحبّ الله تعالى أحبّ رسوله محمداً ﷺ، ومن أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبَّ العربية عُنيَ بها، وثابر عليها، وصرف همَّته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقّه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء والزند للنار. ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومصارفها والتبحر في جلائها ودقائقها، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة، لبتي هي عمدة الإيمان، لكفى بها فضلا يَحْسُنُ فيهما أثره، ويطيب في الدارين ثمره، فكيف وأيسر ما خصَّها الله عزَّ وجلَّ به من ضروب المامدح يُكِلُّ أقلام الكتبة ويتعب أنامل الحسبة».

(مقدمة كتاب فقه اللغة)

ملخص البحث:

تعدّ اللغة عنصراً رئيساً في إعطاء الصفة الاجتماعية للمتحدثين بها، بوصفها من أكثر الظواهر الحياتية التصاقاً بحياة الأفراد فتتجسد فيها مقاييس المجتمع وأعرافه وتقاليده وثقافته فلا تدعُه مقرّة أنّها صنوه الكاشف عنه. ولما كان مدار فَهْم الكلام والقدرة على تحليله إنّما يكون بالنظر إليه في إطار اجتماعي فقد أفرزت جهود سيبويه في كتابه أفكاراً قيّمة في التحليل النحوي، انعكس ذلك بوضوح في معالجاته التفسيرية للظواهر اللغوية الجارية على ألسنة المتكلّمين بمعطياتها وأصولها ، بما لا ينأى عمّا بلغه البحث الألسني الحديث .

إنّ الحصافة التي نأملها لبحثنا هذا مع توجّهتنا واستزادتنا من توجّهات المحدثين نُدرك أنّ لكلّ منهج ولغة خصوصية، إلّا أنّ عموماً ما تتشارك به اللغات الإنسانية، ما يجعلها تتلاقى في كثير من الموارد. وهو ما يكسب هذا النوع من البحوث صفة العالمية ؛لأنّه يبحث في قضية موجودة في جميع اللغات وهي المقاصد التي تنكشف عبر الاستعمال الاجتماعي .وقد رأيت أنّ سيبويه خدم هذه الذخيرة في كتابه عن طريق مرتكزين:

الأوّل: الفاعل(المتكلّم) فكلّ اللغات تعرفه؛ لأنّ مؤدّى ما يبغيه المتكلّم هو حصول الفهم.

والآخر: الحدث بوصف اللغة حادثة تصدر عن متكلّمها بتشكيلات إنجازية.

وقد رفدنا البحث بثلاثة مباحث يتقدّمها تمهيد ـ فيه تفصيل مرتكزات الاستعمال ـ وتقفوها نتائجه جاء:

ـ المبحث الأوّل موسوماً بـ (تجلّيات الاستعمال في الاستقامة والإحالة).

ـ والثاني : عائدية الحركة إلى الاستعمال.

ـ والثالث : غلبة الاستعمال الدواعي الصناعية.

إنّ هذه القراءة هي عودة واعية إلى النحو العربي القديم لكشف النقاب عن ارتكان شيخه إلى الاستعمال، مما أبرز نسبة تقارب وتشابه بين رؤى سيبويه ورؤى الألسنيين، نستشفّ ملامحها من دراسته الدائرة على الأصناف الخطابية ، وكيفيات صياغتها، وهي محاولة منا لاستجلاء جهد سيبويه في حقل (الاستعمال). الذي يكون موافقاً لمقتضى المقام، جاعلاً منه مقياساً جوهرياً للاحتجاج ، وفيصلاً في الحكم على التراكيب بأنّها أصولية أو غير أصولية. باعتمادٍ منه على الحسّ اللغوي نتيجة الإلْف بسيرورة التداول والتحاور الجاري بين المتكلّمين ،بما يكشف عن معرفة الجوهر الإنساني القابع في أعماق الخطاب اللساني.

مهاد:
مرتكزات الاستعمال الاجتماعي في السلوك اللغوي

تروم هذه الدراسة تقديم رؤية سيبويهية لحُجيّة الاستعمال الاجتماعي انطلاقاً من منظور تشييدي ـ معرفي يتجاوز بعض التصورات القابلة للدحض؛ لأنّنا لا نسمح بعرض الفكرة الّا عبر نصوص سيبويه نفسها، تلك النصوص التي نصنّفها بالارتكاز على تأويلاته، وهي قراءة تستلزم بناء مفهوم الجهة البلاغية أيضاً، بيد أنّ مثل هذه القراءة تمرّ أولاً عبر قوالب ذهنية تمكّن المتلقي من التواصل انطلاقاً من بنية مشتركة منشطرة إلى بنية فعلية، واسمية في بعد تعليمي وتعدد نسقي. وهذا البعد التعليمي سيحيلنا بدوره إلى الكفايتين التفسيرية والتأويلية في الفكر السيبويهي لِما تقتضيه مقصدية الكلام من حضور الذات المؤوِلة على وفق فتح آفاق مهمة لهاتين الكفايتين، إذ لا يمكن عزل الجانب البلاغي عن المجتمع .

ومن هنا فإنّ سيبويه لا يفوّت نصّاً إلّا بنظرة منه إلى مكوناته عبر حوار يتحاشى فيه التركيز على جانب واحد بأَنْ يعرض للمسألة بإطار مجرد من الاستعمال فالارتكاز عنده يتم بدءًا على التحليل النسقي لنمط الكلام، من حيث إنّ تحليل مكونات النمط ودراسة تعالقها وتنظيمها تجعل التعميم ممكناً بتأكيده، أو نفيه ولاسيّما إذا بُني على فرضية عمل توجّهه وتضبط مساره. وبقدر ما يخضع النسق لتوجيهات تتطلبها مظاهر الحجاج، فإنّها كذلك تستند إلى التجربة وشروطها التداولية.

إنّ استدعاء النظر إلى الأنماط الكلامية عبر منظورها الخطي أولاً، إنّما هو لانجذابها إلى بؤرة مركزية هي (المسند والمسند إليه)، إذ تخضع الأنماط الكلامية

لآلية التفسير عن طريق مبدأين (التوافق واللاتوافق) بوصفهما لغة واصفة تنحصر بينهما أشكال تلك الأنماط من حيث إنّ استقامة الكلام كامنة في نظمه، وباعتبار أنّ «بناء المعنى هو قبل كلّ شيء قضية ذريعية تداولية ترتبط بالمعرفة الخلفية وبالوضعيات الشارطة لفعل الإدراك» [1]. فقد كان كتاب سيبويه مليئاً بمعالجات العدول عن القياس العقلي المنطقي المجرد، فيفسّره في ضوء نظام العربية رابطاً إيّاه بالمعنى، إذ يتسع هذا النظام ليستوعب تلك المعاني المختلفة، فجاءت نصوصه مُغنية للبيب شافية كافية، ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية تعيش في حياة الناس اليومية، فقد رأى سيبويه أن يوسّع النحو بإضافة مستوى التداول إلى البنية التركيبية الداخلية، مما مكّنه من إعادة بناء جزء من المقتضيات التي تجعل الأقوال مقبولة تداولياً بالنظر إلى السياق التواصلي الذي تُنجز فيه، وتقبلها الجماعة اللغوية، فلم يكن النحو عنده صناعة لفظية مجردة عن المعنى والسياق الذي يُصاغ فيه التركيب بل إنّ الأغراض والمقاصد كانت لبّ الدراسة النحوية لديه حينما أظهر عبرها الوظيفة الإبلاغية للكلام تماشياً مع قوانين المجتمع الكلامية ونواميسه التعبيرية وتلك لمحات رائدة إلى العلاقة بين اللغة وحاجات المجتمع.

إنّنا نعتضد ههنا تأثير الفقه في بحثه النحوي من حيث إنّ الباحث في أصول الفقه واستنباط أحكام الشريعة يعتمد معرفة المقاصد التي تحملها نصوص الكتاب والسنة «فعملية الاستنباط مترتبة على الفهم الذي يتكفل به البحث النحوي» [2]. إذ جاء أبو بشر لطلب الفقه وانصرف عنه إلى اللغة للقصة

---

(١) البحث الدلالي ص٣٧٣.

(٢) البحث النحوي عند الأصوليين ص٣٨.

المعروفة. ومن هنا فإنّ سيبويه في بحثه المتعمق لكلام العرب، لامَسَ واقعهم الاجتماعي عبر الفاعل(المتكلم)[1] فالكلام عن الفاعل يعني الكلام عن الحياة؛ لأنّ وجوده يعني (الفعل والعمل)، فالأغراض ألصق بالمتكلم وبواعثه النفسية وحاجاته للتعبير عن مكنونات صدره، ولما كان كلّ شيء حادثاً لابدّ له من مُحدِث ـ إذ قيام الفاعل بالحدث أو العمل الذي يدلّ عليه الفعل هو شرط أساسي لكون الفعل حقيقياً ـ فالكون حادث ومُحدِثه الله تعالى، وبعبارة اللغة فاعل فعل خلْق الكون هو الله تعالى. فإنّ هذا المفهوم الديني سحبه سيبويه على منهجيته في كتابه حينما تعامل مع اللغة على أنّها مُحدَثة لا بدّ لها من مُحدِث وهو المتكلّم، فالأساس الذي قامت عليه المنظومة النحوية السيبويهية هو أساس عقدي[2] انبنت عليه دراسته ظواهر الاستعمال التي أكدتها الدراسات اللسانية المعاصرة في إطار الطابع التداولي داخل الحياة الاجتماعية .وقد شكّل ذلك عند سيبويه نظرية لسانية تُمِيّزُ من جهة التحليل والتفسير بين ميدانين لغويين «هما اللفظ الدال ومدلولاته والخطاب الذي هو كيفية استعمال هذا اللفظ ومدلولاته في الإفادة»[3].

إنّ معرفة هذا منهلها أحرى بها أنْ تتكامل نظرتها إلى اللغة بوصفها كوناً رمزياً مطابقاً لأصله (وهو الوجود).

---

(١) لا نعني بالفاعل ههنا الوظيفة النحوية بل نعني به منفذ العملية الكلامية.

(٢) رأى جورج مونان أنّ قضايا اللغة كانت ملابسة لقضايا المعتقد في كلّ الحضارات التي عُرفت بكتاب سماوي، ينظر تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ص٢٥.

(٣) المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية في العالم العربي ص٣٧٩ وينظر آليات تحليل الخطاب ص٢٤ والاستعمال اللغوي وعلم المخاطب في كتاب سيبويه مقال الكتروني على شبكة الفصيح.

ووفاق ما يُستنتج من تأمّل هذا التفكير أنّ كلّ نظر، أو تناول تفكيكي للملفوظ الكلام سيكون عبر الاستعمال، فترى سيبويه ينطلق من أمثلة مختلفة يعرض فيها الظاهرة النحوية بما يُظهر معرفته الواسعة بها ، حينما يوضحها بالمزيد ،الأمر الذي يستدعي عمق درايته بظواهر التخاطب، وما يقتضيه من استعمالات لغوية ،مما يُمكن أنْ يدرس في إطار اللسانيات الاجتماعية والتداولية، وتمظهر هذه السمات المائزة لدرسْه نُدركها عبر قوله : «**يقول الرجل: أتاني رجل. يريد واحداً في العدد لا اثنين، فيقال: ما أتاك رجلٌ أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول: أتاني رجلٌ لا امرأة. فيقال: ما أتاك رجلٌ أي امرأة أتتك .ويقول أتاني رجلٌ. أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجلٌ .أي أتاك الضعفاء**» (١). فلا تتضح هذه الأمثلة إلّا عبر سياقتها اللغوية ومقاماتها التخاطبية المحيطة بها، فالنصّ مرتبط عنده بمقاصد المتكلم وأحوال الخطاب، فقد يحسن في سياق ولا يحسن في آخر. ولذا هو يأتي بهذه الزيادات الاحترازية التي استعمل فيها (أي التفسيرية)، كما في (أي: أتاك أكثر من **ذلك**، وأي: امرأة أتتك، وأي: في قوته ونفاذه، وأي: أتاك الضعفاء).

ويحظى عنصر المخاطب بنصيب وافر من اهتمام أبي بشر، فإدراك المخاطب لمقاصد متكلّمه متأتٍ عبر ظرف الاستعمال، ولاستغراق المخاطب حيّزاً واسعاً من اهتمامه فقد ذكره في باب عالج فيه فصيلة نحوية متعلقة بالأمر والنهي ـ وهي الإغراء والتحذير ـ قائلاً:

«هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا

---

(١) الكتاب ١/ ٥٥.

علمت أنّ الرجل مستغنٍ عن لفظك بالفعل»[1].وهو وجود يلحّ عليه أبو بشر حتى لو لم يكن له وجود واقعي، بل مفترض، من حيث إنّ إعادة بناء المعنى تكون عند المتلقي، ومن هنا يصبح دور المتلقي قاعدة أساسية ، فيخلق لنا سيبويه متلقياً وإنْ كان مفهوماً مجرداً، إلّا أنّه يُضمِّنه معايشة واقعية عبر تلاؤم مقصديتي سيبويه ومتلقيه، حينما يتفاعل هذا المتلقي مع النص، فيكون مضمراً حجاجياً تتجلى لنا مكوناته عبر مفاهيم من قبيل الأفعال اللغوية، والروابط الحجاجية حيث يطرح المتلقي أسئلته ويتعاون الفكر السيبويهي مع فكر ذاك المتلقي في إيراد جواب محدّد مراعٍ فيه قواعد الحدّ من جهة والمقبولية والإقناع من جهة أخرى، فيكون الغرض الإنجازي لهذه المحاورة تعليمياً وحجاجياً في الآن نفسه.

إنّ بيان أثر المخاطب في صياغة بنية الكلام يمكن ملاحظته في نحو قوله: «وإنّما أضمروا ما يقع مظهراً استخفافاً؛ ولأنّ المخاطب يعلم ما يعني ،فجرى بمنزلة المثل، كما تقول: لا عليك وقد عرف المخاطب ما تعني أنّه لا بأس عليك، ولا ضرّ عليك»[2].

ومن هنا فإنّ الاستعمال اللغوي عند سيبويه علّة قوية يحتجّ بها معللاً الظواهر اللغوية ليس من جهة المتكلم فحسب، بل من جهة المخاطب أيضاً؛ لأنّ المخاطب لا يكتفي بالسماع فقط، بل يحاول توجيه نمط الكلام بحسب قدرته على إدراك المعنى حينما يؤوله في ذهنه، يقول أبو بشر: «**ومما يبطل القلب قوله: زيدٌ أخو عبد الله مجنون به إذا جعلت الأخ صفة والجنون من زيدٍ بأخيه؛ لأنّه لا**

---

(١) الكتاب ١/ ٢٥٣ و ٣/٧.

(٢) الكتاب ١/ ٢٢٤.

يستقيم زيدٌ مجنونٌ أخو عبد الله»[1]. فالكلام ههنا انطوى على شيء من الغموض، فإذا كان فهم الكلام الواقع «بحسب قصد المتكلم، وإرادته ودواعيه»[2] فإنّه يترتّب على هذه القصدية أنْ تعقد رابطاً مع المتلقي (إعادة انتاج الكلام)، لكي تتم عملية التواصل، ولما فقدت نسب نجاحها قال سيبويه أنّه لا يجيز القلب ههنا.

ولا تنطلق نظرية التواصل السيبويهية إلّا من كلام مفهوم مبني على توطيد الشبكة العلائقية بين العناصر السياقية، ومراعاة النظام العقلي المتحكم في ضمان الصحة الدلالية والقولية للسلوك اللغوي استعمالاً؛ تماسُكُ ذلك يُظهره قوله: «**واعلم أنّ (أنْ) لا تظهر بعد حتى وكي، كما لا يظهر بعد (أمّا) الفعل في قولك: أمّا أنت منطلقاً انطلقت. وقد ذكر حالها فيما مضى واكتفوا عن إظهار (أنْ) بعدهما بعلم المخاطب**»[3]. فإذا مال المتكلم إلى التخفيف، فإنّ استعمال ذلك لا يكون إلّا بعلم المخاطب .

وتغدو شرعية إنجاز هذا المبدأ عبر نص آخر يورده سيبويه ضمن محور تمثيله المقالي ببرنامجيه الكفائي والادائي يتحصّل ذلك في «باب يُحذف المستثنى فيه استخفافاً وذلك قولك: ليس غير، وليس إلّا. كأنّه قال: ليس إلّا ذاك، وليس غير ذاك. ولكنّهم حذفوه تخفيفاً واكتفاءً **بعلم المخاطب**»[4]. ولمّا كان المصطلح

---

(١) الكتاب ٢/ ٥٣.

(٢) التبصرة في أصول الفقه ص٢٣٢ ، وينظر أثر القراءة الافتراضية في التخريجات النحوية دراسة في التراث ص٤.

(٣) الكتاب٣/ ٧: ، وينظر ٢/٦و٢/٢٩٧.

(٤) الكتاب ٢/٣٤٤.

«ظاهرة تصورية إدراكية تنتقل عبر الوعي إلى ظاهرة قصدية ثم تنتقل عبر الدلالة إلى ظاهرة مفهومية فتُصاغ عبر اللغة ظاهرة معجمية مصطلحية»[١] فإنّنا ههنا نعتضد على نصوص سيبويه حينما اصطلح المحدثون على ما ورد فيها من ظاهرة التخفيف بالاقتصاد اللغوي، إذ ذكروا أنّ الاستعمال الكثير يجعل العبارة مفهومة فلا يجد المتكلم حرجاً في لفظها.

ولا نستغني عن نص سيبويهي آخر تحقق فيه هذا التعاقد اللغوي والذهني بين الطرفين بما يخوّله لهما من إمكانية التفاهم والتفاعل واستمرارية التواصل، فيكون هذا التعاقد بمثابة ذاكرة مشتركة بينهما نتيجة الاستعمال ما يسمح بديمومة مجريات الكلام، ويورد أبو بشر في نطاق ذلك قول العربي (لاهِ أبوك) فالأصل فيه (لله أبوك). ولكنّهم حذفوا الجار والألف واللام تخفيفاً على اللسان ونسب القول للخليل ثم بيّن أنّ حذف الجار ههنا ليس طريقة الكلام ولا سبيله قائلاً: «**وليس كل جار يضمر؛ لأنّ المجرور داخل في الجار فصار عندهم بمنزلة حرف واحد، فمن ثم قبح، ولكنّهم قد يضمرون الجار فيما كثُر من كلامهم؛ لأنّهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج**»[٢].

ويغدو هذا محوراً يستند إليه صاحبنا في نصوص أُخر، بما ينسجم مع مبدأ عدم التناهي على صعيد الأنظمة الداخلية والخارجية. إذ يذكر في باب الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي: «**وذلك قولك: إذا رأيت رجلاً متوجّهاً وجهة الحاج قاصداً في هيئة الحاج فقلت: مكةَ وربّ الكعبة حيث زكنت أنّه يريد مكة .كأنّك قلت: يريد مكة والله ... ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿بَلْ مِلَّةَ**

---

(١)المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم ص٢٠٤ـ٢٠٥ ، وينظر التعليل بكثرة الاستعمال ص٥.
(٢) الكتاب٢/١٦٣ .

﴿إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾. أي: **بل نتبع ملة ابراهيم حنيفاً**»[1]. ويتوسّع هذا الأفق في نظير كلامي آخر وهو «**قوله: انته يا فلان أمراً قاصداً، فإنّما قلت :انته وائت أمراً قاصداً. إلّا أنّ هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل فإنّما ذكرت لك ذا؛ لأمثّل لك الأول به ؛ لأنّه قد كثر في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل، فحُذف كحذفهم ما رأيت كاليوم رجلاً**»[2].

ويغوص في معالجة حقائق لغوية تقتضيها تنوعات جارية في واقع الحياة بسياقاتها الثقافية والاجتماعية التي تستجد أمورها فتستحدث أوضاعاً متغيرة، فالمتكلم العربي يكثر من استعمال النداء لذا تُحذف ياء الإضافة من المضاف إليه لكثرة الاستعمال «**فقالوا: يا ابن أمّ، ويا ابن عمّ. فجعلوا ذلك بمنزلة اسم واحد؛ لأنّ هذا أكثر في كلامهم ... وإنْ شئت قلت: حذفوا الياء لكثرة هذا في كلامهم**»[3].

وبقدر ما قدّم سيبويه من نصوص، فإنّه بثّ فيها مخزونه الذهني المعبر عن نموذجه الفكري للاستعمال بحسب المحيط الاجتماعي فكان الاستعمال عنده بناءً لقاعدة محتجاً لها به، ومتخذاً منه عماداً بالاستناد إلى توجيه الوعي القصدي المدرك، فلا يستقيم لدى المتكلم الإجراء التكويني للجملة إلّا بالدراية بطبيعة الاستعمال اللغوي في الوسط الذي يوجد فيه. فاللغة تحيا بالاستعمال لا بمجرد الوصف. يقول د. عبد السلام المسدي: «لا يمكن للباحث أنْ يغفل عن نباهة شيخ النحو العربي في هذا المقام، فقد حاول صاحب الكتاب تفسير المظاهر

---

(١) الكتاب ٢٥٧/١. والآية من سورة البقرة/١٣٥.

(٢) الكتاب ١ /٢٨٤.

(٣) الكتاب ٢ /٢١٤.

الطارئة على بنية التراكيب النحوية في اللغة»[1].

ويثير ما قدّمنا من نصوص سيبويهية القول بأنّ أبا بشر وصف العربية بالاستناد إلى (الاستعمال اللغوي) للعرب عن طريق مُساءلة سليقتهم اللغوية، ذلك الأمر الذي أصبح مدار البحوث التداولية في الاتجاه البراكماتيكي[2] المختص بمعالجة المحور التنفيذي في محيط المحاورات الواقعية بين المتحاورين في بقعة اللغة المشتركة بينهم.

(١) التفكير اللساني في الحضارة العربية ص٣٣٢.

(٢) ينظر علم اللغة الاجتماعي ص١٩ وص٢٣وص٢٢٩.

المبحث الأول: تجليات الاستعمال في الاستقامة والإحالة[1]

في مبتدأ الأمر نلفت الانتباه إلى أنّ سيبويه استقرأ فئة من حالات مرسومة للكلام المباشر الدالّ على الوضع الأصلي الموصل للنمط الدلالي الأولي في ذهن المتكلم فعالجها معالجة متأنية بإعادة رسم تشكيلاتها المقامية بحثاً عن ضروب العدول التي تكتنف هذه التشكيلات الأساسية على صعيدي التركيب والدلالة، فإذا ما كانت «مهمة الوصف اللغوي هي تفسير لغة المتكلم ـ المستمع الفعلية وسليقته أو قدرته اللغوية ومعرفته بهذه اللغة»[2]. فإنّنا نرى أبا بشر يمدّ بصره ويتجاوز النظر في معالجته للتراكيب الاسنادية إلى الدلالة بحثاً عن تكافؤ بينهما يُفضي إلى توافق البناء في العربية مع صورته المستعملة، فاللغة عنده «مسلك اجتماعي يجري في نماذج معينة من الأداء وإنّ المجتمع هو الذي يحدّد هذه النماذج بطريق العرف»[3].

فقد اهتدى ـ بانتباه ـ إلى أنّ اللغة يبرز وجودها عن طريق الاستعمال ،أي التداول الفعلي لها حينما أضاف شروط المقبولية التداولية وذلك بتمييزه الخطاب الصحيح من المستقيم أو المحال الكذب، فحكم على نحو: (شربتُ ماء البحر). (حملتُ الجبل). في السيرورة الأدائية والاستعمالية بالكذب مع صحة أدلتها

---

(١) تعني الاستقامة على وفق النظر السيبويهي عدم الخروج عن القواعد والقوانين الخاصة بتركيب الجملة وقَبِله أبناء اللغة، فالكلام المستقيم ما وضعت ألفاظه في مواضعها، أمّا الإحالة فقد عرّفها سيبويه بقوله: (أنْ تنقض أول كلامك بآخره). الكتاب١/ ٢٥.

(٢) الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه ص٣٢٥، وينظر النحو العربي والبنيوية واختلافها النظري والمنهجي ص٢٨ وقواعد تحويلية للغة العربية ص٢٢.

(٣) اللغة بين المعيارية والوصفية ص١٦.

النظمية وتحقق الاتساق التركيبي فيها لعجزه عن الاستجابة الواقعية والمقبولية المطلوبة في الاستعمال والعرف الخطابي فضلاً عن افتقاره إلى الإحالة المقامية ذلك أنّ «الإحالة علاقة دلالية ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية الّا أنّها تخضع لقيد دلالي هو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه»(١).

فقد آمن سيبويه أنّ الكلام هو النشاط البيّن للغة جاعلاً منه قريناً للنظام عن طريق تلمس العلاقات الداخلية التي تربط اعضاء الجملة الواحدة وتحليله عناصر الجملة الواحدة من جانبيها الشكلي والوظيفي متجاوزاً برؤيته هذه التفسير إلى التأويل عبر بيان كيفية تفاعل اللغة مع محيطها الاجتماعي الأوسع في ربطها بمواقف الكلام (السياق). «وهو بهذا يتفق مع المنهج العلمي الصائب الذي أثبت أنّ تطور العلوم لا يقوم على وصف ما يحدث بل على وصفه وتفسيره»(٢). فالتركيب عند أبي بشر صورة متكاملة من الشكل والمعنى. حينما ضبط أصنافه الخبرية مبيّناً المقبول منها عن طريق الاستعمال وهي فكرة ميّز بها التراكيب الصحيحة (الأصولية) من غير الصحيحة (غير الأصولية).

وعلى وفق تحقق شروط الصحة النحوية والدلالية فيها وغير المقبولة لفقدها تلك الشروط، فالكلام عنده «مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب. فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمسِ، وسآتيك غداً .وأمّا المحال فأنْ تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً، وسآتيك أمسِ. وأمّا المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبل وشربت ماء البحر ونحوه،

---

(١) لسانيات النص ص١٧وينظر البحث الدلالي ص١٩٢- ١٩٣.

(٢) الاستقراء والمنهج العلمي ص١٤٩ ، وينظر المنهج الوصفي ص٤٣وص٧٩.

وأمّا المستقيم القبيح فأنْ تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكي زيدٌ يأتيك. وأشباه هذا»[1].

فجملة (حملتُ الجبلَ) و(شربتُ ماءَ البحرِ) مرفوضة عند سيبويه لمخالفة المعنى للواقع الاستعمالي، فالجبل لا يصلح دلالياً أنْ يكون مفعولاً لـ (حمل) وكذلك (ماء البحر)؛ لأنّ واقع الاستعمال المحسوس لم يقدّم لنا هذه الصورة واقعاً فلا الجبل محمول ولا ماء البحر مشروب و«بمجرد تغيير المفعوليين إلى ما يناسب السمات الدلالية، فإنّ الجملة ستكون مقبولة نحو: (حملت الكتاب) و(شربت الماء). فلا يدخل ههنا لحن من جهة دلالة ملفوظه في علاقته بالواقع»[2]. فالكلام سليم في القياس الّا أنّه في الاستعمال ليس بمنزلة السليم من جهة معناه.

ونتوصل من نص سيبويه تركيزه على جانبين اثنين:

الأول: الجانب البنيوي بحسب ما تقتضيه القاعدة النحوية وتقبله.

والآخر: الجانب الخطابي، الإعلامي، الإخباري عبر السياقات اللغوية والمقامات التخاطبية التي ترد فيها، وهي قفزة فكرية تشير إلى تعامل سيبويه مع اللغة الخطابية الواقعية المستعملة، لا المفترضة، فكان نظرُه إلى اللغة عميقاً عن طريق التفاعل بين مستوى البنية وما يقتضيه من استعمال بالقبول إنجازاً أو غير القبول.«ويعدّ ذلك مهماً لسببين: أولهما: أنّ الكلام يعامل على أنّه شكلٌ من السلوك العرفي ـ الاجتماعي ، وثانيهما: وهو نتيجة منطقية لذلك .إنّ المخاطب له

---

(١) الكتاب١/٢٥- ٢٦.

(٢) الوظيفية في كتاب سيبويه ص٧٦ وينظر المدرسة الخليلية والدراسات اللسانية في العالم العربي ص٣٧٩. وآليات تحليل الخطاب ص٢٣- ٢٤.

دوره الخاص في تحديد الشكل اللغوي الذي يستعمله المتكلّم»[1].

إنّ نزوع سيبويه إلى اختيار أمثلته جملاً فعلية على وجه التحديد، هو ارتكاز منه على أنّ الفعل بناء مشتمل على الحدث إتخذه هيكلاً يبني عليه تحليله النحوي ـ الدلالي، ويتراءى مما تقدّم أنّ المظهر الواضح من الكتاب التوجه إلى التعليل للظواهر النحوية في محاولة فهم كلام العرب ، ولمّا كانت وظيفة المفسِّر السعي إلى فهم كلام الله، فقد ماثلت وظيفة سيبويه وظيفة المفسِّر ـ فاتحد المورد والهدف الأساسي ـ في إطار تبنّيه لمنهج تعليلي وتفسيري يكشف من خلاله عن المعنى النحوي للكلمة لا معناها المعجمي، بإدراك منه لطريقة العرب في كلامهم ، وبتأكيد كون اللغة التي تعامل معها لغة خطاب، وهي مسألة لم تظهر عند غيره من النحاة الخالفين. وإثبات ذلك بعيداً عن الفرض يثبته لنا نصه وهو يسأل أستاذه فيه عن قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾[2]. إذ ورد جواب الشرط بالفعل الماضي وهو في الأصل مستقبل فأجابه: «**هو في معنى ليفعلُنّ. كأنّه قال: ليظلُنّ. كما تقول: والله لا فعلتُ ذاك أبداً. تريد معنى لا أفعل**»[3].

إنّ تأويل ذلك التمثيل استدعى إدراك سد جواب القسم مسد جواب الشرط .وقد ارتكن السمين الحلبي في درّه المصون إلى نص سيبويه السابق في تفسيره الجواب الخاضع لهذا المعنى والمؤكَّد عليه قائلاً: «لظلّوا جواب القسم وهو ماضٍ

(١) نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد ص٣٠.

(٢)الروم/٥١.

(٣)الكتاب ١٠٨/٣.

لفظاً مستقبل معنى»[1]. وهو موضع من مواضع كثيرة يوميء فيها سيبويه إلى أثر الاستعمال في تأليف الكلام. فالتشكيل المورفولوجي لهيكل الفعل(لظلوا) ينبعث منه معجمياً معنى الماضي، إلّا أنّه انفتح معنوياً ليُنتج دلالة استقبال، وهو عمق نظر في تحليل الكلام حينما مازه سيبويه بالاستعمال، اعتماداً على حدثية الفعل لا زمنه. وموازنة هذه الطاقة (الحدثية) في الفعل ـ تعبيراً ـ في أنّها تجري على كلام العرب، و في القرآن الكريم، التماس ذلك يؤكّده قوله: «فإنّما أجري هذا على كلام العباد وبه أنزل القرآن»[2]. ما يجعلنا نستدلّ على أنّ سيبويه في وضعه البناء النظري للغة العربية لم يكن معزولاً عن إنجازات الفقهاء والمفسّرين.

ويعرج صاحبنا على نموذج آخر يعمل فيه سيبويه على شدّ فكر المخاطب وجلب انتباهه وحمله على التفكير في الحيثيات الماورائية الهادفة إلى تأطير الارتكاز المضموني في بؤرة دلالية معينة وذلك في قوله: «**أُدخل فوه الحجر** »[3]. إذ يرتكن ههنا إلى الاستعمال الذي يستدلّ على الدلالة المقصودة والمدركة عند المخاطب بفعل امتلاك القدرة التخاطبية، وهو معيار أثبت البحث الدلالي المعاصر أهميته في توجيه المؤشر الدلالي واستكشافه[4]. فهذه الهيئات التعبيرية لا تنجز «إلّا في إطار الحدود التي تحددها المعايير الاجتماعية»[5]. وتلك معالجة موازِنة للعناصر

---

(١) الدر المصون٩/٥٤.

(٢) الكتاب١/٣٣٢.

(٣) الكتاب١/١٨١.

(٤) ينظر الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ص١٢٦. وبنيوية ص٢٧٨.

(٥) نشأة الدراسة الدلالية العربية وتطورها ص٧.

بين وظيفتها الاتساقية والدلالية تُؤلِّف للأفراد إحالة من دون الحاجة إلى توضيح المسوغات، فالحقائق اللغوية والمظاهر البلاغية مضمونة صحةً.

المبحث الثاني: عائدية الحركة إلى الاستعمال.

قد ترجع الفطنة القرائية عند سيبويه إلى قيم نفسية وانفعالية عميقة حينما رأيناه يُركز على سلوك لغوي لا يستغربه جمهور الجماعة اللغوية العربية المتكلمة لنمط تُقلب فيه الحركة أثر تجاور صوتي ،يبثّ متعة إيقاعية من جهة، ويعلن عن تفكير علمي من جهة أخرى في قولهم: (هذا جحر ضبّ خرب). فالوجه عنده «**الرفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس ؛ لأنّ الخرب نعت الجحر والجحر رفع، ولكنّ بعض العرب يجره ، وليس بنعت للضب ، ولكنّه نعت للذي أضيف إلى الضب فجرّوه ؛ لأنّه نكرة كالضب ، ولأنّه في موضع يقع فيه نعت الضب، ولأنّه صار هو والضب بمنزلة اسم واحد. ألا ترى أنّك تقول: هذا حب رمان فإذا كان لك قلت: هذا حب رماني فأضفت الرمان إليك، وليس لك الرمان إنّما لك الحب**»[١].

فثمة خصوصية متأتية للغة العربية ههنا لمّح إليها أبو بشر حينما جمع بين التفكيرين الجمالي والعلمي ،الجمالي بما استلطفه نطقاً، محدّداً قيمته بقوله: «**وقد اتبعوا الجر الجر كما اتبعوا الكسر الكسر**»[٢]. والعلمي بتبيانه أصول المعنى النحوي الدلالي المرتكز عليها نمط (هذا جحر ضب خرب) مفسّراً إيّاه أنّ (الخرب) نكرة في موضع يقع فيه النعت فكان والضب اسماً واحداً سوّغ للحركة الإعرابية أنْ تُقلب كسرة والوجه فيه الرفع.

وهذه التجليات السيبويهية النظرية والتطبيقية جعلها متصلة بالتفاعلات النفسية التي احتاجها المتكلم، فامتلك شجاعة كافية في عربيته، لريادة معالم

(١) الكتاب ١/ ٤٣٦.

(٢) الكتاب ١/ ٤٣٦.

التفكير التجريبي حينما ارتدت العلامة الإعرابية عن الحد، إلّا أنّه ارتدادٌ متزنٌ نهض على طبيعة لغوية استقت مقاديرها البنائية من حقيقة المرجعية اللغوية الاجتماعية المشتركة فصار هذا النمط في الكلام بقلب حركته موازياً لنمط الكلام قبل قلب الحركة بوصفه كلاماً مفهوماً مدرك المعنى من قبل المتلقي بوضوح القصد فيه بتناصف وتكامل، فقد اتخذ سيبويه من معيارية منطق العقل حداً ينطلق منه إلى الكشف عن التفكير اللغوي مع إمساس بالتجربة الإنسانية استعمالاً، باختيار تواتر نظمي أشار إليه بقوله: (حبّ رمان). فجذّر نمط الكلام عبرها موصلاً بين البنية والمعنى استجابة لمطالب لسانية ـ سماعية تولدت عن حقيقة جوهر الوظيفة التعبيرية للغة العربية فلا يغدو التمييز ما بين الرفع والجر وارداً، بل أضحى طرف الرفع محيلاً على الآخر باستمداد طاقة لغوية منه إلى الجر، ولاسيما أنّ هذه الطاقة اللغوية قد صادفت نظراً ثاقباً متفهماً تجاوز بتفسيره لهذا النمط كثيراً من التساؤلات التي قد تطرح لتصوّر أنّ هذا النمط عبث تداولي ـ استعمالي .

ووفاق ما يُستنتج من تأمل هذا التفكير التحليلي لسيبويه أنّ الفائدة انبنت في هذا النمط على تهيئة نفسية امتدت آثارها التشكيلية إلى ضرورة استدعاء الجر بدل الرفع، في إطار قبول بعيد عن الاعتباطية للعناصر اللغوية وانتقاؤها الكسرة في تلاؤم لفظي بدل الضمة «ويبدو للمتفكر أنّ العلامات اللغوية التي نتلفظ بها مراراً وتكراراً، هي من أوثق الإجراءات التي تحضر من أجل اضفاء مقاييس الاستخفاف اللساني على الملفوظ اللغوي»[1]. فبعض جوانب اللغة لا يمكن وصفه إلّا بالرجوع إلى الكلام على أنّه سلوك اجتماعي في المقام الأول ،وقدرة

(١) نظرية الاستثقال والاستخفاف ص١٤٤.

المتكلم على التحكم في كلامه وفقاً للمتغيرات الاجتماعية الملابسة له فهي جزء من كفايته اللغوية، لا تقل قيمة عن قدرته على بناء التراكيب ونظم الألفاظ، فمقدار كبير من سلوكنا اللغوي يرتبط في الواقع بشكل وثيق بأنواع أخرى من السلوك الاجتماعي[١].

والأمر الجدير بالتنويه ههنا أنّ فهم المتلقي لهذا النمط يكون بغير التباس من حيث إنّ السياق الاجتماعي والمرجعية اللغوية المشتركة في أذهان المتخاطبين تُعين على تحديد المقصود ودرء الالتباس. الأمر الذي يُفضي إلى القول إن قرينة التبعية المعنوية أغنت «عن قرينة المطابقة في العلامة الاعرابية وهي لفظية وكان الداعي إلى ذلك داعياً موسيقياً جمالياً هو المناسبة بين المتجاورين في الحركة الإعرابية»[٢]

لعلّ النتيجة التي نكتسبها اتخاذ أبي بشر من الاستعمال مستوى صوابياً إذا ما أُنطلق فيه من نظرة اجتماعية للغة.

وقيمة هذا المعيار التأسيسي استوعبتها نصوصه في قوله: «**فقف على هذه الاشياء حيث وقفوا ثم فسّر**[٣]. وقوله «**فأجرِ الأشياء كما أجروها**»[٤]. وقوله: «**فليس لك في هذه الأشياء إلّا أنْ تجريها على ما أجروها**»[٥]. فهي دعوة منه في التقييد بكلام العرب في منوال كلامهم المستعمل.

ويمكننا بهذا أنْ نستحضر إلحاح أبي بشر على الوقوف على مستوى البنية

---

(١) ينظر أثر الأعراف الاجتماعية في مسيرة العربية ص١٥.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ص٢٣٤.

(٣) الكتاب ١/٢٦٦.

(٤) الكتاب ١/٤١٩، و٢/٣٩٠.

(٥) الكتاب ١/٢١٨.

الإبلاغية بتوافر عناصر الفائدة من الكلام التي توفرها مقاييس في نفوس المتخاطبين لها نظير في أعرافهم ومثاقفاتهم تبيح لهم الخروج عن القواعد الصورية.

إنّنا لا نرتجل القول ههنا بنجاح سيبويه في الإقناع عبر ما تطلّبته رؤيته هذه بقدر ما كشفت قابلية الإقناع ـ عنده ـ عن حمل «النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده»[1]. ولأهمية هذه الآصرة التماسكية اقتنع شيخ البلاغيين الجرجاني بها مؤيّداً إيّاها بقوله: «ليس الغرض بنظم الكلم أنْ توالت ألفاظها في النطق بل تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»[2].

مما يبدو أنّ سيبويه كان رائداً في توجيه النحاة نحو الاهتمام بفكرة الإتباع الحركي»[3]. وما يجيزه الاستعمال فيه.

ونعرض في هذا المجال أيضاً قوله عن العطف على المحلّ بـ (الواو)، فقد أعدّ باباً لـ«ما يجري على الموضع لا على الاسم الذي قبله وذلك قولك: ليس زيدٌ بجبانٍ ولا بخيلاً. وما زيدٌ بأخيك ولا صاحبَك والوجه فيه الجرّ؛ لأنّك تريد أنْ تُشرك بين الخبرين وليس ينقض اجراؤه عليك المعنى، وأنْ يكون آخره على أوله أولى ليكون حالهما في الباء كحالهما في غير الباء مع قربه منه»[4]. فثمة فرق في المعنى بين العطف على اللفظ والعطف على المحل إذ الجرّ في المعطوف يعني

---

(١) منهاج البلغاء ص٢٠.

(٢) دلائل الإعجاز ص٤١.

(٣) ينظر بلاغة العطف في القرآن الكريم ص٥٨ ، ومعاني النحو١ /٢٨٣.

(٤) الكتاب١ /٦٧.

التوكيد بحكم إرادة الباء أمّا النصب ففيه إشارة إلى بُعد التوكيد عن المعطوف؛ لأنّه ليس على إرادة الباء. وهوما استدللنا عليه من قول سيبويه «وإذا قلت: ما أنت بزيد ولا قريباً منه فإنّه ليس ههنا معنى بالباء لم يكن قبل أنْ تجيء بها»(١). أي أنّ وجود الباء يعني تكثيفاً دلالياً تتسم قيمته بالتوكيد في نص سيبويه الأول. أمّا وجودها في نصه الثاني فليس على إرادة التوكيد. لعدم تضمنه طاقة تأثيرية.

وعلى هذا النحو المعجب مضى يرسم للاتباع الحركي منهجه في ظلّ الاستعمال، فهو لم يكتفِ بالإشارة إلى أنّ التابع مجرور، أو منصوب، أو مرفوع بل يبيّن مواضعه عن طريق هذه القيم «وهكذا تأخذ الحركة عنده معناها النحوي ومعناها الاجتماعي، بل أنّه لا يتم للحركة معناها النحوي عنده ولا يستقيم ذلك إلّا إذا وقعت في أبعادها الاجتماعية الصحيحة»(٢). يتكفّل بيان ذلك قوله: «**فاستحسنْ من هذا ما استحسن العرب وأجزْه كما أجازته**»(٣).

ويُستشفّ مما سبق أنّ سيبويه لم يتعدّ في معالجته اللغة العربية نطاق البيئة الواقعية و التداولية لها، بتناول نماذج وعيّنات تركيبية جارية على ألسنتهم وهو ما يلتقي مع اللغويات الحديثة في معالجة الخطاب اللساني المنطوق.

---

(١) الكتاب١/ ٦٩.

(٢) الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه ص٣٣٠.

(٣) الكتاب٢/ ٦٩.

المبحث الثالث: غلبة الاستعمال الدواعي الصناعية[1]

تؤدّي اللغة وظيفتها بترتيب المفردات وتركيبها، لتبلغ غايتها في الإفادة، وهي الإفهام؛ لأنّ «العبارة تقوم منطقياً على ترتيب الكلمات، وأنّ هذا الترتيب يعبر بآن واحد عن حاصل الفكرة وتحليل القول مهما كانت اللغة التي يتم فيها هذا الغرض»[2].

واستقرأ حقيقة مفادها إدراك سيبويه أن نظم الكلمات في التركيب هو قوام النحو فقد عوّل عليه في تحديد المستوى الدلالي للتركيب النحوي، ولاسيما في تناوله ظاهرة التقديم والتأخير، فهذا التغيير البنيوي يحقق أغراضاً كثيرة أهمها العناية والاهتمام ، إذ يقول: **«كأنّهم يقدمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإنْ كان جميعاً يهمانهم ويعنيانهم»**[3].

وقد احتجّ صاحبنا باستعمال بعض الجوازات التركيبية في ممارسات العرب الكلامية كنمط يحاولون به وجهاً»[4] من وجوه العربية ، تطبيق ذلك جاء في قول مرار الفقعسي:

«صددتِ فأطولت الصدود وقلّما وصالٌ على طول الصدود يدومُ

وإنّما الكلام وقلّ ما يدوم وصالٌ»[5].

---

(١) نعني بالدواعي الصناعية تلك الضوابط التي تحكم التركيب فتوجهه توجيهاً يوضّح المعنى المراد ويخضع هذا المعنى إلى التكيف معها.

(٢) تاريخ علم اللغة ص١٤٧.

(٣) الكتاب١ /٣٤.

(٤) يقول أبو بشر: (وليس شيء يضطرون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجهاً وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا). الكتاب١ /٣٢.

(٥) الكتاب١ /٣١.

يتجلى تحليل البنية الفعلية لـ (قلّ) أنّه إذا دخلت عليه (ما) كفته عن عمل الرفع وبامتلاكها هذه الصورة الاستعمالية أسعفت أنْ يكون (وصالٌ)[1] فاعلاً للفعل المؤخر (يدوم). وهذا التحليل للهيئة السطحية يدعم حالات وأوضاعاً مقامية تستجيب لحاجات المواقف الحياتية التي تلتقي معها في الغاية الفكرية والمقصدية الادائية.

فالمتكلم يختار ما يرغب في إيصاله بناءً على عوامل متعددة في المقام الاتصالي، وحالما يحدد المعنى يتعّين عليه استعمال عيّنات اللغة التركيبية ونماذجها التي يبتغي عن طريقها إيصال المعنى، وقد يُفضِّلُ شكلاً على آخر من أجل تقديم معنى انفعالي معين، أو لأنّه يود أن يجعل جزءًا ما أكثر بروزاً من جزء آخر، والبروز سمة خطابية جعلها سيبويه ههنا بتقديم الفاعل على فعله «وتقديم الفاعل كثيراً ما يكون معناه اختصاص الفاعل بالفعل أو اثباته له ونفيه عما عداه»[2].

ومن ثم فقد اقتضى فعل الإدراك على هذا التقديم معنى الفاعلية بلحاظ قوله: «**وإنّما الكلام وقلّ ما يدوم وصالٌ**» وهو معنى يستحيل ملاحظته عند جعل المتقدم متعلقاً بالابتداء، وتقدير فاعل بعد الفعل المسند أصلاً إلى الاسم المتقدم، فتحوّلُ الفاعل إلى مبتدأ يفقده معنى اختصاص الفاعل بالفعل، أو إثباته له. فيرسم أبو بشر لأبناء اللغة أنْ يساوقوا بين المتغيرات الخارجية والوجوه الجائزة المناسبة عند استعمال اللغة وقد أثبت البحث اللساني الحديث صحة استنتاج سيبويه بشأن تحصيل دلالة العناية والاهتمام جراء حدوث التقديم لمواضع

---

(١) تجب ملاحظة أنّ تقديم الفاعل على الفعل ههنا وضعية شارطة ببقائه فاعلاً لا صيرورته مبتدأ ؛ لأنّ سلوكه مسلك المبتدأ سيفقده المعنى المراد منه.

(٢) جوانب من نظرية النحو ص١٨٥.

العناصر المتأخرة، فالتقديم عملية لسانية تنطوي على تحويل مكوّن في الجملة إلى موضوع بارز تُعلّق عليه بقية الجملة[1].

ولا ريب أنّ هذا المقصود التفصيلي من نص سيبويه السابق يسحبنا إلى الإقرار بحجيّة الاستعمال في درْسه النحوي، حينما اتبع طريقة أسس فيها لحكم مرتكز على الشكل والمعنى، فإذا وُجِد تغيير في التركيب نتيجة تغيير في المعنى من دون إخلال بالفائدة التي يؤدّيها المقول كان التغيير مثمراً، فالشعر نمط من أنماط الكلام يضفي باستعماله شرعية على بعض التراكيب المتحررة في رتبها المقيدة أصلاً[2] فمخالفة القواعد النحوية في تعاملات العرب ومحاوراتهم الاتصالية جعلته يوازن بين الهيئة النواة والهيئة المستحدثة مرتكناً إلى الاستعمال الذي يولّدها معطياً نسبة من القوة لهذه الطاقة التصريحية، والإمكانية الاستيعابية والمعرفية عند المخاطب للمضمون الدلالي حتى أصبح الاستعمال معياراً جوهرياً، إذ يقول: «**فهذا أقوى من أنْ أُحدِث شيئاً لم تتكلم به العرب**»[3].

وليست هذه القيم اصطناعاً سيبويهياً بقدر ما هي دليل استعمالي في مجتمعه. ويُثني ابن جني ثناء مدح على سيبويه، حينما طرد قاعدة التقديم بأنّها للعناية والاهتمام قائلاً: «ولمّا كان النحويون بالعرب لاحقين وعلى سمتهم آخذين وبألفاظهم متحلّين ولمعانيهم وقصودهم آمّين جاز لصاحب هذا العلم الذي جمع شعاعه وشرّع أوضاعه ورسم أشكاله... أنْ يرى فيه نحواً مما رأوا ويحذو على

---

(١) ينظر الملفوظية ص١٠، وأسباب التعدد في التحليل النحوي ص٧، واللسانيات واللغة العربية ص١٢٨.

(٢) لأنّ الفاعل بعد الفعل في الأصل.

(٣) الكتاب ٣/٣٧٩.

أمثلتهم التي حذوا وأنْ يعتقد في هذا الموضع نحواً مما اعتقدوا في أمثاله، لا سيما والقياس إليه مُصغٍ، وله قابل، وعنه غير متثاقل، فاعرف إذا مانحن عليه للعرب مذهباً ولمن شرح لغاتها مُضطرباً، وأنّ سيبويه لاحقٌ بهم، وغير بعيد فيه عنهم، ولذلك عندنا لم يتعقب هذا الموضع أحدٌ من أصحابه ولا غيرهم ولا أضافوه إلى مانَعَوه عليه ، وإنْ كان بحمد الله ساقطاً عنه وحريٌ بالاعتذار هم منه»[1].

ومما يبدو من معالجات سيبويه أنّ له نظرة استقرائية عميقة لظواهر التخاطب والمشافهة الجارية بين الناس والتي تبرز في استعمالاتهم المختلفة للغة بحسب ما تقتضيه الأحوال فربما تقتضي المعايير المقررة في النظام شيئاً، إلّا أنّ الاستعمال يفرض شيئاً آخر من جهة التوسع في التعبير والخروج عن الاستعمال الاعتيادي للغة ما دام مؤدّى ذلك إلى غير لبس في المعنى، ويصل به إلى الغاية التي يهدف إليها. فالترتيب يقوم وظيفياً بتحليل الجملة على مبدأ البروز الدلالي .

ونكرر متكئين على أساس رياضي في تعداد النماذج اللغوية المعالَجة في كتاب سيويه بوصفها واقعاً استعمالياً فسَحَ نطاقه بإيراد تطبيقات لعيّنات كلامية متداولة تتجاذبها معايير النظام في بنيته الخطابية من جهة ومعايير المنزلة الاجتماعية من جهة أخرى. ويحصل الانسجام بالاستعمال، فتكون طبيعة بناء التركيب العربي عبر صدوره عن كلام العرب، وهو ما انعكس صداه في الاسم الموصول في خصيصة دخول الفاء على الخطاب الإخباري الاسمي، فتتمركز دلالة الجزاء على بنيته السطحية، فيسلك مسلكه لعلاقة مقاربة، مما يكسبه قيمة دلالية أخصب من إمكانيته الأصلية الأولية فقد أورد «**الذي يأتيني فله**

(١) الخصائص ١/٣٠٨ـ ٣٠٩.

درهمان»[1]. مشيراً إلى أنّ المخاطب «جعل الآخر جواباً للأوّل، وجعل الأوّل به يجب له الدرهمان ، فدخلت (الفاء) ههنا ،كما دخلت في الجزاء إذا قال (**إنْ يأتِني فله درهمان**) »[2]. ويورد أبو بشر هذا النمط مجرّداً من دلالة الجزاء، في الاستعمال اللغوي فيُقال (**الذي يأتيني له درهمان**)»[3]. ويُعيّن الخيوط الدلالية لهذه الازدواجية الإخبارية الجزائية في التركيب النظمي للاسم الموصول قائلاً: «**إنّه إنّما أدخل (الفاء) لتكون العطية مع وقوع الإتيان، فإذا قال: (له درهمان) فقد يكون أنْ لا يوجب له ذلك الإتيان، فإذا أدخل (الفاء) فإنّما يجعل الإتيان سبب ذلك، فهذا جزاءٌ، وإنْ لم يُجزم ؛ لأنّه صلة**»[4]. فالجملة بغير الفاء احتمالية؛ لأنّ العطية غير مترتبة على الإتيان، بل هو مستحقه قبل ذلك. وتحتمل كذلك أنْ يكون الاسم الموصول ههنا مشبهاً بالشرط، فالعطاء مترتب على الإتيان، فكلّ مَنْ يأتي يستحق العطية. أمّا الجملة مع (الفاء) فدلالتها قطعية من حيث إنّ المعنى فيها شرط وجزاء وهذه الفاء واقعة في جواب (الذي) وهي بمنزلة وقوعها في جواب الشرط أي العطية مترتبة على الإتيان»[5].

والدليل على أنّ (الذي) في معاييره النحوية يحيل على الجزاء في معاييره الاستعمالية أنّ سيبويه عقد له باباً سمّاه (**باب ما تكون فيه الاسماء التي يُجازى بها**

---

(١) الكتاب ٣/ ١٠٢.

(٢) الكتاب ٣/ ١٠٢.

(٣) الكتاب ٣/ ١٠٢.

(٤) الكتاب ٣/ ١٠٢.

(٥) ينظر معاني النحو ١٧/١ ، والمنهج الوصفي ص٢٨٩. والبحث الدلالي في كتاب سيبويه ص٢٣٩.

بمنزلة الذي)[1]. أي أنّ هذه الأسماء الموصولة يُجازى بها بإمكانية استعمالية على وفق جدولة سيبويه لها.

إنّ تعمّق سيبويه في معالجة هذا التحوير تجعلنا أمام حقيقة أنّه لم يفته ربط وقوع ذلك بدائرة المعنى. فلا يخرج منها سواء أكان مندرجاً في إطار الوصف، أم التفسير، وإلّا فهو خارج إطار اللغة. وهو ما أدركه سيبويه عملياً حينما جعل الاستعمال حجة ومقياساً لتسويغ تحليلاته النحوية، بل وتصويبها والدفاع عنها، فكانت العربية عنده حقلاً خصباً لاكتشاف الوظائف التعبيرية عن طريقه بما يعلن عن لسانيات حوار مثلت نظرية غير ذهنية للمقصدية الخطابية.

---

(١) الكتاب ٣/ ٧٢.

نتائج استعمالات سيبويه:

لعلّ كلّ مستطاب يعسر الانقطاع عنه وهذا هو شأن الكتاب، ننقطع عنه إلى نتائج هي:

١ـ خضوع اللغة لأثر الاستعمال والاعتماد عليه هو أقرب إلى روح اللغة، وأبعد ما يكون عن فلسفة الظاهرة؛ لأنّ الاستعمال لا يخضع للمنطق وهو ما اتضحت صورته في كتاب سيبويه.

٢ـ إنّ اعتماد الاستعمال في تحليل الظواهر وتفسيرها وتعليلها منهج عماده الحس اللغوي وقد ارتكن سيبويه إلى ذلك بالاستقراء والتتبع.

٣ـ قادتنا الإحاطة بمستلزمات الاستعمال (المتكلم ـ المخاطب ـ المقام) في كتاب سيبويه إلى أنْ نقول إنّ كثيراً من الأفكار التي توارثتها أجيال الحداثة إذا فُهمت حقيقة أفكارها فإنّما هي سياق تطويري لما ورد في الكتاب بما فتحه لها من منافذ للاجتهاد والاستزادة في السيرورة الطبيعية التي يتطلبها نمو الفائدة.

٤ـ وازن سيبويه عبر الاستعمال بين أنماط مختلفة تشكيلاً متناسقة تعبيراً، فكانت الأنماط متشاكلة تشاكلاً مكافئاً للنظام النفسي الذي يُؤطر لحظة التكلم حينما يُقدّر هذا النظام قراءة الأبعاد التواصلية اللازم اعتمادها .

٥ـ وظف سيبويه طاقته التأملية للألمام بمكونات الأنماط المنقلبة وظيفياً بحكم الاستعمال، بأنّ ثمة فرقاً من جهة التكثيف الدلالي فيها، تبعا لما يسبغه المتكلم على كلامه من قيم التفهّم؛ لأنّ تأليف الكلام على لسانه مرتبط بتأليف الإفهام عند المخاطب، ومن هنا تجد أنّ افتقار المتكلم لتحفيز المخاطب يصفه سيبويه بـ (القبيح) أحياناً أو(لم يجز) إذا كان النمط فاقداً لإنتاج صورة توضّح المقصود.

مظان قام عليها البحث:

ـ القرآن الكريم.

ـ آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه ـ د.بشير أبرير ـ مجلة كلية الآداب واللغات ـ العدد(١٠) ـ جامعة محمد خيضر بسكرة ـ ٢٠١٢م.

ـ أسباب التعدد في التحليل النحوي (بحث) ـ د.محمود حسن الجاسم ـ مجمع اللغة العربية ـ جامعة حلب .

ـ أثر الأعراف الاجتماعية في مسيرة العربية ـ د.محمد رباع ـ مجلة البلقاء للبحوث والدراسات ـ المجلد(١١) ـ العدد(١) ـ٢٠٠٥م.

ـ أثر القراءة الافتراضية في التخريجات النحوية ـ دراسة في التراث ـ عرابي أحمد ـ مجلة جذور ـ المجلد(١٢) ـ العدد (٣).

ـ الاستعمال اللغوي وعلم المخاطب في كتاب سيبويه ـمقال الكتروني على موقع شبكة الفصيح.

ـ الاستقراء والمنهج العلمي ـ د.محمود محمد فهمي زيدان ـ دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ـ ١٩٨٨م.

ـ البحث الدلالي في كتاب سيبويه ـ دلخوش جار الله حسين ـ دار دجلة ـعمان ـ الاردن ـ٢٠٠٧م.

ـ البحث النحوي عند الأصوليين ـ د.مصطفى جمال الدين ـ منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ دار الرشيد للنشر ـ ١٩٨٠م.

ـ بلاغة العطف في القرآن الكريم ـ د.عفّت الشرقاوي ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ـ١٩٨١م.

ـ بنيوية ـ د. عبد الله الغذامي ـ مجلة عالم الفكر ـ المجلد(٢٧) ـ العدد(٤) ـ

الكويت ـ ١٩٩٩م.
ـ تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ـ جورج مونان ـ ترجمة د. بدر الدين القاسم ـ مطبعة جامعة دمشق ـ١٣٩٢هـ ـ١٩٧٢م.
ـ التبصرة في أصول الفقه ـ الشيرازي ـ شرح وتحقيق حسن هيتو ـ دار الفكر ـ دمشق ـ بيروت ـ١٩٨٠م.
ـ التفكير اللساني في الحضارة العربية ـ د. عبد السلام المسدي ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس ـ ١٩٨١م.
ـ جوانب من نظرية النحو ـ نعوم تشومسكي ـ ترجمة مرتضى جواد باقر ـ مطابع جامعة الموصل ـ ١٩٨٥م.
ـ الخصائص ـ أبو الفتح عثمان بن جني(ـ٣٩٢ هـ) ـ تحقيق: محمد علي النجار ـ دار الهدى للطباعة والنشر ـ ط٢ـ بيروت ـ (د.ت).
ـ الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج لساني معاصر ـ د. عبد الله الغذامي ـ النادي الأدبي الثقافي ـ ط١ـ السعودية ـ١٩٨٥م.
ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ـ أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ـ٧٥٦هـ) ـ تحقيق: أحمد الخراط ـ دار القلم ـ دمشق ـ (د.ت).
ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ) ـ تحقيق: محمود محمد شاكر ـ مكتبة الخانجي ـ ط٥ ـ القاهرة ـ ٢٠٠٤م.
ـ علم اللغة الاجتماعي ـ هدسون ـ ترجمة محمود عبد الغني عياد ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ١٩٨٧م.
ـ قواعد تحويلية للغة العربية ـ محمد علي الخولي ـ دار المريخ ـ المملكة العربية السعودية ـ ١٩٨١م.

ـ كتاب سيبويه ـ أبو بشر عثمان بن قنبر (ـ١٨٠هـ) ـ تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ (د.ت).

ـ لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ـ محمد خطابي ـ المركز الثقافي العربي ـ ط١ ـ ١٩٩١م.

ـ اللسانيات واللغة العربية ـ عبد القادر الفاسي الفهري ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ ١٩٨٦م.

ـ اللغة العربية معناها ومبناها ـ د. تمام حسان ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م.

ـ المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية في العالم العربي ـ مجلة اللسانيات ـ المجلد(١) ـ العدد (٢) ـ ٢٠١٢م.

ـ المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم ـ خليفة الميساوي ـ ط١ ـ ٢٠١٣ ـ الجزائر.

ـ معاني النحو ـ د. فاضل السامرائي ـ مطبعة التعليم العالي ـ جامعة الموصل ـ ١٩٨٧م.

ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ أبو الحسن حازم القرطاجني ـ تحقيق: الحبيب بن الخوجة ـ الدار العربية ـ تونس ـ ٢٠٠٨م.

ـ المنهج الوصفي في كتاب سيبويه ـ د. نوزاد أحمد حسن ـ دار دجلة ـ ط١ ـ عمان ـ (د.ت).

ـ الملفوظية ـ جان سير فوني ـ ترجمة د. قاسم المقداد ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ ١٩٩٨م.

ـ النحو العربي والبنيوية واختلافها النظري والمنهجي ـ عبد الرحمن الحاج

صالح ـ مجلة الآداب ـ العدد(٧) ـ جامعة قسنطينة.

ـ نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد (دراسة عن منهج سيبويه في النحو) ـ مايكل جي كارتر ـ مجلة المورد ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ المجلد(٢٠) ـ العدد (١) ـ ١٤١٢هـ ـ١٩٩٢م.

ـ نشأة الدراسة الدلالية العربية وتطورها ـ د. أحمد عزوز ـ مجلة التراث ـ العددان (٨١ـ٨٢) ـ دمشق ـ ٢٠٠١م.

ـ نظرية الاستخفاف والاستثقال ـ بيض القول ميلود ـ الجزائر ـ ٢٠٠٩م.

ـ الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه ـ د. نهاد الموسى ـ عمان ـ الأردن ـ١٣٥٣هـ.

ـ الوظيفية في كتاب سيبويه ـ أطروحة دكتوراه ـ د. رجاء عجيل الحسناوي ـ جامعة كربلاء ـ كلية العلوم الانسانية ـ٢٠١٣م.

الفهرس

اسس ترجيح القراءات في الكتاب

(صنعة أبي بشر في التأويل النحوي)

القياس في مدونة سيبويه بين وصف الحقائق اللغوية وفرض القواعد

البناء الموازي للعوامل في مدونة سيبويه

(شجاعة العربية في التركيب الوظيفي)

اللغةُ صيرورةٌ اجتماعيةٌ ونفْسٌ عربيةٌ

(إضاءة سيبويه في مدونته)